عيون المعاصرة

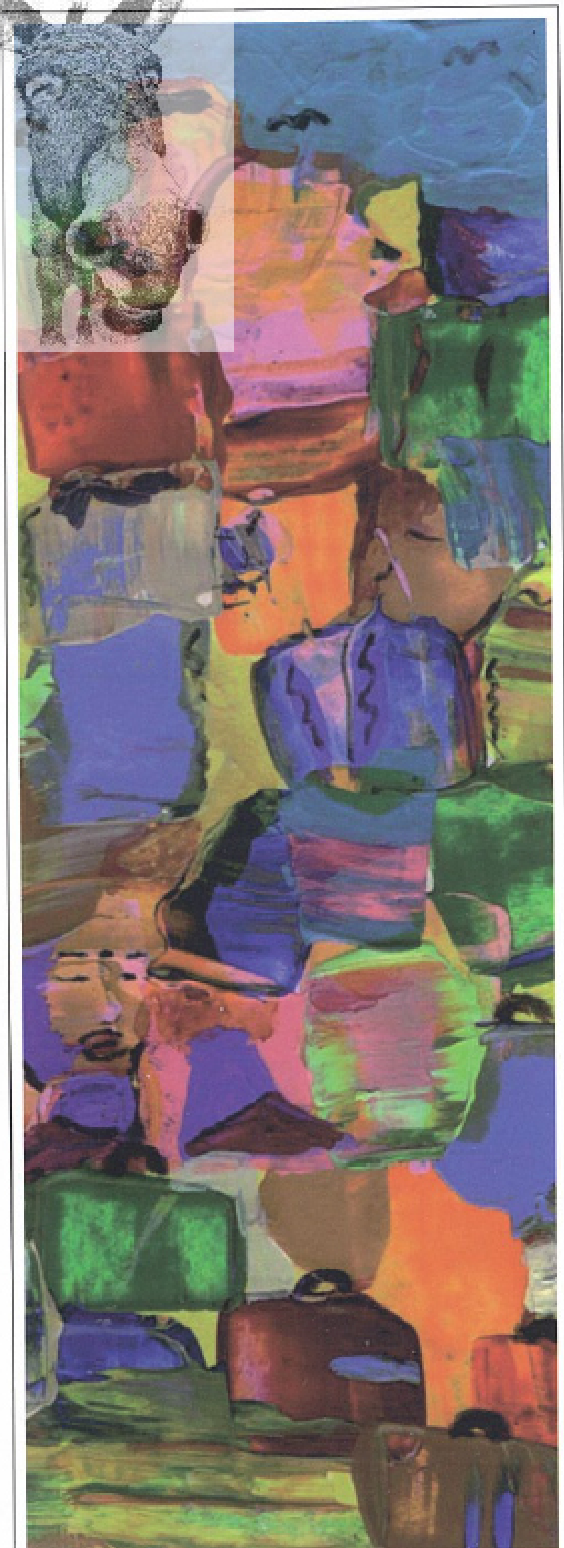

حسين الواد

سعادته... السيد الوزير

تقديم
شكري المبخوت

دار الجنوب

عيون المعاصرة

يديرهذه السلسلة توفيق بكار

سعادته ...
السيد الوزير

حسين الواد

سعادته... السيد الوزير

تقديم

شكري المبخوت

دار الجنوب

© جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر - 2011
79 نهج فلسطين - 1002 تونس
الهاتف : 179 785 71 (216+) الفاكس : 664 848 71 (216+)
e-mail : sud.edition@planet.tn
www.sud-editions.com

ISSN 0330-5627 - ISBN 978-9938-01-049-7

لوحة الغلاف للفنان عباس بوخبزة

Dégage ياعصابة السرّاق
ديقاج يا خمّاج

كتب حسين الواد هذه الرواية قبل الثورة التونسيّة بسنوات. ولسنا نشكّ في أنّه قد استلهم، زمن كتابتها، بعض ما كان يتداول من أخبار عن دولة الفساد والسرّاق وفضائح وزرائها وزعيمهم وعائلته المالكة تاركاً البقية، ولعلّها الأهمّ في حساب الفنّ، لمنطق الحكاية وصناعة الرواية.

وقرأنا المخطوط، إثر تجهيزه للنشر، بعيد الثورة. فوجدنا أنفسنا مدفوعين إلى استحضار نثار من تلك الأحاديث التي فاحت روائحها العطنة، هنا وهناك، لفرط بذاءتها ونذالتها. فبدا العالم الفنيّ الذي صنع من خيال الكاتب مُشاكلا لوجوه من الواقع الذي كشفت الأيام بعض أسراره.

غير أنّك لن تجد في هذه الرواية، وإن قرّبت وشبّهت، وزيراً بعينه وأكبر ظنّي أنّك ستظلّ تقرّب تقريباً ولا يقين بادياً لك. ويعسر عليك، مهما اجتهدت، أن تجد هذه الواقعة أو تلك الحادثة تحديداً ولكنّك ستلمس لمساً بأيّ منطق كانت تصرّف شؤون الدولة :

دولة نــاهبــي الأوطان وبائعيها ومخرّبي العقول ومستـعـبـدي الناس.

نعم، لا جدال في أنّ حسين الواد يتحدّث عن وزير اشتقّه من وزراء سيادته، القائد الفذّ والمنقذ البطل والضرورة التاريخيّة، ولكنّ لكلّ دولة «رجالا» (ونساء لو ندري) يخدمونها وفاء لسيادته... ولعصابته. فتنعتق الرواية بذلك، على قدر انغراسها في تربتها التونسيّة، من إسار التفاصيل والحيثيّات المحلّيّة لتقدّم لنا، بفضل المراوحة بين العينيّ الواقعيّ والمجرّد التخييليّ، آليّات الفساد والخراب ومنطق الاستبداد والاستعباد... ولا عبرة بعد ذلك بالأسماء فعلى مثالي مخلوعي تونس ومصر وعصابتهما يكون القياس.

وليس من باب الصدفة أن صاحب هذه الرواية لم يسمّ أحدا من شخصيّات الحكاية عدا خالته «خدّوج» لأمر ما يحتاج إلى بعض التأويل. فغياب الاسم باب إلى التنميط واستخدام الصفة مدخل إلى التعميم : فالوزير وزير بدوره الذي يؤدّيه في مسرحيّة سمجة، والاستعارة من الرواية نفسها مع بعض الترشيح، تؤلّفها حكومة رثّة ويخرجها مستبدّ جاهل يرقّيه القفّافون والقوّادون والمصفقون والمطبّلون إلى مصاف القائد الذي تخشى سطوته.

ولكنّ الخشية، الخشية كلّها، أن يجد قارئ هذه الرواية، بعد سنوات من الثورة التي شهدها أو بلغته أنباؤها، بينها وبين واقعه الذي سيكون شيئا ممّا كان وتعود حليمة إلى عادتها القديمة. وحينها سنتساءل، أنا وأنت أيها القارئ، بتعالم دارسي الفنّ السرديّ : أهو شرط الفنّ حين يتعالى على ظروف إنتاجه ؟ أهي قدرة السرد وألاعيبه على تجاوز التاريخ المعيّن بالمقام ؟

والأنكى أن نتساءل، بتشاؤم المؤرّخ الحزين في رواية حسين الواد الأولى «روائح المدينة» أو بتعالم من درس الثورات الكبرى والصغرى: أهو التاريخ الماكر يتكرّر، بمهازله ومآسيه، ويتعاود، بعبره ومغازيه، فتتشابه الوقائع الأساسيّة والخطاطات العامّة شبه الماء بالماء وإن اختلف الإناء؟

لست أحبّ أن أنغّص على أبناء بلدي فرحتهم برحيل الطاغية، فهم الذين سمحوا لحسين الواد بنشر عمله هذا في بلاده بعد سنوات من الحفظ في ملفّات الحاسوب مع إحكام الغلق بكلمة السرّ. ولا أريد أن أبعث في نفوس الراكبين على الثورة وأشباح الثورة المضادة وأزلام النظام البائد بعض الطمأنينة والأمل في عودة حليمة فهم من تدينهم هذه الرواية لدورهم في صناعة المستبدّين ودوام دولة الاستبداد. ولكنني أرى، ببرودة مصطنعة وحياد من يزعم الاستفادة من «العلم الوحيد الذي نعرفه ونعترف به»، على حدّ تعبير ماركس قاصدا به التاريخ، أنّ رجال الدولة، مذ كانت الدولة، أصحاب نفوس يجمح بها الطمع وتجنح بها غواية المناصب وتدفعها عقدة التفوّق إلى احتقار «الشعب الكريم» واستعباده. فالدولة والاستعباد صنوان.

إنّها نفوس تبني قوّتها ونفوذها الموهومين على أهواء عابرة تغذّيها قيم سافلة منحطّة. ولا يرحم منها ربك أحدا مهما تذرّع بالدين والأخلاق الحميدة أو بالحرّيّة والديمقراطيّة. واقرؤوا التاريخ إن كنتم في شك ممّا نقول.

إنّ منطق الدولة، هذا الكيان المصنوع من وهم وشارات وعلامات، عنكبوت غير مرئيّ وَهِن شديد الوهن ولكنّه يعرف كيف يشدّ إليه تلك النفوس الهائمة.

وهم يغذّي وهما يزكو بكذب معتّق يستحيل لغة مخادعة مخاتلة يلوكها لسان صفيق ينطق باسم كلّية مبهمة (شعب أو طبقة أو دين...) ناسجا بتكرار الأكاذيب خطاب الحكمة والرأي السديد لمصلحة الوطن العليا أو الذود عن الدين أو الاستجابة للحتميّة التاريخيّة... وما إليه من مشتقّات هذه الخزعبلات.

وبصرف النظر عن تشاؤم المؤرّخ الحزين الذي صنعه حسين الواد ليقول مثل هذا الكلام، وقد وسوس لنا به فوجدنا فيه وجها من الحقيقة فأثبتناه، فإنّ قصّة السيّد الوزير وسعادته تدفعنا دفعا إلى مثل هذا الوعي الشقيّ باغترابه واغترابنا.

* * *

تقوم الرواية على خطابين متظافرين : أوّلهما كالحاشية القصيرة الموجزة يحكي قصّة القصّة حين كانت مخطوطا ضائعا يبحث عن ناشر. وهو خطاب يفتتح الرواية ويغلقها ليكمل للقارئ الأحداث ويخبره عن أمر البطل ونهايته الدامية. وثانيهما خطاب المتن الذي يتحدّث فيه «السيد الوزير» عن حكايته مذ كان معلّم صبيان لا يرفع رجلا من وحل الحياة إلاّ لتغرق الأخرى إلى أن أصبح وزيرا في دولة سيادته يعيش ألوانا من السعادة ويتلذّذ بأطاييب الجاه والسلطة يلعب بالنار ظانّا قبل أن يحترق بها، وبعض الظنّ مهلكة، أنّه قادر على تجنّب أذاها.

ولم يكن هذا المزج بين قصّة إطار ينفصل فيها الراوي عن الشخصيّة وقصّة مضمّنة ترويها الشخصيّة نفسها مجرّد استمرار لتقليد فنّيّ تليد متجدّد ولكنّه كان ضروريّا خصوصا في نهاية الرواية

لنعرف المصير الذي اختاره حسين الواد للوزير بعد أن فرغ من المهمّة القذرة التي كلّفه بها سيادته ليضحّي به في أقبية وزارة الداخليّة ومذبح المحاكم ومسلخ مستشفى المجانين.

وللمخطوط رحلة أنبأنا بها خطاب الحاشية : والمحطّة الأولى، في الترتيب الخطّيّ للرواية، إنما هي نهاية المطاف في ترتيب الوقائع وخبر النصّ، تطالع القارئ فيذهب في وهمه أنّها من باب تقعّر الروائيّ في فنون الكتابة السرديّة ومحاكاته لبعض النصوص الكبرى. فأوّل ما نعرف عن هذا المخطوط أنّ أحد الباحثين وجده بإحدى قاعات المطالعة بالمكتبة الوطنيّة. ولكنّنا نعلم حين نقرأ المتن أنّ الرواية جديرة حقّا بأن تكون حيث وجدها مَن حرص على نشرها. فهي جزء من تاريخ لم يكتب بعد في بلاد مازالت دماء ذاكرتها تنزف خيانات وغدرا ونذالات قبل الوزير سيء الذكر محمود بن عيّاد الذي شقّ البحر متأبّطا خزينة الدولة وبعده إلى أيّام «المخلوع» وعصابته من ذويه ومن والاهم من النهّابين والسرّاق. صفحة أخرى من صفحات التاريخ المكتوبة بدم القهر والظلم والنهب والإغارة والسطو والمتاجرة بالأوطان والسكان لا ينبغي أن تمحي من الذاكرة الوطنيّة.

سلّم الباحث المخطوط إلى الناشر وهو بداهة غير صاحب «دار الجنوب». فالنشرة التي تتحدّث عنها حاشية الرواية نشرة رمزيّة صدرت إيفاء بواجب الذاكرة وتحريضا على ضرورة المحاسبة.

أمّا المخطوط الأصليّ فقد كتبه السيد الوزير على سبيل المرافعة بعد أن امتنع المحامون عن الدفاع عنه بتعلاّت لا تليق إلاّ بقضاء مثل قضاء سيادته فقصد منها أن يفسّر بالباء والتاء ما وقع له حتّى يرمى في السجن ويقدّم إلى المحاكمة.

غير أنّ مرافعة السيّد الوزير أرسلت إلى أرشيف السجن بعد نقله إلى مستشفى المجانين. فوقعت بيد رجل أمن عوقب، على عادة الإدارات التونسيّة، بإرساله إلى مصلحة الأرشيف فأراد التفويت فيها بالبيع إلى صديق طفولة ودراسة له يشتغل مع أصحاب المطابع والناشرين.

وقد خاب سعي هذا الصديق في نشر المخطوط لخطورة الفضائح ربّما ولغلظة عصا الرقابة ولا شكّ. والأرجح أنّه تعمّد ترك المخطوط في المكتبة الوطنيّة ليقع بيد مَن دفعه للنشر وإن كان مكتوبا على ورق العصر وبحبر أهل زماننا. فهو نصّ لا يفتقر إلى تحقيق وتدقيق وإنّما رمزيّة الدار التي وجد فيها هي التي جعلته يكون حيث وجد.

كذبة جميلة تردّد صدى الكلام غير المباح في عرف حفيد شهريار العصر الذي أوغل في دماء النّساء والرجال. كذبة رائقة استلهمها حسين الواد ليصوغ من خلالها، في ما نظنّ، نهاية اعترافات السيّد الوزير ومرافعته فجاءت قويّة دامية، هادرة عنيفة :

«مجنون يقتل مجنونا». القتيل فيها هو الوزير التيّاس رمز السلطة الفاسدة والقاتل نقابيّ يرمز إلى السلطة المضادّة قد سحقته آلة التفريط في مصانع الدولة للنهّابين والمتنفذّين فذهبت بنضاله السلميّ أدراج الرياح ومحقته آلة الطب النفسيّ تخديرا وصدما بالكهرباء. فما كان له إلاّ أن يتظاهر بالاستقامة طلبا لبعض السلامة ولكنّ ما في القلب ظلّ في القلب.

شخصان سليمان يلتقيان في مستشفى المجانين لأسباب مختلفة في الظاهر والأصل فيها واحد : دولة نهمة تأكل أبناءها حين يزعجون سيادته يستوي في ذلك من سبّحوا باسمه ونفذوا رغباته فانتهت

مهمتهم ومن دافعوا عن حقّهم في الحياة الكريمة ووقفوا ضد بيع **الوطن.**

قفلة في الرواية صادمة يُجْهِز فيها رمز النضال الاجتماعيّ السلميّ على رمز السلطة الخائنة. وإن هي إلاّ صورة من صرخة المسحوقين في وجوه الجلاّدين عندما تصل حرب الطبقات إلى مداها المنطقيّ. إنّها حرب كانت بالأمس وحدّثتنا عنها أدبيّات الثورات ومازالت اليوم واقعا وإن اتّخذ أشكالا أخرى بعضها واضح فاضح وبعضها متخفّ مزوّق بأكاذيب الميديا والإعلام. وفي الحالتين لم تطلع من خيالات ماركس وأضرابه من الثوريّين.

«مجنون يقتل مجنونا» بهذا تنتهي الرواية ولكنه جنون التاريخ المضرّج بالأحمر القاني اختصرته استغاثة النقابيّ في الجملة الأخيرة من نصّ الرواية : «يا لثارات الشعوب».

نهاية، كالولادة الجديدة، مضرّجة بالدم في ضرب من النبوءة، وقد كتبت الرواية منذ سنوات كما قلنا، بما سيكون حين وقف شعبي صارخا في وجه الطاغية «ديڤاج» ملخّصا، بهذه الكلمة السحريّة، ما صاح به النقابي الفصيح أمام السيّد الوزير عندما همّ بطعنه : «يا بيّوع، يا خائن، يا وبش، يا فاسق، يا سارق» مع حفظ الفوارق بين الرواية والواقع وإن كانت الروح واحدة : ثوريّ الرواية أزاح فردا من العصابة وشعبي البطل أزاح زعيم العصابة، والنقابيّ المسالم لم يجد غير السلاح الأبيض لمحو الخائن وشعبي المسالم وجد في نصال الكلام ودروع الصدور العارية ما به يجهز على رأس الخيانة.

هكذا هي ثارات الشعوب أدوات شتى تتحقّق بها ليتخلّص الناس من السرّاق والخمّاج سواء أكانوا سادة وزراء يمثلون يد السلطة التي

تنفّذ (ديڤاج) أم أزلام النظام الذين يبرّرون الفساد والطغيان (ديڤاج) أم عصابة السرّاق التي لا تعرف إلاّ النهب والتمعّش (ديڤاج) أم سيادته نفسه الذي يدير شبكة المافيا ويبيع الوطن (ديڤاااااااااج).

* * *

أمّا المخطوط نفسه، أو خطاب المتن، فقد جعله حسين الواد مشدودا إلى أنا المتكلّم الجامع بين شخص السيد الوزير وراوي الحكاية.

خطّة في السرد تبدو بديهيّة بما أنّنا أمام مرافعة يتولاّها المتهم نفسه واعترافات وشهادات لا تصدر إلاّ عمّن عايش الأحداث بل صنع جزءا منها.

والطريف حقّا في حكاية السيّد الوزير ، كما وردت على لسانه، أنّها تجعل القارئ يبدي نحوه بعض التعاطف. أهو سحر البوح ووقعه على النفس أم هي تلك السخرية اللّطيفة التي تتخلّل أعطاف النصّ فتشد إليها القارئ ؟

الثابت عندنا أنّ من بواعث هذا التعاطف ، علاوة على جعل الوزير نفسه يحكي ، صنع الحكاية من قماش المفارقات لنجد وزيرا يلعب لعبة قذرة محافظا في الآن نفسه على مسافة نقديّة قايض بها ماضيه وقامر فيها بمستقبله. فكان الخسران المبين بتورّطه في أحابيل السلطة ومساهمته في صناعة الكذب المعمّم ووضع خطّة بيع الوطن وتنفيذها.

أهي لعبة سرديّة قوامها من اعترف بذنبه فلا ذنب له وسنادها فوق كلّ خائن بيّوع من هو والغ أكثر منه في الخيانات والتجارة الحقيرة ؟

الحاصل أنّك أمام بطل نذل وبيّوع محبّب إلى النفس وتيّاس أراد أن يكون زوجا محترما... للسيّدة العاهرة دولة السرّاق.

ولو أعدنا صياغة الرواية بغير ضمير المتكلّم، غيبة أو مخاطبة، لذهب ماؤها وضاع ألقها لأنّنا واقعون لا محالة في برودة التحقيق أو مزايدات الادّعاء العام أو منطق التهوين على لسان الدفاع. لذلك فالحاكم الحقيقيّ الذي يخاطبه الوزير بـ «سيدي الحاكم»، وهي لازمة في الرواية توقّع مقاطعها وتشتغل فيها اشتغال الفاصلة الواصلة، إنّما هو، في تقديرنا، المرويّ له الملتبس بالقارئ المفترض. فما يفعل القاضي بمرافعة متّهم بالخيانة من دولة الخونة التي اعتادت إعداد الملفّات لمن انتهت صلاحيتهم وأتقنت تجهيز الأحكام لكباش الفداء قبل المحاكمات ؟

بهذا جعل الواد لشخصيّة السيّد الوزير عمقا إنسانيّا يخرجه من منطق الشيطان الرجيم في ضرب من التبعيد يكون به مراوحا بين سذاجة المعلّم الذي كاد أن يكون رسولا وترسانة القيم والمبادئ المفترضة فيه وبين تخابث من وقع في شرنقة السلطة والجاه. ينوس بين القطبين باحثا عن توازن هشّ لا يبقي أمامه إلاّ أن يبرّر حياته واختياراته وأفعاله وخياناته. وهو يبررها، في الغالب، بمنطق، مرتجّ لا تزعجه المتناقضات ما دامت، في تنافرها، قوارب وهمية لنجاة مستحيلة.

فالمعلّم المخلص كان «يمقت الدولة» لتراجعها عن مجانيّة التعليم ولكنّه حين وجد في الدروس الخصوصيّة ما يمكنه من راتبين فوق راتبه أصبح يدافع عن أكذوبة «مجتمع التفوّق» والامتياز شعاره في ذلك «الحاجة أقوى من الكرامة». وفي صلب النصّ تفصيل لهذه الحاجة.

والمعلّم المخلص هو «ابن هذا الشعب المسكين» يعرف أنّ الوزراء «لا يأكلون الخبز إلاّ بالجبن» ولكنّه يقبل المشاركة في «المسرحيّة التافهة» ضمن حكومة الفساد والأيادي الوسخة.

والمعلّم المخلص لم ينتم يوما إلى الحزب الحاكم وكان يسخر من أعضائه فيسمّيهم «كلاب الحيّ» ويرى فيهم حشدا من «الانتهازيّين والمتملّقين والوصوليّين والطمّاعة» ولكنه سرعان ما أصبح يبيع للناس في «اجتماعات شعبيّة حاشدة»، على حدّ تعبير جهاز الكذب المرئيّ والمسموع والمكتوب، يشرف عليها بتعليمات سامية كلاما ينوّه بسيادته وحنكته وتبصّره وسداد رأيه ويبهرج سياسته الحكيمة أمام وجوه بائسة كالحة فقيرة فترد الفعل بأن تحرّك أياديها تصفيقا حارّا وتسيل ألسنتها هتافا للرئيس والحزب والدولة.

والمعلّم المخلص كان يرى في المنظّمة الشغيلة بعض النفع والجدوى بما أنّها تتبنّى مطالب الشغّالين وتدافع عن حقوقهم. ولكن حين جدّ الجدّ وأضرب عمّال المصانع التي فرّط فيها السيد الوزير للقروش الضارية دفاعا عن خبز أولادهم ثمّ اعتصموا منافحة عن كرامتهم أصبح يعتبرهم وحوشا و«حاقدين على الدولة» ونجاحاتها ومستقوين بالإعلام الأجنبيّ الصائد في الماء العكر. ولم يجد من جواب للأمين العام للمنظمة الشغيلة حين هاتفه لمعالجة الملفّ إلاّ ردّا ينضح احتقارا وخرقا وعنجهيّة : «دعونا يا سيّد نشتغل. امسكوا عمالكم. مصلحة البلاد فوق جميع الاعتبارات».

ومن مفارقات المعلّم المخلص أنّه كان «لا يذكر الدولة وأهلها إلاّ بالشتيمة» مثلما كان يعرف أنّ معلّم الصبيان لا يصلح للوزارة ولا يستحقّها ولكنّه صدّق سيادته حين وضع ثقته الغالية فيه ليؤدّي مهمّة قذرة معتقدا أنّها فرصة العمر.

ومعلّم الصبيان هذا ، لمّا تورّط واكتشف أنّ المصانع والمؤسّسات والشركات الخاسرة خاسرة لأنّ حساباتها وميزانيّاتها مزيّفة بعد أن

جالت فيها الأيدي واصل اللعبة رافعا شعار العصر «تحرير الاقتصاد»، تطبيقا لتوصيات الخارج حيث «تفصّل وتخيّط شؤون البلاد»، ونمّقه بحكمة التجّار من الأجداد «الخاسر يبيع» فتحوّل بذلك من «بيّاع كلام بارع» ، كما قال له سيادته في لقائه به، إلى قاطع أرزاق وبائع أوطان وقد ظنّ ، شأنه شأن معظم التيّاسة، أنّ الأمر جدّ.

ومفارقة المفارقات في الرواية الورطة الكبرى التي عاشها المعلّم التيّاس : كيف يكون نزيها في تطبيق قوانين الصفقات ويحترم قواعدها المسطورة وقد هيجت رائحة الدم المسفوح صغار القروش وكبارها جميعا ؟

ولم تنفعه مبادئ المعلّمين السامية ولا استقامتهم حين يخلصون لعملهم : «يزعجني أن يفوز باللقمة من لا يستحقّها» و«لا غشّ ولا تدليس» موصيا بها مدير ديوانه. فاللعبة من بدئها مغشوشة لأنّها جزء من «ملحمة الإفساد والتخريب» المسمّاة زيفا وبهتانا في إعلام سيادته «ملحمة البناء والتشييد». وبعض أسرار هذه اللعبة أن العروض لا تفوز بها إلا شركة بعينها يصادف أن تقدّم عرضا دون ما حدّده الخبراء وقدّروه.

وقد نحت حسين الواد من هذه المفارقات ، وغيرها ممّا لم نذكر، شخصيّة السيّد الوزير فجاءت متناقضة مركّبة تركيبا. وجعلت صيغة المرافعة والاعتراف التي اختارها الروائيّ لتبلغ الشخصيّة صوتها تضيف إلى الاغتراب الوعيَ بالاغتراب ليكون الشقاء أشدّ وأقسى.

وكلّما خطا السيد الوزير خطوة في مفاوز السلطة ومجاهلها لينفّذ مشروعا مبهما لا يمسك بجميع خيوطه غاصت رجلاه في وحل النذالة والخيانة فيتخبّط راقصا كالبهلوان على حبال الدسائس والشبهات

والشكوك ليجد نفسه واقعا تحت كلكل قوى خفيّة تحوّله، هو نفسه، إلى دمية تحرّكها يد إله خفيّ غائب معلوم حاضر محتجب.

وما إن تخلّى معلّم الصبيان عن وضعه الأصليّ حتى بدأ يضرب في فيافي الضياع والتيه فسفح نفسه على بلاط الأمير مسلوب الإرادة يسعى إلى مرضاة الإله الخفيّ الذي «ينبغي ألاّ نقول لسيادته إلاّ ما تحبّ سيادته أن تسمعه» على قول الوزير المستشار الناطق باسم الرئاسة.

وما كانت هذه الرحلة إلاّ لتنتهي به إلى خسران ذاته ليستحيل آخرا في خدمة غيره. فقد فهم أنّ سيادته يحبّ أكل القسطل بيد «القطّوس» (القطّ)، كما جاء في المثل التونسي البليغ، ورضي أن يكون القطّ السعيد الذي يُتَوَسَّلُ بيده فتحترق منه اليد ذاهبا في وهمه أنّه قادر على أن يحميها بقفّازات من أخلاق المعلّمين وخبرتهم وتمرّسهم وألمعيّتهم أي أوهامهم عن أنفسهم.

مغترب مستلب باع قيمته الاعتباريّة مقابل نفوذ وهميّ فبخس، من حيث أراد أو لم يرد، من قيمة المؤسّسات الموضوعة للتفريط. نعم، «الخاسر يبيع» بأبخس الأثمان ذاته وبلاده.

فقد السيطرة على واقعه فأضاع عائلته وضيّع عائلات العمّال وأفقدهم مورد رزقهم.

بذل لسيادته، رأس الفساد، ما يملكه من رصيد قيمي وقدّم لحم العمّال إلى القروش لتنهشه هنيئا مريئا.

دوّخته الدسائس وخنقته شبكة المصالح المتناقضة فلم يجد أمامه من سبيل إلاّ قارورة الويسكي بحثا عن سكرة للنسيان «لا حراك بعدها». أمّا «كميته» ونقله فهي جبن المبادئ التي دفعها بظاهر اليد مع

شيء من فواكه الأكاذيب والسفالات والنذالات. سكران يتخدّر ليعود إلى مهمّة التياس بهمّة وحماس، وسكران عند صحوه يخدّر الشعب الكريم بالخطب الرنّانة التي تسبّح بآلاء سيادته وحكمته أو بدفعه إلى ابتلاع حبوب التفويت في أملاك الدولة كرها وغصبا.

أيّ فقد وضياع أوصلاه إلى المشاركة في خطّة جهنّميّة يصبح فيها رجال الدولة كلاب حراسة لرأس المال المشبوه والانتهازيين حاملين على وجوههم أقنعة منسوجة من ميتافيزيقا «المصلحة العليا للوطن» و«خدمة البلاد» و«المسؤوليّة الجسيمة» و«التضحية بالراحة والنفس».

ولا يتورّع السيد الوزير في مرافعته وهو في أوج ضياعه وتبريره لذاته المسلوبة عن الزعم : «أنا صاف نظيف» و«ما خنت ولا سرقت». إنّه لجناس بديع : لقد صفّى السيد الوزير أملاك الدولة ونظّف خزينتها. لم يسرق المعلّم المخلص، وهي القيمة الوحيدة التي ظل متمسكا بها، ولكنّه مدّ يد المساعدة للسرّاق حتى يأكلوا لقمة حلالا على مقتضى القانون والمناشير المنظمة للصفقات. لم يخن حقا وكل ما في الأمر أنّه نفّذ مهمّة بيع الوطن، شركاتٍ ومصانع ومؤسّساتٍ، لعصابات الداخل وبيع البلاد ، أرضا وبحرا وجوّا، لعصابات الخارج وقوى الهيمنة التي أصبح المهذّبون من مثقفينا وسياسييّنا يتجنبون تسميتها بالإمبرياليّة.

وربّما كان وعي السيد الوزير باغترابه ، وهو ما كشف عنه خطاب التبرير عند المرافعة، أهمّ للقارئ من الاغتراب نفسه. فقد قدّم الدولة عارية من مساحيقها وبهرجها وأنزلها من عليائها لنراها مجسّدة في أشخاص تكاد تنطق رغم الاقتصار على صفاتها.

فهذا سيادة الرئيس إله صغير منفصل عن الغوغاء في مكتبه لا يتكلّم إلا قليلا ولا أحد «يعرف ما يجول في ذهنه» بارع في الضرب حين لا يتوقع منه الضرب. غير أن روحه المصنوعة من الفساد تسري في كيان الدولة كلّها وينفخ منها في صدور وزرائه.

وهذا السيد الوزير الأوّل «داهية لعين» «مسحور بالزعامة» «كائن زئبقي» «فاسد الطبع خبيث الطويّة شديد الأذى فائق المهارة في فتل الحبال» منذ الصغر. وترى في سلوكه وعلاقاته معاني قضاء المصالح والانتهازيّة والوصوليّة متجسّدة.

وهذا الوزير المستشار الناطق باسم الرئاسة «رجل داهية خبيث من النوع الذي لا تتبيّن من كلامه ولا من تعابير وجهه أيّ شيء». هو الحجاب الفاصل بين المقام السامي والوزراء لفرط حرصه على ألاّ يكدّر أحدهم بكلامه فرحة سيادته الدائمة في بلد الفرح الدائم كما كانت تقول لنا تلفزتنا الوطنيّة أعزّها اللّه. شعاره «ليس بالإمكان أحسن ممّا هو كائن».

وتحت هذه القيادة العليا للفساد نجد السادة الوزراء أدوات التنفيذ وهم تيّاسة من الصنف الأوّل أغوتهم شهوة النفوذ والجاه. «أغبياء أو تافهون حمقى» يسندهم أصحاب المصالح والمنافع. يحملون على بعضهم «الضغائن والمقت» و« ليس فيهم من يستطيع أن يتكلّم خمس دقائق بطلاقة».

أما جنود الخفاء فهم مدراء الدواوين : تيّاسة أصيلون مخلصون كأنهم جبلوا على العبودية ينفّذون الأوامر والتعليمات ويعملون كالبغالّ.

هذه هي الكذبة المسمّاة دولة : أشخاص يبحثون عن متع الجاه ولذائذ النفوذ تمنحهم الدولة بقوّة القانون شرعيّة وهميّة ليخرجوا عن

طوق الإنسانيّة ويلبسوا قناع «التظاهر بالاستماع» و«الإكثار من السكوت» وتقطيع الكلام بما «يدلّ على عمق التفكير والتأمّل» لـ «كيل الثناء لسيادته» واللّهج «بالإنجازات والمعجزات»... إلخ. إن هو إلاّ ظاهر والباطن خدمة مصالح المتنفّدين مقابل بعض الفتات الذي ترميه لهم القروش ، صغارها وكبارها ، من لحم الناس وخيرات البلاد.

بهذا يهيمن النظام : نفوس خاضعة طيّعة تسبّح بحمد القائد الفذّ ونظامه العتيد. وليس أقوى من سلطان الكذب حين يصدّقه هؤلاء «السرقة والكذّابون والنمّامون والخونة والقفّافون والانتهازيّون والوصوليّون والفاسقون والمخاريط».

ومن وعي السيّد الوزير باغترابه نكتشف آليّات اشتغال الدولة لخدمة طبقة بعينها. فليس الحديث عن تخريب الاقتصاد وبيع الأوطان مجرّد شعارات يرفعها المعارضون الحاقدون والنقابيّون الحاسدون وإنّما هو حديث لا تجد تحقيقه إلاّ عند من خبر الأمور ولمسها لمسا مثل السيّد الوزير.

فقاعدة اللعبة بسيطة لها ظاهر وباطن : تعالج المؤسّسات الخاسرة بالبيع والتفريط حسب القوانين وكراريس الشروط والتقديرات الموضوعيّة وتجتمع اللّجان الموقّرة فتشتغل بجدّ العارفين بالقانون وبحماس وطنيّ فيّاض. وتفوز بالصفقة شركة حديثة العهد بسعر أقلّ ممّا قدّر.

أمّا سرّ اللعبة فهو أن يشتري المتنفّذون الذين يرضى عنهم سيادته الشركة اليوم ليبيعوها غدا كاسبين مابين البيع والشراء من فرق. والأدهى أنّهم لا يدفعون فلسا فالوعد بقرض من البنك كاف لإتمام الصفقة.

فبأيّ آلاء الاقتصاد الحرّ الشفّاف تكذّبون ؟

وعمّ تتساءلون واللعبة واضحة يحميها القانون في دولة لم تعد تقنّن إلاّ الغصب والنهب ؟

* * *

وعلى هذا النحو يتجسّد زواج المتعة بين أهل السياسة ورأس المال. وهو زواج لم يحصل فيه المعلّم الوزير على نصيبه من المهر ولم يتمتع فيه بمنصبه وما وراءه من جاه بعد أن قضيت به الحاجات لذلك استحقّ في الرواية، عن جدارة، لقب التيّاس. فما هي «سعادته» التي تتصدّر عنوان الرواية ؟

غنم السيد الوزير من وزارته لحظات عابرة كان يختلي فيها بكاتباته يمتّع جسده ويلبّي رغباته الجنسيّة المتجدّدة. وتلك سعادته.

غير أنّ علاقة الوزير بالنساء والجسد معقّدة مركّبة تقرأ في مستويات مختلفة وفي طبقات متفاوتة سنترك منها ما يطفو على السطح لنجرّب التأويل استنادا إلى ما هو ثابت فيها ومتحوّل انطلاقا من صورة الخالة «خدّوج» الاسم العلم الوحيد المنصوص عليه في الرواية مقابل حشد من صفات النساء : الزوجة، الكاتبات الثلاث، صديقة الزوجة، ابنة زميل الوزير حين كان معلّما ، زميلة له مطلّقة، امرأة في سنّ أمّه. مغامرات كثيرة تذكر في الرواية بتفصيل متفاوت. وإذا كانت هذه المغامرات قد سردت مرارا وبنوع من الإلحاح رأى فيه الخبير الأمني أو القضائي مكرا متعمّدا يصرف عن الجرم الأكبر، مثلما جاء في تعليقه على غلاف الملف، فإنها، في العمق، تشير إلى واقع

معقّد لا يستجيب للنظريات الشائعة التي تفسّره، فهي قد سيقت لتشهد جميعها على «قوّة الاشتهاء» لدى المعلّم الوزير. إلاّ أنّ في حضور الاسم العلم بخلاف الصفات دلالةً تجعل منها بؤرة ترشح بعناية الراوي الشخصيّة واهتمامه.

ولئن كان الانشداد إلى المال السهل وإدمان الجنس لدى أهل السياسة أمرا موثّقا لا يحتاج إلى أدلّة ، فإنّ لفضاء الجسد في رواية «سعادته» سطحا ونتوءاتٍ وأعماقا : أما السطح فللجسد المدجّن المؤسّسي (الزوجة) وأما النتوءات فللجسد العضويّ المشتهى (الكاتبات والأخريات) وأما الأعماق فللجسد الرمزيّ المحرّم (الخالة). وقد وردت صورة الجسد، في تفسيرات المعلم الوزير وتبريراته شديدة التعقّد والتشعّب مشحونة بصنوف من التناقضات. فهو، نظريّا، من أنصار «العلاقات المتكافئة» ولكنه، في جميع ما باح به من مغامرات، يأتي خلافها.

وتقوم بلاغة الجسد في الرواية على صور ثلاث، يتردّد بينها السيّد الوزير، يكمّل، في التحوّلات التي تطرأ عليها، بعضها البعض : دلالة حرفيّة لا تزيد عن أصل المعنى في متعارف الأوساط تعبّر عن الزوجة، واستعارة جذرها أوديبيّ قائم على علاقة الاستبدال بين الأم والخالة، ومجازات مرسلة تجزّئ الكلّ في عشيقات مختلفات.

كانت الزوجة في عين الوزير لا تملك «غير جسدها (...) تهبه بسخاء». تزوّجها اضطرارا يوم كان في بعض الأرياف وحيدا. اختارتها له أمّه بعد استشارة خالته خدّوج ليتخلّص من «ضغوط الكبت المزمن». جسد وظيفيّ مهامه مسطّرة مبرمج، منذ البدء، للعادة والألفة القاتلة : جسد مدجّن، يتحوّل التعاقد فيه إلى ملكية ، فخصام

فقرف فنفور فقطيعة، «لم أعد أطيق لها صورة» قبل أن يصل الأمر إلى التعنيف.

إنّه مسار الأزواج المحترمين اجتماعيًا البائسين نفسيًا وازاه في البداية البحث عن «التنويع» لدى نساء ساقتهن الصدفة أو خطّط للإيقاع بهنّ ثم أضحى مسارا من غير رجعة حين دخل حيّز المقارنة بين الزوجة وغيرها من النساء : «وقع بصري على صدرها الكبير المترهّل. خطر في ذهني منظر صدر كاتبتي الناهد النافر الصلب». صور من بلاغة صدور النساء متناقضة لها أصل سنراه بعد حين ولكنّهما مشتقّان بوجه من الوجوه من صدر الخالة خدّوج على سبيل التضاد والقلب أو التداعي والاستبدال.

فليس صدفة أنّ أوّل ما يثير السيّد الوزير في كاتباته إنّما هو الصدر «ومنبت النهدين» و«تكوّرهما» ثم تهيجه منهنّ رائحة العطر المنعشة فيبدأ بعد الإثارة يسيّج فضاء الرغبة «في عقر دار الحكومة»، كلّما شدّت على أعصابه فوتّرتها أكثر مما يحتمل، لعزل لحظات المتعة المسروقة عن زمن المؤسّسة السياسيّة : تغليق للأبواب، إطفاء للأضواء، شيء من الموسيقى ثمّ صمت «فليس في هذا الموقف مكان للكلام». ويبدأ حوار الأجساد. لغة قبل اللغة لها سيمائيّتها المرتبطة بمورفولوجيّة الجسد : انحناءة نهد أو خصلة شعر أو لمسة يد أو تضوّع رائحة. وضعيّة تخاطب لا تخلو من تلعثم الأجساد قبل أن تصل إلى صفاء الفصاحة، تمتزج فيها الحواس وتتراسل الأحاسيس والخيالات لتقوية احتمالات اللذّة. عالم من المثيرات والرموز تنفتح على لانهائيّة الرغبة للتمتّع بتفاحة اللذّة الحرام. «ولكلّ جسد (...) نكهة تدرك ولا توصف» كالشعر حين يبلغ ذرى الإبداع مقابل النثر الذي في جسد الزوجة.

إنّها بلاغة جديدة تعيد لكلام الفرد ومفردات الجسد نضارتهما، همسا وانتشاء، بعيدا عن الخطاب الخشبيّ للمؤسّسة السياسيّة بمشاكلها والمؤسّسة الزوجيّة بعاداتها وروتينها. لحظة تتجلّى فيها الطبيعة الماديّة صافية خالصة في عالم التصنّع والدسائس والمصالح.

ولكنّ أعجب ما في هذه الطبيعة التي جبل عليها السيّد الوزير علاقته بخالته خدّوج. أرملة عاهدت زوجها ألاّ تتزوّج بعده تضحية بذاتها في سبيل ثمرة زيجة انقطعت بها الأيام في المبتدأ. لا يبدأ اللقاء بها حين يزورها المعلّم إلاّ بدسّ رأسه أو وجهه أو أنفه في صدرها بين نهديها، ليستنشق رائحتها التي لم يصادفها «في امرأة أخرى قطّ» فسكنت تلك الرائحة وسكن ذاك العطر المميّز منه الجسد أبدا.

«كانت تبادلني حبّا بحبّ (...) كنت أعابثها كما لو كنّا صبيانا نلعب».

ولكنّ القرائن التي نظفر بها عند الحديث عن الخالة تشي بحبّ محرّم. والأرجح عندنا، افتراضا وتأويلا لأنّنا لا نملك المفاتيح التي يدخل بها فرويد وأتباعه إلى دهاليز النفس المعتمة، أنّنا أمام صورة استعاريّة من عقدة أوديب استبدلت فيها الأم بالخالة. أفليست الخالة الصنو الأكبر من صور الأمومة ؟ فما معنى دسّ الرأس في «شونها» بين الثديين إن لم يكن حنينا أبديا للأم مصدر الغذاء والطمأنينة والسعادة ؟ وما الذي يجعله يشعر بأنّه «يبعث من جديد»، على حدّ اعترافه في مرافعته، حين «يعبّ وقت الضيق واليأس من عبير صدرها الحنون» إن لم يكن استجماما مؤقتا لمواجهة عالم مناوئ ؟

ومن اعترافات السيّد الوزير، وهو يبرّر حياته وشدّة تعلّقه بالنساء واشتهائه للأجساد، قوله : «هكذا انا سيّدي الحاكم مشدود إلى الطبيعة منذ خلقت وإلاّ كيف تفسّر تعلّقي الشديد بخالتي ؟» ولكن

«الطبيعة الخالصة»، وقد طال بها الانتهاك، لم يعد لها كيان إلاّ في عتمة ما يخالجنا من أضغاث الأحلام.

وعلى هذا رجحنا أنّ النساء اللاّتي استرق معهنّ لحظات من المسرّات والملذّات العابرة إنّما هنّ عنده بدائل، على سبيل المجاز المرسل أو قل الكناية إن شئت، من العلاقة المشبوهة رمزيّا بخالته يتوهّم أنّه يحقّق، معهنّ وبهنّ، ما كان اشتهاء لعبيّا لا يصل مع الخالة إلى حدّ الإرواء إذ تحول دونه قيود المجتمع الأخلاقيّة وقمعه للغرائز ويحظره قهر الثقافة أو الكليّات الكونيّة المغروسة في النفس لعلاقة المحارم.

ولعلّ هذا التنازع بين السيد الوزير وابن خالته الوزير الأوّل على امتلاك جسد الأم الرمزيّة أو الحقيقيّة متجسّمة في جسد عاطل منذ أن ترملت وعاهدت ما عاهدت عليه، تنازع رمزيّ بين أوديبين. يتفوّق المعلم على ابن خالته في الفوز بعطف الأم فينتقم، عندما أصبح وزيرا أول، من أخيه الرمزيّ باقتراح تعيينه للمهمّة القذرة لتوريطه وإبعاده عن الأم – الخالة بإغراقه في الملذّات التي وفرتها له الكاتبة المتمرّسة بفنون الإغراء والدهاء. قد غلب المعلّمُ الوزيرَ الأوّل «في الفوز بحبّ أمّه خالتي» على ما صرّح به السيّد الوزير حين راجع حساباته جميعا فما كان منه إلاّ أن نقل حلبة التنافس إلى مجال «نساء وضيعات» شغلنه عن دور التيّاس الذي أعدّه له.

فليس من باب الصدفة أنّ علاقة المعلّم الوزير بكاتبته توازت مع اختفاء الخالة خدّوج بتألّقها لتظهر في نصّ الرواية عجوزا مقعدة يقبّل رأسها تبجيلا بدل أن يدسّ أنفه في صدرها. وليس من باب الصدفة أيضا أن يستمرّ الوزير في انقطاعه عن زيارة خالته طوال مباشرته

متعته، فعندما صُرِفَ متعجّبا عمّا كان قد بيّت العزم عليه مع آخر كاتباته في مناسبة أولى وزهد في استعدادها لاستقباله في مناسبة ثانية أقدم رأسا على زيارة خالته التماسا لتلك «القوة» التي كانت تشحنه بها ليشعر أنه قادر على أن يهدّ الجبال.

لعب ماكر بالرموز خفيّ يسري في جسد النصّ حين تذكر الأجساد ولكنّها لا تعدو أن تكون ترشيحا لاستعارة الخالة _ الأمّ الممنوعة المحرّمة.

وتقوى هذه الرمزيّة في ما يقع وراء اختيار اسم «خدّوج» للخالة من دلالات. فهو ترخيم لـ «خدّوجة» التي نصغّر بها في لهجتنا التونسيّة، على سبيل التحبّب والتودّد، الاسم «خديجة». وهذا الاسم المعتّق المنغرس في الذاكرة العربيّة الإسلامية زوجا للنبيّ وأمّا، يدلّ في جذره اللّغويّ على النقصان والمجيء قبل الأوان. فكأنّ السيد الوزير محكوم بسدّ النقصان واستكمال غير المكتمل في علاقته بخالته «خدّوج». فقد رسمت له هذه العلاقة مسار حياته رمزيّا بالبحث عن بدائل لخالته التي كانت بمثابة مربّية عاطفيّة له برائحة جسدها ولعبها وتواطؤها معه حتى في اختيار الزوجة والإسرار لها بمغامراته والنساء اللاّتي يشتهيهنّ.

وما الطفل الذي كبر وصار وزيرا إلاّ آلة من الرغبة التي لا ترى في المرأة «خارج الجسد كيانا. آدميّتها آدميّة حيوانيّة لاغير» لذلك كان «لا يرى إمرأة إلاّ تخيلّها معه في الفراش» على حدّ تعبيره. فهو يسير في متاهة متعته على ما يخالف العلاقات السويّة التي صاغتها الأعراف الاجتماعيّة بأن جعل العضويّ الغريزيّ سابقا للرمزيّ القانوني. ولا عبرة بعد ذلك بتأنيب الضمير وما تخفيه العلاقات التي تمتزج فيها

علاقات العمل بعلاقات الاستعباد أو ما في المغامرات العابرة من مأسٍ. فعماد الرغبة والشهوة مداورة المنع وتخطّي الحدود، بحثا عن إيقاع يفيض عن إيقاع المؤسّسة الرتيب، خيانةً زوجيّةً أو تعدّداً في العلاقات أو استغلالا للنفوذ. فكلّه كما ذكرنا سدّ للنقصان الذي كان يشعر به دون أن يدرك له كنها.

ولئن كانت السلطة قائمة في أصلها الوهميّ على الرغبة الجامحة في تحصيل المنافع والامتيازات وكلّ ما ترغب فيه النفس البشريّة، أموالا وحظوة وأجسادا فإنّ السيّد الوزير ، وقد خدم رأس المال ولم يحصل على منافعه واكتسب بعض الجاه ولم يحافظ عليه، لم تتجاوز سعادته تلك اللّحظات العابرة التي عاشها وتلك الأجساد التي تلهّى بها. لذلك يعترف للحاكم في المرافعة وللقارئ بعد أن انهار صرح أوهامه بما يقوّض، دفعة واحدة، اتساق الرموز جميعا في نظام واحد. لقد جيء به تيّاسا، وحكم التيّاسة في فتاوى المنافقين من الفقهاء تحليل دون قضاء وطر، لذلك كان معظم التيّاسة الذين ذكر التاريخ تندّرا، «عنينين أو مجبوبين» ومتى كانوا أسوياء باتوا ليلة التحليل الشرعي «مقيّدين مكبّلين». يقول السيد الوزير : «لست آسف إلاّ على شيء واحد. تعرف ما هو ؟ إنّه تلك المتع العابرة التي غنمتها رغم أنف الحكومة في عقر دارها. تعرف لماذا ؟ لأن الذي خرجت به، أن الحكومة ما هي، في الحقيقة، إلا وكر هائل للخناء». وهل في المواخير من حاجة إلى تياس ؟

أنف الحكومة ؟ واهم هذا الغرّ كما لو أنّه لم يفهم أنه أنف غارق في العفن بحكم الحلف المقدّس بين الجنس والسلطة حتى قال أحد ثعالب السياسة عبر التاريخ الماكر هنري كيسنغر «السلطة أقوى مثيرات

الرغبة الجنسيّة». ولنا في فضائح السياسييّن ورجال السلطة، منذ أقدم العهود، الحجج الدامغة والأدلّة القاطعة. هوس بالأجساد يرشح شبقا كشفت وسائل الإعلام أقلّه وأكثره أسرار مدفونة في الغرف المغلقة ولكنّ الشجرة، في مثل هذه المسائل، لا تخفي الغابة المستورة أصلا بل تدلّ على بقيّة الأشجار فيها.

وبهذا تكشف لنا رواية «سعادته» التواطؤ الجذريّ بين رأس المال والجسد والسياسة. أقانيم ثلاثة تشفّ عن فساد مقنّع معمّم مأتاه زواج المحارم، على ما فيه من إبهام ولبس، بين الرغبة في المال السهل وإدمان الجنس وشهوة السلطة. حيوانات آخذ بعضها برقاب بعض تسير، في أرجاء العالم كلّه، نحو تأبيد استعباد البشر إن على نحو صريح عار كما هو الشأن عندنا في بلاد العرب أوطاني وما شابهها، وإن على نحو مهذّب خفيّ في الغالب الأعمّ كما هي الحال في تلك البلدان التي صنعت سلطاتها المضادّة ومازالت تجوّدها على قدر تلاعب السلطات القائمة ومناوراتها.

شكري المبخوت

لهذا الكتاب خبر قد يستحق الذكر. فهو يشترك مع روائع قصصية كثيرة، وإن كان لا يرقى إلى مستواها، في زعم أصحابها أنهم، لسبب من الأسباب، عثروا عليها مخطوطة في مناسبة من المناسبات. وتتميما لخاتمته، يذكر الذي دفع بهذا المخطوط إلى النشر أنّه وقع في يده صدفة.

قصد المكتبة الوطنية ذات عشية لحاجة له في مصدر من المصادر النادرة التي يعسر الوصول إليها خارج تلك المؤسسة العظيمة. كان أمام أحد المقاعد على الطاولة التي جلس إليها ملف فافترض أن صاحبه قد تركه لشأن من الشؤون العارضة وأنه عائد لا محالة لأخذه قبل أن تغلق المكتبة أبوابها. وعندما فطن من حركة بعض العملة إلى أن موعد ترك المكتبة قد حلّ وأنّه عليه أن يسلّم المصدر الذي كان قد استعاره استغرب ألاّ يعود صاحب الملف لأخذه. كاد ينصرف لو لم تسوّل له النفس النظر فيه. كان في نيّته أن ينبّه أعوان المكتبة إليه. نظر منه في بعض الأسطر ثم تصفّحه سريعا وأخذه معه. كان عازما على الاحتفاظ به إلى غد حتى يسلّمه إلى صاحبه.

ظلّ أياما يتردّد على المكتبة ليجلس إلى الطاولة نفسها واضعا الملف في المكان نفسه الذي كان قد عثر فيه عليه. كان ينتظر أن يظهر صاحبه. تعمّد سؤال بعض العملة عمّا إذا كان قد جاءهم من يسأل عن ملف من الملفات، فنفوا جميعا.

قرأ، في الأثناء، الملف مرات فلم يستبعد أن يكون صاحبه قد تعمّد تركه حيث عثر عليه تعمّداً. بدا له أنّ صاحب الفقرات الأخيرة منه لم يفلح في ما كان يؤمّله من نشره، أنّه أصبح عبئا عليه فعمد إلى التخلّص منه. استنتج ذلك من التعليقات والملاحظات التي خُطّت عليه. وبعد تردّد خطر له أن يسعى في نشره. أمّا لماذا لم يتلفه صاحبه أو لم يرم به في إحدى القمامات، فذلك ما لم يحصل له على تفسير. وبالمناسبة فإن مسرّح هذا الكتاب للنشر يرجو من صاحبه، إذا ما اطلع عليه، أن يكشف عن نفسه. كان قد اتفق مع الناشر، بعد القرار بنشره كما هو غير مصحوب بالتعاليق التي عليه في الحواشي، على أن تكون تلك التعاليق أمارة يُستدلّ بها على أن صاحبه هو فعلا صاحبه. أما العنوان فهو من وضعنا.

لو لم أزر ابن خالتي ما كنت، اليوم، أساق سوقا إلى دار خالتي[1] مطوّقا بجميع الألفاظ الخبيثة التي تبدأ بحرف الخاء من مصفّى لغتنا وخليطها. لو كنت عرفتُ قبل اليوم هذا الذي عرفته الآن من مخبوء حكمة هذا اللسان الفذّ في انتقاء الأسماء لمسمّياتها ما كنت فكّرْتُ، لحظة واحدة، لا في زيارة خالتي ولا في المرور على ابن خالتي.

لكنني كثيرا ما كنتُ أزور خالتي. خالتي «خدّوج». خاء أخرى، ما أراني إلا كنت منذورا لأن أمْخر، من حيث لا أدري، باب الأجوف من الأدواء الخبيثة[2] فدارُها كانت قريبة من دارنا، وابنها كان تربا لي. وأنا أستلطفها وأرتاح لها. امرأة مستحبّة القامة لطيفة النفس مليحة مسرارة. ترمّلت صغيرة بعدما أنجبت ولدها

1 - هي الحبس في اللغة العامية، والتسمية محيّرة فعلا، فما العلاقة ما لم تكن فيها حكمة لا ترقى لها عقولنا الولوعة بالربط بين المقدمات والنتائج.
2 - على اللفظة شطب، كانت الخرائية فوضعت فوقها «الخبيثة».

الوحيد. ركبتْ رأسها من شدّة الاعتداد بالنفس والشغف بالبروز والتفرّد. جرت سافرة إلى نعش زوجها وهم يخرجون به. وضعت يدها على النعش وصرخت : «إلى اللقاء في الجنة. كن فيها قرير العين مرتاحا. لن أتزوّج بعدك أبدا. اشهدوا عليّ...». سقطت مغشيّا عليها. كان يوما مشهودا بين منتقد مستنكر ومستحسن مفرط في الإشادة. امرأة جميلة فعلا. كانت، كلما زرتها، تستقبلني بالأحضان فأدسّ رأسي في شونها[3] أشمّ منه عطرها الخاص ممزوجا برائحة الجسد. شيء يعبق كالمسك ينبعث منها فتأخذني منه سكينة تنفذ إلى الروح وأشعر كأنني أولد من جديد. كانت تبتسم لي فأرى الكون كله لي مبتسما. وحتى عندما كبرتُ وكبرتْ ظلت تستقبلني بالأحضان فأنتشي لابتسامتها وللحنان الذي يتضوّع منها بِشراً ويأخذني شعور بأني قادر على هدّ الجبال. كانت أفضل الناس في نظري وكنت في بعض شؤونها متحيّرا. قلت لها مرة، عندما كبرت أنا وأسنّت هي فبدأ تألقها يذوي، وكنا نجلس إلى قهوة كانت تحرص على تقديمها لي في كل زيارة : «لماذا لم تتزوجي بعد المرحوم ؟ ما سرّ هذه القسوة على النفس؟». شردت بعيدا بعيدا، أطرقت، تنهدت بحرقة وقالت : «مكتوب. ومكتوبي صنعته بيديّ».

رَبّتْ وحيدَها على الدّلال. يَجدُ كل ما يطلب. وفرّت له جميع ما كان يرغب فيه. تعلمَتْ معه القراءة والكتابة. لكنه كان فاسد الطبع خبيث الطوية شديد الأذى فائق المهارة في فتل الحبال ولوعا

---

3 – ما بين ثديي المرأة وما يسترهما.

بوضع الخطط يوقِع فيها بنا جميعا. كان متميّزا في كل شيء وكان شرّيرا. لم يستثمر أحدٌ صفة «اليتيم» مثلما استثمرها هو. صار يُعرف بابن خدّوج. كان يلبس أفخر الثياب. وعندما وضعت له أمّه، مرّة، زرّا ذهبيا في أعلى قميصه دعاني المعلّم، وكان رجلا متقدّما في السنّ وقورا، وقال لي: «قل لخالتك إنّ ما تزيّن به ولدها وقاحة وسوء أدب». نقلتُ لها ذلك فغضبتْ وقالت: «يغار منه، ابن الحفيانة وزوج الهاملة». قلت لها: «معلّمنا مؤدّب محترم». قالت: «المحترم لا يتدخّل في ما لا يعنيه». وأقلعتْ من يومها عن تزيين أعلى قميص ابنها المدلل بالأزرار الذهبية. كان ذلك في زمن كأنه آخر، لم يصبح الناس فيه بعدُ خلائق مقلّبة.

هل الذنب ذنبي، سيّدي الحاكم، إذا كنتُ قد عرّجت، بينما كنت مارا بسوق العطارين، بعد صباح كالح شَيّحَ لي فيه التلاميذ الريقَ، على مقهى أنشدُ الانتعاش بشاي أخضر مُنَعْنع أترشفه على عجل فأمامي دروس خصوصية لم أعد أقدر على تحمّلها. كنت سارحا في الهمّ الذي أحمل عندما سمعتُ المذياع يقول: «إليكم التشكيلة الحكومية الجديدة التي أعلن عنها هذا اليوم...»، وإذا بابن خالتي يصبح رئيسا للوزراء. كادت الكأس تقع من يدي. ضاق نفسي حسدا وكمدا. كنت أغار منه، أمقته، أستكثر عليه الخير الذي كان فيه والأم التي كانت له. ثم داخلني، على الرغم مني، شعور بالنخوة والاعتزاز. سأرتفع في عيون الزملاء والزميلات. وذلك المدير الكلب الذي أصبح يُكثر من إزعاجي بتعليقاته وتلميحاته لن يجرؤ بعد اليوم على أن يقول لي: «كثر وصولك متأخرا يا سيد». سيسعى ورائي كجَرْوٍ أعمى مهما

تأخرتُ أو تغيّبت. والمعلمون والمعلمات والمنظفون والمنظفات سيتحلّقون حولي تصيّدا لكلمة طائشة يستشفّون من تأويلها خبرا عمّا يجري في كواليس الحكومة. ألست ابن خالة سيادته الوزير الأول ؟ أفضل المواقع لمعرفة خفيّ الأسرار.

خطر لي أن أزوره مهنئا. فهو، أولا وأخيرا، ابن خالتي، وللقرابة حقها من التعظيم. ترددتُ. تأملت هندامي فلم أجده يشجّع على اقتحام وقاحة الحُجّاب وصفاقة الحراس والمخبرين على أبواب الوزارة وفي ردهاتها. كانت آثار الطباشير بادية على لباس كنتُ أحرص على اختياره غامقا حتى لا تظهر فيه الأوساخ. كنتُ معلّما مخلصا. أظلّ، طيلة كل حصّة، أضرب التلاميذ والتلميذات وأصرخ وأرسم الحروف والكلمات والأرقام على اللوح وأمحو حتى يفهم أولاد الحرام ما ينبغي فهمه. وهذه المحفظة التي بَلِيتْ معي من طول ما حملتها ووضعتُ فيها من أطعمة وأدوية مسكّنة ومنشّطة كنت أبتلعها حتى أظل منتصب القامة واقفا على واجباتي، كنت أسمّيها خُرْجي الملازم (لفظة أخرى تبدأ، يا لشقائي، بحرف الخاء اللعين).

حزمت أمري وقصدت ابن خالتي في وزارته القديمة ومنصبه الجديد. كانت قريبة من الموقع الذي كنت فيه. تركتُ المحفظة الخرج عند البوابة وسجلت اسمي بالاستقبال واستلمت بادج[4] الزيارة. وعندما سألني العون المكلف بالاستقبال عمّا إذا كان لي موعد نفخت صدري وقلت : «أنا ابن خالة صاحب المعالي السيد

4 - بطاقة الدخول زائرا.

الوزير رئيس الوزراء». نظر إليّ مرة ومرة ثم تكلم في هاتف داخلي وقال : «تفضل» فتفضلتُ.

كنت قد تهيّأت لانتظار طويل، فآخر مرة زرته فيها كانت لمساعدتي في الانتقال إلى مدرسة مجاورة لسكني، أربحُ وقتا وأوفّرُ تكلفة النقل. انتظرته يومها أكثر من ساعتين قرأت فيهما جميع الجرائد القديمة البالية الملقاة على منضدة قاعة الانتظار. كانت جميعها قد انتزعت منها قصاصات المسابقات وألعاب الحظ، فلفظة القمار ممنوعة من التداول في صحفنا. لكن الحظ كان معي هذه المرة. فما إن تقدمتُ من الكاتبة لأعلن عن وصولي حتى شاهدته من فرجة الباب الفاصل بين مكتبها ومكتبه. رآني فابتسم وأومأ لي بإشارة الدخول فدخلت. عانقته بحرارة وعانقني بفتور. سردتُ عليه جميع ما أحفظ من عبارات التهنئة وهو يبتسم ويقاطعني قائلا : «مسؤولية جسيمة، تضحية بالراحة والنفس، عبء ثقيل، ضريبة ندفعها للوطن...». قلت : «ما عندك إلا الرّجال. الذي يثقل عليك يخفّ علينا». جلس واضعا ساقا على ساق وجلست منكمشا مستعدا في كل لحظة للوثوب والانصراف. كان يردّ على الهاتف بين الحين والحين وينظر إليّ موسعا من ابتسامته الخبيثة. بدأ مجلسي يثقل عليّ. كثرت المكالمات وبدأت تطول. هممت أكثر من مرة بالوقوف فكان يجلسني بإشارة من يده، يتشفّى مني بإيذائي بالعزّ الذي أصبح فيه. وعندما سنحت فرصة وقرصني الجوع قلت : «تهانيّ الحارة مجددا» وقفزت عازما على الانصراف. قال وهو يصافحني مودّعا : «مرّ على الكاتبة. دع لديها سيرة ذاتية مفصّلة. لا تنس رقم بطاقة التعريف».

جعلت الكاتبة تعابثني باشمئزاز. كانت، مع ذلك، خفيفة الروح قصيرة لِحِمَة. قالت : «لا بدّ أنه يفكر لك في منصب استشاري»، تعني قضاء الحاجات الخاصة جدا. استبعدتُ ذلك. فبيني وبين ابن خالتي تاريخ من التنافس والمقالب والإحن لا يعرفه إلا أنا.

نسيتُ الزيارة. كانت زوجتي متضايقة متكدّرة. فنحن في نهاية الشهر وقد نفد المال وكثرت المطالب وتهاطلت الفواتير. قالت لي باستهانة : «طعامك بالمطبخ. سخّنه». كانت تتابع مسلسلا مصريا من النوع السخيف تملأ به تفاهة أيامها وتلوك علكة. لم أذكر لها أني زرت ابن خالتي. أستبعد أن تكون قد سمعت بتعيينه في منصبه الجديد. هي لا تصبر على مشاهدة الأنباء المحلية. تغلق التلفاز أو تبصق على المذيعين مزمجرة «ما أكذبكم في جميع ما تقولون». ثم إنها لا تطيق لابن خالتي ذكرا. كفرَتْ به عندما دفعتني دفعا إلى أن أستعين به في الحصول على قرض لتجديد أثاث البيت. تمنّعْتُ ثم اصطحبتها معي في زيارة له في مسكنه دون سابق إعلام. ذهبنا محمّلين بصندوق من الحلويات. صادفناه بمدخل المسكن فلم يقدر على التخلص منا. ألفينا لديه بعض الصّحاب من ذوي المناصب السّامية. منهم من كانت ترافقه زوجة أو عشيقة. وجدت نفسي بين رجال لا أهتم بمعظم ما يتحدثون فيه. ووجدتْ نفسها بين نساء لا قدرة لها على مجاراتهن في شيء. لم نُطِل المكوث. تظاهر، وهو يشيّعنا[5] إلى الباب الداخلي، بالدعوة الفاترة إلى أن نبقى للعشاء. همستُ له بما جئنا من أجله.

5 – رافقه إلى الباب أو سار معه بعضا من الطريق عند منصرفه.

استغرب وانزعج وقال بنبرة متبرّمة : «أهذا وقته ؟». ما كدنا نخرج باحثين عن تاكسي حتى قالت زوجتي : «لا بد أنهم تنفسوا الصعداء. أمّا الحلويات فأقسم أنها في طريقها إلى الزبالة». حاولت إسكاتها فظلت في التاكسي تقول : «المرأة ذات الثوب الأزرق هل تذكرتها ؟ لو سمعتَ...» جعلتُ ألكزها خفية في جنبها حتى سكتت فأنا لا أطمئن لسائقي سيارات الأجرة.

نزلنا من التاكسي فدخلتْ إلى البيت منبوزة[6] تنفخ. ظننتني قد ارتحت من ثرثرتها فارتخيت في قاعة الجلوس أنتظر أن يأخذها بعيدا عني النومُ، إلا أني فوجئت بها تأتي. أيقنت أن الهذيان الذي استبدّ بها لن يدعها تنام حتى تخلص منه. سلمتُ أمري إلى الله وجعلت أستعدّ للتحمّل. جعلتْ دون مقدمات تقول : «ما شاهدتُ قردات من النوع الذي شاهدت الليلة عند ابن خالتك إلا خجلت من كوني امرأة. صاحبة الشعر المنفوش، لا تقل إنك لا تذكرها، أيّ ذوق وأيّ منطق وأيّ أخلاق!. لو سمعت كلامها لداهمك قيء. والأخرى التي صبغت شعرها شرائط، أين تظن نفسها ؟ أعجب للرجال كيف يعشقون مثل تلك الأشكال المقلوبة ؟ لو أزلنا عنها الأصباغ أو محونا الزينة صارت مسخا مخيفا. والأخرى صاحبة العنق الطويل، عنق الزرافة، ألا تستحي من كشف نصف صدرها ؟ لو كان لديها ما تكشف ربما هان الأمر». كانت تتحاشى، كمدا وحسدا، أن تشير، من قريب أو بعيد، إلى ما كانت تعرضه النساء في ذلك اللقاء من فاخر الحلي وعجيبه. لم أعد أتحمّل

6 – نافخة أوداجها غضبا واستياء.

فنهضت فزعا إلى الفراش قبل أن تفرغ منهن لابن خالتي ومن ابن خالتي لي. لم أعلق فامرأتي تعتقد أنها أحسن النساء لما حباها الله به من جمال وتتحلّى به من أناقة وحشمة، ودون معظم النساء بسبب زواجها بي. كانت دائما تقول: «منذ تزوجتك وأنا مكسورة الخاطر. لم أعرف معك ساعة هناء واحدة». هممتُ أكثر من مرة بتطليقها، غير أني كنت قد تعوّدت عليها. حال دون ذلك ضيق ذات اليد، فالطلاق مكلف. ثم إنها لا تعتقد ما تقول. كانت كلما شعرت بأني مستاء من كلامها اجتهدت في مرضاتي. لم يكن لديها غير جسدها فكانت تهبه بسخاء. جاء الأولاد الأربعة فجريتُ بها إلى التعقيم جريا قبل أن يزداد الداء استفحالا. لو قلت لها إني زرت اليوم ابن خالتي لتهنئته بالوزارة الأولى التي أصبح على رأسها للعنتني ألف مرّة وبكت ساعات من شدة الكمد. كانت كلما حصل تحوير وزاري تبصق على التلفزة وتقول: «اقلع ثومة واغرس بصلة. من نتونة إلى نتونة، ومن عفن إلى عفن. ليت الاستعمار لم يخرج».

اتجهتُ إلى غرفة النوم ألتمس شيئا من الراحة، فاليوم يوم جمعة، أستقبل في نصفه الثاني أفواج المقبلين على الدروس الخصوصية. كبُر عليّ، أول الأمر، أن أفتح بيتي لمثل هذه الدروس، أنا المعلم الحاذق الماهر الذي ينظر إليه الجميع بكثير من الإجلال، ويتقاتل الأولياء على أن يكون أبناؤهم في فصلي. لكن الحاجة أقوى من الكرامة. هل الذنب ذنبي إذا كان الراتب الذي أتقاضى في تنازل مستمر، وكانت طلبات أبنائي الأربعة في تصاعد دائم إذ كانوا يريدون أن يجاروا أولاد الذوات الجدد. هل الذنب

ذنبي إذا كنت قد ابتليت بزوجة لا تفرّق بين ورقة من ذات الدينار وأخرى من ذات العشرين دينارا، أم الذنب ذنبي، سيدي الحاكم، إذا كنتَ تقفُ مثلي، حاشى قدرك السامي، أمام الجزار تعدّ نقودك لتطلب بثقة في الجيب متناهية نصف رطل من اللحم، فيرفعك الجزار ويضعك مرة ومرة مستغربا ويقول : «ما لك يا سي فلان. خذ أربعة أرطال وسدد وقتما تشاء إذا لم يكن معك الآن ما يكفي.»، أو تفتح لك حساب تموين لدى العطار لتقوم بالتسديد في بداية كل شهر وإن كان لا يخامرك شك في أنه يسرقك، فإذا حان الموعد واستكثرت المبلغ فجعلت تراجع الحساب بحثا عن خطأ كنت تستعدّ لحمله على السهو، نظر إليك صاحب المحل شزرا وقال : «ما لك يا سي فلان ؟ نقصت فينا الثقة أم ماذا ؟». فإذا دفعت غير مقتنع وعدت إلى البيت عازما على إشباع الأولاد وأمهم لوما وتوبيخا وضربا ولانَ لهم قلبك الأبوي فشرعت في التقتير على نفسك، تشتري الثياب المستعملة، وتؤجل الذهاب إلى الطبيب، تؤجل وتؤجل حتى لا تبقى أمامك فسحة لأجل... فامرأتك تلاحقك بالطلبات والأولاد يجرون وراءك بالطلبات والبيت له طلبات ولوازم... أمّا... . فقد ضربتُ على كرامتي بخط أسود وفتحتُ بابي للدروس الخصوصية.

صرت، في بداية كل سنة دراسية، أطلب من تلاميذي أن يملئوا استمارة يذكرون فيها أسماءهم وعناوينهم ودرجات تفوقهم، لم يكن يهمني منها إلا الوضع الاقتصادي. أختار بعد ذلك فريقا من عشرة إلى خمسة عشر من ذوي اليسار وأصفعهم في أول اختبار بدرجات متدنية جدا. كنت أصرخ عند إصلاح الاختبارات في

الذين كنت قد تبيّنتُ فيهم صيدا : «أين درستم ؟ ماذا تعلمتم ؟ ينبغي أن أعيدكم إلى صفوف أدنى». يهرع إليّ الأولياء متسابقين. كل يكاد يبوس يدي للظفر بمكان لابنه أو ابنته في دروسي الخصوصية. كنت، أول عهدي بتمثيل هذا الدور، أعلن أني ضد هذه الدروس، فيزيد الأولياء في الإلحاح حتى أقبل أبناءهم استثناء. ثم صرت أملي شروطي دون حياء. ينبغي أن يكون الدفع مسبقا، أيّ تلميذ يتغيّب عن حصة تحتسب عليه. كنت أنتقي أبناء الأثرياء الأميين وأشباه الأميين فهؤلاء بهم ، عادة، عقدة فك الحرف، ثم يأتي أبناء أصحاب المناصب التي تشغل عن العناية بالأولاد، فهؤلاء جميعا يفضّلون إرسال الأمهات على القدوم بأنفسهم. أقسّمهم إلى فوجين أو ثلاثة وأصبح أستقبلهم في بيتي، في غرفة خصصتها لهذا الغرض، فأحصل على ما لا يقل عن راتبين فوق الرّاتب الذي تقتّره عليّ الدولة. كنت أمقتُ الدولة، وعندما تراجعت في مجانية التعليم بأن جعلت النجاح يأتي في مرتبة ثانية بعد التفوّق لم أعد أحقد عليها. صرت من أنصار الدعوة الكاذبة إلى «مجتمع التفوّق». أصبحت مستورا. قلّ تأفف زوجتي من حظها التعس الذي رمى بها في طريقي.

لـو لم أزر ابـن خـالـتـي مـا كـنت الـيـو م أسـاق سـوقـا إلى «دار خالتي».

فبعد أيام معدودات من تلك الزيارة التي ظللت متكتّما عليها تبيّنتْ زوجتي أن ابن خالتي أصبح «رئيسا للوزراء»، تنهدتْ بحرقة ثم لوت شفتيها وقالت : «يزدادون فسادا فيزدادون ارتقاء، لم يعد للاستقامة ونظافة اليد سوق في هذا البلد». قلت : «ولا في غيره». سكتت فحمدتُ الله على ذلك وتمنيتُ لو ظلّت ساكتة إلى الأبد.

بعد أسبوع من زيارتي لابن خالتي جاءني المدير إلى القاعة التي كنت أعلّم فيها الصبيان لاهثا. جعل يمسح عن جبينه العرق ويقول : «هـيـا. أسـرع . الحكـومـة تـطـلـبك». ارتـعـتُ فـقـلـت : «والأولاد ؟» وأشرت إلى تلاميذي أحتمي بهم من شر الحكومة. قال : «أنا لهم. أسرع . سيارة فاخرة وسائق. لا تبدو عليه أمارات جهاز الأمن».

لم يـعترض عـلـى دخـولي الـوزارة الأولى أحـد. كـان الـسـائـق يسبقني. رجل مهذّب وأنيق. فتح لي الباب الخلفي وقال : «تفضل

يا سيدي». قلت : «عيب. لن أجلس إلا بجوارك». لم يلحّ. ما اعترضنا أحد في ممرات الوزارة إلا التصق بالجدار موسعا لنا الطريق قائلا بأدب جم : «تفضل، سيدي».

لاحظتُ أن ابن خالتي كان قد نقل كاتبته معه. سلّمتْ عليّ بحرارة ظاهرة وهي تبتسم ابتسامة خبيثة كانت تحرص على ألا يفوتني اتساعها. لم أنتظر، كلّمته في الجهاز بينهما وقالت : «تفضل بالدخول»، وسبقتني خفيفة تهز أردافها هزا مثيرا إلى الباب تفتحه أمامي.

قام لي ابن خالتي وابتسامة عريضة تشق وجهه نصفين. خلع نظاراته وعانقني مرات. أجلسني في الصالون الفاخر وقال : «مبروك، تهانيّ». قلت : «على ماذا ؟». قال : «على ثقة سيادته فيك». وأشار إلى صورة كبيرة معلقة لرئيس الدولة في إطار مذهّب يلقي عليها فانوسٌ غريب شآبيبَ متقاطعة من ضوء هادئ. جفّ حلقي فلم أقدر على الكلام. شعرت بضغطي يرتفع. بدا لي صوته بعيدا بعيدا وهو يقول : «يذاع في نشرة هذا المساء أنك عيّنتَ وزيرا». داهمني، عند سماع المنصب، إغماء. يبدو أن ابن خالتي، وخبثه هو دائما خبثه، قد أعدّ للموقف عدّته. فما إن بدأ يأخذني الغياب حتى جعل يرشني بالماء من كوب كان في متناول يده وهو يقول : «أفق. لا تفضحنا. ليس هذا وقت الدهشة». انتبهتُ مذهولا فجعلت أتمتم بـ«لكن» لا أكاد أعثر على غيرها وهو يقول : «هذا وقت العمل. وقت انتهاز الفرص وتفتيق المواهب لمرضاة الرجل الذي وضع ثقته فيك». أصابتني رعدة مفاجئة،

تماسكتُ وقلت : «لكن. . هل أصلح للوزارة ؟». ضحك ضحكة مجلجلة وقال : «**دعك من هذا يا رجل. صلُحَ لها من تُبْرَى** بأظافرهم الأقلام ولا تصلح لها أنت ؟ ما هذا الكلام ؟». قلت : «وزيـر مـاذا ؟». قـال بـتـفـخـيـم كـبير : «وزيـر الموارد الـطـبـيـعـيـة والممتلكات. مستحدثة». أفلحت بعد تردد في أن أقول : «لماذا أنا بالذات ؟» ظهر على وجهه نفاذ الصبر والامتعاض فتصنع جدّا وقال : «افهمني جيدا. المسألة جد في جد. قرارات سيادة الرئيس لا يلعب بها أحد. ثم هو يعرف ما يفعل. رأى فيك الرجل المناسب فاختارك دون آلاف غيرك ممن يحلمون بما هو دونها بآلاف المرات. ليس لقرابتي بك دخل في المسألة. وعلاقتي بك هي علاقتي بأي وزير من الوزراء». أفهمني أنه تقرر أن يُخصّص جناحٌ لوزارتي بمبنى وزارته ريثما تتمّ تهيئة مقرّ خاص لها. رافقني إلى بوابة مكتبه وهـمس لي : «عـد إلى بيـتك. يـوصـلك سـائـقـي. رابـط بـجانب الهاتف. أكلمك حالما أفضى». هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إن لم أقل يومها لابن خالتي : تريدونني وزيرا. دُويوْ [7] . در بغافل. أما أنا فأعرفك جيدا». قد كنتُ شممت رائحة ما فابن خالتي ما قدّم لي يوما شيئا لم أجد وراءه مقلبا من خبيث مقالبه، غير أنني أنكرت حاسة الشم فيّ وتوكّلت على الله.

شاهدتني زوجتي داخلا في غير الوقت المعتاد فقالت دون أن تنظر إليّ : «ما لك رجعت باكرا ؟ هل أنت مريض ؟». سمعتني أرمي بالمحفظة الخرج كالهمّ الثقيل فصاحت : «ما لك يا رجل ؟ ما

7 – هيهات.

الذي دهاك ؟ أصابك شيء ؟». قلت : «فصلوني عن العمل». ألقت بما في يدها وجرت صارخة : «ماذا قلت ؟ فعلت شيئا ؟ لماذا فصلوك ؟ أجب». قلت زافرا : «لا أعرف. غدا أراجع الإدارة والنقابة [8] . لن تضيع حقوقي». وضعت يديها على خاصرتيها وصاحت : «نعم نعم يا سيد. غدا. قلت غدا. لا أعرف غدا ولا بعده. هل فكّرت ؟ بم نعيش ؟ الآن تخرج. تخرج حالا. وتقلب الدنيا. يفصلونك عن الشغل. هكذا دون سبب وتسكت. اذهب... إلى ابن خالتك...». قاطعتها قائلا : «كنت عنده. جئت من مكتبه مباشرة». خنقها صمت. ظلت تنظر إليّ بعينين ضائعتين. انفرطت مني ابتسامة فقالت : «يفصلونك من العمل وتبتسم. لا. أنت تضحك علي. قل الحق. لماذا عدت قبل موعدك ؟ ما الذي كنت تفعله عند ابن خالتك ؟». قلت : «القصة وما فيها يا زوجتي العزيزة، يا أم أولادي، أنك أصبحت زوجة وزير». قالت : «وزير في... (كانت اللفظة قبيحة جدا تبدأ بحرف الخاء). لم تقل نائب مدير أو مديرا، ما أسرع ما جريت إلى الوزارة». قلت محتجا : «هل الوزراء أفضل مني ؟ أنظري يا امرأة وقولي، ينقصني شيء ؟». ظلت تنظر إليّ صامتة فقلت : «قد أصبحت إذن وزيرا رغما عن رأيك فيّ. تسمعين الخبر في النشرة الرئيسية». صعب عليها التصديق فقالت : «لو كنا في المساء قلت شرب شيئا. بدأت أشك في مداركك». وعندما شاهدتني لا أعلّق جرّتني إلى الجلوس وطلبتْ منيّ أن أحدّثها حديث العقلاء. رويت لها الحكاية

8 - المنظمة التي تدافع عن حقوق الشغالين.

منذ زرت ابن خالتي مهنّئا. قالت، وقد بدأت تميل إلى التصديق، : «بغضك لابن خالتك جعلني أخطئ فيه. كنت دائما أشعر أن فيه شهامة وأنك كنت تتجنىّ عليه». عادت إلى الحكاية ترغب في سماعها من جديد فامتنعتُ وجريتُ إلى غرفة النوم. جرت ورائي فعثرتْ في زربية قديمة بالية فانبطحت على طولها. لم تكن الأضرار جسيمة.

ما كادت زوجتي تصدّق بأنّ تعييني وزيرا أمر ثابت صحيح حتى جلست واضعة يدها على خدها واستغرقها تفكير سرعان ما خرجت منه بالتساؤل عمّا ستكون عليه حياتنا. كانت تقول : «ينبغي أن أتعلّم كيف تتصرّف نساء الوزراء ؟ كيف أتكلم، أيّ شيء ألبس ؟». سألت عن الامتيازات والمنح فذكرت لها السيارتين والمنظفات والطباخة والجنان. انفتحت أمامها أبواب الحديث في التغييرات التي يجب إدخالها على البيت تأثيثا وهندسة، وعندما شعرت بأنها أمام مجال يصعب عليها الإلمام به اتجّهت إلى جهاز الهاتف عازمة على أن تزفّ الخبر إلى من قدّرتْ أنهم يفرحون لها وتغيض الآخرين فصحت بها : «لا تلمسي الهاتف. أنتظرُ التعليمات ؟».

رجع بنا الحديث إلى الوزارة فسألتني عن اسمها. قلت : «وزارة الموارد الطبيعية والممتلكات». تظاهرت بالفهم وقالت : «لو فتحتَ لي شركة توريد ؟ المناصب لا تدوم». تضاحكتُ ببراءة وقلت : «شغّلي عقلك قبل الكلام يا امرأة. الموارد جمع مورد. والمورد مفعل من ورد». تأففت قائلة : «دعني من ورودك وأزهارك. الوزارة أحلى».

أثّرت فيّ الرجة فاتجهتُ إلى غرفة النوم ألتمس شيئا من الراحة. قلت لامرأتي: «رابطي بجوار الهاتف. لا تطلبي أحدا. نبّهيني إذا طلب ابن خالتي. إذا كان الطالب غيره، مهما كان، فأنا غير موجود». لكنها لم تقدر على الاستقرار في مكان. كانت تدخل علي وتخرج بلا موجب. تهمّ بالكلام ثم تنسحب على أطراف أصابعها.

كلّمني بعد الظهر ابن خالتي. قال : «يأتيك السائق غدا صباحا، ينبغي أن تتسلّم مهامّك»، أضاف قبل أن ينهي المكالمة «تهمّم[9] للمناسبة» فهمتها على أنها حرص على مصلحتي وتلميعٌ لصورته. أسرعتُ رفقة زوجتي إلى مركز تجاري من التي كنا نعدّها فاخرة ولم تعد في الحقيقة كذلك فاشترينا لي بذلة فخمة دفعنا فيها جميع ما كانت تخفيه عني حليلتي العزيزة من مدّخرات. عدنا فسمعتُ امرأتي تقول للأولاد : «باركوا لأبيكم. تسمّى اليوم وزيرا للمراود التابعية والمتأخرات». وبدأت مع إذاعة النبأ تتزاحم على هاتفي المكالمات. جاء بعض الوفود من الأقارب ومن زملاء العمل. جلستُ في الصّالة قريبا من الهاتف وبدأت أضع قناع الوزير. أتحدّث بصوت منخفض. أقطّع الجمل تقطيعا يدلّ على عميق التفكير والتأمّل. أستبدل بالابتسام الضحك. أكثرُ من السكوت. أتظاهر بالاستماع باهتمام كبير. لا أقول إلا كلاما عاما. أدسّ إعجابي بالإنجازات والمعجزات التي حققتها الدولة في كل جملة

9 - ارتدى أفضل ما لديه وتأنق.

أنطق بها. أكيلُ الثناءَ لسيادته كيلا. ألحّ أكثر ما ألحّ على واقعيته، شيء من الإلهام خصّ به. ظلّ أولادي مندهشين في إحدى الغرف. كانوا يقتربون من قاعة الجلوس لينظروا إليّ بفضول ورهبة. حتى ابنتي الصغرى لم تجرؤ، رغما عن شدة تعلقها بي، على الاقتراب مني، كانت تنظر إليّ من بعيد، فإذا التقت عيوننا هربت. دعوتها فظلت بعيدة واقفة تحافظ على مسافة بيني وبينها.

أمضيت ليلتي الأولى وزيرا دون أن يكحل النومُ أجفاني. خمّلت[10] زوجتي الفراش وهي تقول بغنج استهجنته منها : «نم يا روحي نم. ينبغي أن ترتاح جيدا. مشاغل الوزارة كبيرة. غدا أمامك يوم طويل». وعندما استلقت إلى جانبي التصقت بي وهي تهمس : «أفديك بروحي يا روحي، ماذا أفعل لك حتى تنام مرتاحا ؟». لم أجب فسكتت طويلا ثم انتفضت وقالت : «هل نحن في اليقظة أم في المنام ؟». ظللتُ أتقلّب، وظلتْ تتقلّب. أشعر بها تتحسّس الغطاءَ فوقي برفق تسوّيه علي، وتلتصق بي أكثر فأكثر. شوّشت بكثرة تحركها عليّ خواطري. لم أتمكّن من تبيّن السبب الذي جعل ابن خالتي يختارني لهذه الوزارة من بين سائر معارفه الكثيرين وثقاته وأصدقائه. ثم كيف تمكّن من إقناع الرئيس، عفوا سيادة الرئيس، بذلك ؟

أعرف أنّ ابن خالتي لعين. من صغره وهو داهية لعين. يحبّ أن يكون محطّ جميع الأنظار. مسحور بالزعامة. يقدر على أن يكون الأول في أي شيء وقتما يشاء. اشتكت أمه لأبي من شرّه

10 - عامية تونسية، رتبته ليكون كالخميلة.

مرات. وعندما قالت له إنها تخشى عليه من كثرة اللعب في الأزقة والشوارع وبكت اقترح عليها إدخاله في منظمات الطفولة والشباب. أكّد لها أنّه يوصي به معرفة وقال: «هي على الأقل مراقبة». أصبح ابن خالتي «يهيّب»[11] علينا بالرحلات والعمل الجمعياتي والسفر وبعلاقات تكوّنت له في الداخل والخارج. أصبح ينظر إلينا من عل. طلبتُ من أبي أن يدخلني مثله إلى هذه المنظمات. نهرني وقال: «هل أنت يتيم؟ ألست أسهر على تربيتك؟». رأينا ابن خالتي يكبر يوما بعد يوم حتى صار يتعالى على الاختلاط بنا. وعندما حصلنا على شهادة البكالوريا والتحقتُ بالجامعة لأرسب سنة بعد سنة فأترك الدراسة للعمل معلم صبيان في الأرياف التحق هو بأحد المعاهد العليا بالخارج فدرس ما لا أدري ورجع يحمل ما لا أدري من شهادات وخبرة في ما لا أدري فاحتل منصبا من المناصب وبدأ يرتقي درجات السلم.

موطن الضعف الوحيد في ابن خالتي علاقته بالنساء. فبينما اضطرتني الوحدة عندما كنتُ أعلـّم الصبيان في الأرياف إلى أن أطلب من أمي، بعد استشارة خالتي، أن تبحث لي عن عروس أطرّي بها يُبْسَ عزلتي في قرًى عيونُ جميع مَن فيها تتلصّص على الجميع، ظلّ هو يرفض الزواج رفضا مطلقا. اختارت لي أمي، بمساعدة من خالتي، هذه التي أصبحت زوجتي وصارت في عرض باب دار كبيرة. لا أنكر أنها كانت جميلة في وقت من الأوقات. ففي عصري الذهبي كان المعلم في «الأعالي». ليس من

11 - تباهى تعاليا وبالغ في ذلك.

أسرة إلا وهي تتمنى مصاهرته. وليس من غادة حسناء إلا وهي تحلم بأن تفوز بـ «معلم» حتى لو كان مثلي مبتدئا في الأرياف. كانت خالتي، كلما زرتها، تعرّج على موضوع الزواج وتقول : «أريد أن أفرح به. ضحّيتُ من أجله بالعمر كلّه وهو يبخل علي بفرحة واحدة فيها هناؤه». كانت تطلب مني أن أكلّمه وتذرف دمعات فأعِدُها ولا أنفّذ. كان ابن خالتي، بحكم ترمّل أمه، قد أمضى طفولته المبكرة وغير المبكرة بين النساء فاطلع من خباياهن على مستور كنّ يحكمن إخفاءه عن كل أحد.

وفجأة تزوّج ابن خالتي ابنة رئيس من رؤسائه في العمل السياسي. أقام حفلا مشهودا كادت زوجتي تموت منه كمدا. لم تكن العروس جميلة. لم ينفع التجميل الصناعي في الارتقاء بحسنها إلى مرتبة المتوسط. كان يبدي فرحا عظيما بها وكانت خالتي تبدي امتعاضا. لم يدر الحول حتى طلقها. كان والدها قد فقد مكانته في أجهزة الحزب والدولة. بكت خالتي وقالت : «ما كدتُ أفرح به حتى صرت كأني أنا المطلقة». عاتبتها على التناقض في مواقفها فقالت : «لم أكن راضية بها لكنها في النهاية عروس. كانت حسنة التربية مهذبة، بنت عائلة وناس». عادت تترجّاني أن أكلّمه. عرضتْ عليّ بنات كثيرات سمّتهن واحدة واحدة وقالت : «أيهن يختار تكون له خادمة». ضحكت من سذاجتها ووعدتها بأني فاعل ولم أفعل.

ابن خالتي كائن زئبقي. صادفتُه مرةً منشرحا فقلت له : «متى نفرح بك ؟». مطّ شفتيه وقال : «ها أنتم فرحون». قلت : «أنت

تعرف ما أعني». خلع نظارته وجعل يمسحها وقال : «أنت بالذات لا تفهم في هذا الموضوع شيئا ». هممت بأن أغضب فسبقني إلى ضحكة أطلقها مجلجلة وقال : «كم شكوتَ إليّ من مرة، أنا البعيد عنك، من زوجتك اللطيفة ؟ تريدني مثلك أنام على الهمّ وأستيقظ عليه. المرأة ليست مصيبة، المصيبة هي الزواج». كدت أؤمّن على كلامه وخرجت.

زرت خالتي، مرة، فاستقبلتني كالعادة بالأحضان ودسستُ كالعادة وجهي في صدرها حتى استقرّ أنفي بين نهديها يعبّ من رائحة المسك المنبعثة منها أمناً وسكينة. قلت لها عندما قدّمت لي قهوتي المعتادة : «تحدثتُ مع ابنك في المسألة فتحرّز بالرفض. أنت يا خالتي العزيزة هي التي جنَتْ عليه». رفعت حاجبيها استغرابا فقلت : «بشخصيتك الفذة وبالحنان المفرط الذي أحطته به. بجميع ما علوت به سائر الناس». سطعت ابتسامتها بزهوها المغناج وقطعت عليّ الكلام قائلة : «ما أظنني خلقت إلا من طينة خاصة». قلت : «حتى أمي لم تكن...». لم تتركني أكمل جملتي. تصنّعتْ غضبا وقالت : «ما لها أمك ؟ ينقصها شي ؟». سكتتُ فهدأت وقالت : «شخصية أمك منتهكة منكم جميعا، أنتم وأبوكم. أما أنا»، وتنهدت. قلت : «ظل ابنك مشدودا إليك». قال لي : «إذا عثرتُ على أنثى تزنُها تزوّجتُها». حرّكت رأسها يمينا شمالا مرات وقالت : «يبقى ينتظر !». ضحكنا يومها كثيرا من استعراض شخصيات النساء من الأقرباء والجيران. ذكّرتني مزهوةً بما كنتُ قد قلتُه وأنا صغير جدا عندما سألوني : «من تريد أن تكون زوجتك» فقلت على الفور : «خالتي خدّوج». هممتُ بأن أقول لها : «ها أنذا منذ كذا

أعوام أبحث عن المرأة التي أرتاح لها مثلما أرتاح لك وأجدّ في البحث دونما توفيق» ثم عدلتُ عن ذلك.

فاجأنا ابن خالتي بالزواج مرة أخرى. كانت قرينته هذه المرة مطلقة يتبعها صبيّان. ابنة رئيس آخر من رؤسائه في الحزب والحكومة. قلتُ لخالتي: «لا بدّ أنه عثر فيها على تلك التي تَزِنُك». قالت: «بل على شيء آخر أجدى له وأنفع». لم يُقِم لزواجه حفلا. اصطحب عروسه في سفر عاد منه بعد أسبوعين. فازت هذه الزوجة برضى خالتي. كانت تُكثر من الثناء عليها. قالت لها مرة أمام حشد من الأقارب والمعارف: «لو كانت لي بنت ما تمنّيتُ أكثر من أن تكون مثلك». ترقّى ابن خالتي بهذه الزيجة درجات. كان يتناهى إلينا أنّ له حياة أخرى مع نساء أخريات فكانت خالتي تضرب على صدرها وتقول: «عليه وعلى أمثاله اللعنة. أعن تلك التحفة النادرة ينصرف إلى العاهرات؟». وطلّق ابن خالتي زوجته الثانية. كان والدُها قد اختلفت قدماه فوقع خارج دائرة أصحاب القرار.

الذي يعجبني في ابن خالتي وأحسده عليه أنّه كان لا يشاكس إذا خسر. كان يدفع دون تذمّر أو شكوى. يدفعُ بأريحية نادرة مثلما يدفع المقامرون. فوالد زوجته الثانية، وكان ماكرا من عتاة الدّهاة، كان قد دسّ له في عقد الزواج غرامة كبيرة إذا كان التطليق بطلب منه. دفع الغرامة حتى كاد يفلس. مرضتْ من ذلك خالتي. اضطرّ إلى رهن الدار التي كانت تسكنها.

قبل وصوله إلى الوزارة الأولى كان قد تقلّد عدّة وزارات أثبت في تسييرها كفاءة عالية. وقُبيل هذا الوصول بقليل كان قد تزوّج

امرأة في مثل سنّه أو أزيد قيل إنها قرابة قريبة من حرم رئيس الدولة. سمعنا أنها كانت متزوجة من رجل طمحت فيه فطلقته لتفوز بزوج جديد يناسب وضعها الجديد. سمعنا أنه اكتفى في زواجه هذا بحفل استقبال لم نحضره ولم تُدْعَ له خالتي. عاتبته أمّه وبكت بين يديه فقال لها : «النساء لديّ كالقمصان ولديك كالسلاسل. أخاف على قلبك الوهن من كثرة ما أستبدل منهن». لم تقتنع . وعندما شاهدتْ عروسه من بعيد في إحدى المناسبات رِيعَتْ وضربت على صدرها وقالت : «ما أظنها إلا في مثل سني». إلا أنه كان يبدي لها سرورا عظيما. كان يقول لها «شيري» فكانت أمه تقول : «ما أراه صادقا إلا في اعتبارها شرا وقع فيه».

ظننتُ زوجتي قد نامت فإذا بها تدفع الغطاء عنا بحركة عنيفة وتجلس في الفراش لتقول : «إياك أن تفعلها فتزهد فيّ ! قد أصل إلى قتلك. أبعد أن امتصصتني تتركني إلى بعض العاهرات ؟». جلست فزعا وقلت : «ماذا دهاك يا امرأة ؟ نامي. ما هذه الخواطر السوداء ؟ ينبغي أن تفرحي !» قالت : «ها أنا أفرح ، لكني خائفة».

ما كاد الصباح يطلع حتى جرت زوجتي إلى بائع الصحف فاشترت جميع اليوميات. قرأنا الإعلان عن النبأ في جميعها. كنّا كأنما نقرأه في كل واحدة منها لأول مرة. قرأه الأولاد قبل الذهاب إلى مدارسهم. عثرتُ في التعريف بي على كلام لم أتبيّن له مراجعَ في ما أعرف من سيرتي الشخصية. فأنا لا أذكر أنيّ ناضلتُ طويلا في صفوف الحزب الحاكم أو أنيّ تفرّغتُ إلى التعليم أمارسه وأفكّر فيه وأعدّ له خططا مستقبلية هامة.

أعدّت لي زوجتي فطورا أودعته جميع ما تملك من مهارة. اجتهدتْ في أن يكون مناسبا لمقام السيد الوزير. وضعت على الخوان الغطاء الذي كانت لا تفرشه إلا للضيوف المرموقين. سحبت من الدولاب الطاقم الذي كانت تخاف عليه كثيرا. كانت واقفة بين يديّ ببلاهة تصبّ القهوة حينا والحليب حينا وتتعجّب من الخرق الذي داهمها. ما كادت التاسعة تحلّ حتى كان السائق بالباب. توجّه بي إلى الوزارة الأولى. كان ركب ابن خالتي لم يحلّ بعد. أدخلتني كاتبته إلى مكتبه. كانت تكثر من الترحيب بي.

قالت : «إذا لم تكن لديك كاتبة دللتك على واحدة من ثقاتي لا مثيل لها. فتاة دَمْعَةٌ». وابتسمتْ ابتسامة عريضة. تلهّيت بتقليب خواطري المتوجّسة.

ما كاد ابن خالتي يدخل والمدراء يتجارون بين يديه، كلّ يحمل ملفاته، والكاتبة ترنّ عليه بالهاتف، حتى ارتعتُ من عظيم هيبته. أنهى ما بين يديه بسرعة عجيبة ردّ فيها أغلب الملفات على حامليها آمرا بمزيد تعميق النظر، وجلس قريبا مني مشيرا للجميع بإخلاء المكتب. قال : «أنصّبك بعد قليل. تنتقل إلى الجناح الذي يأوي وزارتك مؤقّتا. أضع تحت تصرّفك مديرا نابها من ثقاتي ريثما نعيّن لك كفاءة من الكفاءات. ينبغي أن تعلم أن لوزارتك أهمية خاصة جدا لدى سيادته. لا تضيّع عليك فرصة العمر». ثم نظر إليّ مليا متفحّصا وقال : «ما ربطة العنق هذه التي تضعها ؟ كأنك مهرّج حفلات في سيرك. يأخذك سائقي اليوم إلى حيث تشتري ما يلزم من النوع الذي يلزم. تسدّد لاحقا. أفكّر في أداء القسم، له نواميسه». خجلتُ حتى كدت أعرق فلعنت زوجتي. وشعرت نحوه بالنقمة والامتنان.

لم أفهم ممّا تحدّث به المدير الذي جيء به لمساعدتي شيئا. وجدتني في مكتب فسيح مفروش بالسجاد الفاخر هو مكتبي. جلست على الكرسي الدوّار الذي يرتفع وينخفض حسب الرغبة والمشيئة. على يسار الطاولة البلورية السمراء هواتف ثلاثة. لم أدْرِ أيّها كان يرن وأيّها كان يرف بضوئه الأحمر. كنتُ جالسا كالأبله أتأمل ما حولي عندما دخل عليّ كهل وقال : «هل يرغب سيدي

الوزير في شيء ؟». فكّرتُ فوجدتني لا أرغب في شيء فأومأت له بأن ينصرف.

بدأتُ أستوحشُ من هذا المكان. حننت إلى زوجتي فهممت بمكالمتها لكني تذكرت ما كان يشاع من أنّ مكاتب الوزراء محشوّة بمكروهات التنصّت وكاميرات التجسّس فطردتُ الفكرةَ من خاطري على مضض. خامرني إحساس خفيّ حادّ بأني أشارك في مسرحية تافهة من إخراج الحكومات الرثة. افتقدتُ البحرَ القصيرَ الذي ألِفتُ، مدرستي وتلاميذي. بدأت خواطري تضيق إلى أن حلّ موعدُ تنصيبي رسميا في منصبي.

لاقتني زوجتي متألقة بسّامة بقبل كثيرة على الخدين فالقبل الأخرى كانت تحتفظ بها للسياقات الأخرى. قالت بنبرة زهو ظاهر إنها تلقّت عددا هائلا من المكالمات. لم يبق أحد لم يهنئها باعتلاء زوجها كرسي الوزارة. قالت إنّ مدير المدرسة التي كنت أعمل بها قد هاتف يلتمس موعدا مناسبا للزيارة مهنئا رفقة جميع الزملاء. امتعضتُ من ذكره وطلبتُ منها أن تتسمّر قرب الهاتف للردّ على المكالمات دون أن تُعلِم أحدا، عدا ابن خالتي أو من فوقه، بأني هنا. ذهبتُ إلى غرفتي فاستلقيت بثيابي ونعليّ على الفراش وجعلت أفكر إلى أن غلبني النوم.

تلقيت بُعيدَ المغرب مكالمة من صديق فرنسي معلّم كانت بيني وبينه خلطة إخاء متينة. كنتُ، عندما ترقّهتُ بالدروس الخصوصية، أتبادل وإياه السكن خلال عطلة الصيف. أذهب إلى بلدته فأقيم بأسرتي في داره ويأتي هو بأسرته فيقيم في داري.

هنّأني بالمنصب وقال : «ما كنت أعرف لك اهتماما بالاقتصاد والسياسة فمن أين لك هذا ؟». قلت : «انفتح فجأة في وجهي باب العمل». قال : «لم أفهم. عرضتَ برنامجا ما ؟». قلت : «لا برنامج ولا ابن عم البرنامج. الوزراء عندنا يُعيّنون حسب كفاءاتهم في التنفيذ. أما البرامج والاختيارات فهي مسطرة في ذهن سيادته رئيس الدولة». ضحك مرات وقال : «لشدّ ما تغيّرت...». أسرعتُ أقاطعه بأني أكلّمه لاحقا خشية أن يقول كلاما لا يُرضِي الذين يحسنون بي ظنا فأنا لا أستبعد أن يكون جهازي مراقبا. وثرثرة امرأة حمقاء أهون ألف مرة من كلام ذكي محرج، فلعنني مرات وتنفستُ الصعداء. هذا الرجل الذي أخطأتُ لا محالة في مصادقته يوما أعرف أفكاره، فوضوي خطير وسبّاب نمام.

خصّصتُ معظم الليل لزوجتي. امرأة فاضلة رغم لسانها السّليط. في السنوات الأولى من زواجنا، بعد التخلّص من ضغوط الكبت المزمن، من اللهفة على اكتشاف الآخر المختلف، وعندما أصبح جسدها لا يكتم عنيّ سرّا من أسراره الخفية، كان كثيرا ما ينشب بيننا الخصام. كانت تفتح عليّ حلقومها وتظل تقذفني بالقاذورات. أحاول أن أصمد فأجدها قد غلبتني. كانت لا تجارى في هذا الفن. أهرب إلى بعض المقاهي البعيدة أرابط فيها مقهورا إلى أن أتأكّد من أنّ النوم قد غيّبها. أراها في ضوء المصباح الجانبي الذي كانت لا تطفئه، عندما تكون وحيدة، خوفا من الظلام فأتحيّر. أنظر إلى جمالها الهادئ وهي مغيّبة في النوم أو الحلم وأقول : «يا الله. خلقت هذا الجمال سبحانك. فلماذا، لماذا

جعلت ما يخرج من فمها أنتن مما يخرج من... ؟». أتكوّم على نفسي متكدّرا وأنام منزعجا من أن تستيقظ.

ثم دخل كل شيء في الرّوتين. حتى خصوماتنا دخلت في الروتين. كلامها النتن القبيح الوقح دخل في الروتين، لم أعد أتأذّى منه. قالت وهي تندس فيّ بأقصى ما تملك من جهد : «بماذا تحس الآن ؟». قلت : «بكثير من الاضطراب. أفرح مرة وأحزن مرات. لا أعرف لماذا أفرح أو لماذا أحزن. أخشى ألاّ أكون في المستوى». قالت : «ستكون في مستواها وأعلى. لا تخش شيئا». كنتُ، ليلتها، صادقا معها وكانت صادقة معي. أغدقت عليّ من حنانها كثيرا أنسيته من زمان. بتنا في انسجام قبل أن يصبحنا الصباح بعيدا عمّا بتنا عليه.

إني أحتجّ سيدي الحاكم. أحتجّ بكل ما أملك من قوّة على الاحتجاج. ما هو الجرم الذي تنسبونه إلي ؟ هل المعاملة التي تتعاملون بها معي تليق بمقام الوزير الذي كنت ؟ أنا يا سيدي لا ذنب لي. دُعِيتُ إلى أن أكون وزيرا فلبّيتُ. هل تقدر أنت أو يقدر سواك على أن يرفض إذا ما دُعِي إلى أن يكون وزيرا أو حتى نصف وزير ؟ هل في البلد رجل واحد يقدر على أن يرفض لسيادته رئيس الدولة طلبا ؟ أما كنتم دائما ترددون على مسامعنا «أن طلبات الرؤساء أوامر» ؟ أهذه جريمة أجرجر من أجلها إلى الإيقاف والمحاكم ؟

أنا والله ما أذنبتُ في شيء. كلّ ما في الأمر أنّ ابن خالتي عندما أصبح رئيسا للوزراء رغب في أن أكون وزيرا في حكومته. ظننته يكرمني بحكم الخؤولة التي تجمع بيننا. لا أحد يعرف مثلما أعرف كم هو ماكر داهية. لكن الدّهاء والمكر لا يوجّهان إلى الأقارب.

شعرت بأنّ في المسألة كثيرا من الواوات خلال حفل التنصيب الذي أقيم لي في وزارتي المستحدثة. استدعى ابن خالتي أجهزة الإعلام وكثيرا من كبار الموظفين والمستكتبين والشوّاش. وقف

إلى جانبي بقامته التي تزيد على قامتي ببضعة أشبار. سوّى نظاراته السميكة وقال : «قرّر سيادته بعظيم حكمته ونفاذ بصيرته وسديد رأيه أن يستحدث هذه الوزارة الهامة التي لا مثيل لها إلا في البلدان المتقدمة جدا. واختار لها ابنا من أبناء هذا البلد البررة للإشراف على تسييرها. اختار رجلا من الشعب. رجلا كان يشغل أسمى وظيف. الوظيف الذي قال فيه الشاعر الكبير :

قم للمعلم وفـّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

في هذا التعيين تكريم لجميع المعلمين. وفيه من المعاني السامية ما لا حصر له ولا حدّ. فيه، من بين ما فيه، أن جميع أبناء البلد البررة قابلون لأن يكون كل واحد منهم وزيرا ومسؤولا كبيرا. المهم أن يبذل النفس والنفيس في خدمة بلده». وقال كلاما كثيرا آخر أثنى فيه على سيادته أحسن ثناء ثم أحال لي الكلمة. لم أجد شيئا مستقيما أقوله. جفّ حلقي. لبّني عرق بارد. ثم فتح عليّ فتحا مُعَلّمِيا فقلتُ : «مشاعر الامتنان أوّلا أرفعها عاليا للمقام السامي، مقام سيادة الرئيس. وثانيا أقول إنّ المجال مجال أعمال لا مجال أقوال. كلنا فدى للوطن وجميعنا فداء لسيادة الرئيس». صفّق الحاضرون طويلا وهنأني ابن خالتي بحرارة. وانتقلنا إلى الحلويات والمملحات والمشروبات. اقترب مني صحافي خبيث وقال : «سيدي الوزير، هل لكم أن تعرّفوا الرأي العام بمهام وزارتكم ومشمولات نظرها ؟». كنت أتنحنح مستعدا لإجابة ما عندما اقترب منّا ابن خالتي وقال مخاطبا الصحافي : «ألم يقل لكم إن المجال للعمل لا للقول. تريد أن تُحَصّله، يا وْحَيِّدْ !».

ما مرّ يومان حتى كانت تركيبة وزارتي الصغيرة كاملة، من الكاتبة إلى رئيس الديوان إلى المديرين والكتبة والحجّاب والسائقين. لم أختر أيّا منهم. أرسلهم إليّ ابن خالتي واحدا واحدا.

دخلتْ عليّ الكاتبة في أكمل زينة تعبق عطرا فقلت لها : «هذه الأجهزة كيف تشتغل ؟». قالت : «جميعها يمر عبر الجهاز الذي في مكتبي، عدا الأصفر التبني فهو يربطك مباشرة بالرئاسة. تستقبل عليه ولا تطلب به. اضغط على هذا الزر تجدني دائما رهن الإشارة». غاضتني طريقتها في مخاطبتي. لاحظت أنها كانت تلوك علكة فقلت : «الذي في فمك ألقيه». لم أرها ترمي بشيء فأعدت عليها الأمر. قالت : «قد بلعْتُه... يا سيادة الوزير». صرفتها محتدّا من سوء أدبها. إن لم أرم بها بعيدا عن مكتبي ما كنت المعلّم الموهوب الذي كنت.

جاءني رئيس ديواني. رجل قصير أصلع منتفخ الجسم والخدين، يوشّح وجهه بشارب طويل منفوش ويضع نظارات

سميكة جدا. جلس متأدّبا. قدّم لي ورقة عليها خطوط وسهام وقال : «هذه نظامية الوزارة. أعددتها البارحة. إذا صادقتم عليها أمضيتها ورفعناها». وضعتها جانبا ريثما أتأملها في راحة من أمري. كنت متخوّفا من أن أستفسر عن معلوم أو ينفلت مني تعليق يفضح جهلي بهذا القطاع . فتح ملفا وقال : «مشمولات نظر الوزارة هي الموارد الطبيعية والممتلكات. جميع ما على وجه الأرض وجميع ما في جوفها. يدخل في ذلك البحر وما فيه وما تحته. الفضاء داخل في مشمولات الوزارة. جميع المعطيات موزّعة على عدد من الوزارات مثل الفلاحة والصناعة والبيئة. نطلبها منها شكليا. العادة أن كلّ وزارة تتكتّم على ما لديها وتخفيه. لكن لتطمئن سيادتك، لدينا في الوزارة الأولى جميع ما نحتاج إليه». ذكر لي أن كلّ المعطيات تكون تحت تصرّفنا خلال أسبوع واحد.

قطعتْ علينا الكاتبة الحديث بهاتفها. قالت : «السيد المدير المساعد للحزب يطلب سيادتكم. تأخذونه ؟». تردّدتُ فإذا بصوت متثائب يسلّم عليّ ويلقي بالتهاني باردة ثم قال : «من تعليمات سيادته رئيس الحزب والدولة أن يتنقّل أعضاء الحكومة إلى الجهات لتوعية المواطنين وشرح الخبايا العظيمة لحكمة سياسته. أعرض عليكم أن تذهبوا إلى قرية... للإشراف على اجتماع حزبي حاشد. الاجتماع اليوم في الساعة الرابعة بعد الزوال. أرسلُ لكم بطاقة الانتماء»، وانسحب متثائبا. ظللت حائرا. لمح رئيس ديواني حيرتي فقال : «أعدّ لسيادتكم الخطاب إذا أذنتم لي». لم أقل له إني لا أعرف أين توجد القرية التي سينعقد

بها الاجتماع، فقلت: «أخشى أن يطول اللقاء مع المسافة». فهمتُ أنّه ذكيّ جدا فقد قال: «المسافة لا تحيّر فالقرية تبعد عشرة كيلومترات عن مقر الولاية. أما الاجتماع فسيادتكم تتحكمون فيه. والآن تأذنون لي بإبلاغ المصالح المختصة بوزارة الداخلية» وانصرف.

ما أحببتُ الحزبَ يوما ولا رغبت في الانتماء إليه. إنّه، في نظري، لا يصلح لشيء. لو كان عندنا أحزاب حقيقية أخرى معارضة أو مخالفة كان للانتماء معنى. أما أن تكون وحدك في السباق فحديثك عن الفوز والمنافسة والكسب هو الحمق عينه. كنت أزعم أن الانتماء إلى المنظمة الشغيلة أنفع وأجدى. هي، بعيوبها، تدافع عنا على الأقل وتتبنىّ مطالبنا أو تتظاهر بذلك. أمّا الحزب فليس فيه إلا حشود محشودة من الانتهازيين والمتملّقين والوصوليين والطمّاعة أبلى التصفيقُ أكفّهم وزرع فيها كدمات يابسة وغلّف ركبهم من كثرة الركوع بكركرات وأنبت في حلوقهم من كثرة الهتاف زعانف. ظللت، طيلة حياتي الماضية، في التسلل، كلّما طلبني رئيس الشعبة المهنية ورئيس الشعبة الترابية أمعنتُ في المراوغة والهرب. والآن ينبغي أن أرأس اجتماعا حزبيا حاشدا ببعض القرى المتروكة المهملة أشرح فيه سياسة الدولة وأستثير بخطابتي عواصف من الهتاف والتصفيق.

هتفتُ لابن خالتي أعلمه بالاجتماع الجماهيري الذي تقرّر أن أشرف عليه. أخذتني كاتبته على الخط فحيّت ووَشْحَلت[12]

12 - قالت «واش حالك» مرارا وتكرارا.

وقالت : «لم تقبل مني التي عرضتها عليك. والله هي أحسن ألف مرة من التي أصبحت كاتبة لديك»، لم أعلّق. قال ابن خالتي : «اجعلهم يحلمون. سكان تلك الجهة كسالى يحبّون التّوابل. كثّر لهم البهارات ونوّعها». أخبرت زوجتي أني ذاهب إلى اجتماع شعبي مهول بإحدى المناطق الريفية. جعلت تسأل عنها وعندما أثبتتها قالت : «لو جئتنا منها بشيء من الزلابية». صرختُ فيها : «يا غبية. الوزراء لا يأكلون الخبز إلا بالجُبْنِ [13]. الزلابية عليهم حرام». أرادت أن تعتذر فقالت : «يكفيهم البلّوط إذن». فلعنتها متعجّبا من شدة حمقها وأغلقت الخط حتى لا تورّطني في ما قد يؤول علينا بخراب البيوت، فهي لا تعرف أنّ ثمر البلوط لا يؤكل [14]. ظنت ثمره، كالكذب، سهل الابتلاع.

نعم سيدي الحاكم، أنا ابن هذا الشعب المسكين. من صلبه خرجتُ وفي حاراته ترعرعت وأطفالَه علّمت. هل يدخل في ذهن عاقل أن أخونه أو أن أفكر مجرد تفكير في خيانته ؟ ما هي هذه الخيانة العظمى التي سمعتُ أنكم تلفقونها لي ؟ ما أراكم إلا قد وهمتم فيّ.

على تخوم الولاية وجدنا عون حرس على دراجته السريعة. تقدّمنا ييسّر لنا المرور. كانت زمّارته تولول وأضواؤه تشعّ فتنحاز السيارات والشاحنات على جانبي الطريق. وصلنا إلى مقرّ الولاية فاستقبلني السيد الوالي معانقا كأنما بيننا سابق صداقة. عانقني

13 - وضعت الحركات بلون مخالف للون الأصل.

14 - يسمي الكذب عندنا بلّوطا.

أيضا الكاتب العام للجنة التنسيق الحزبي. قال السيد الوالي: «يرافقكم السيد الكاتب العام، لديّ اجتماع مهم».

وصلنا إلى القرية. وجدتُ حشدا من المواطنين في ساحة مدرسة غير مسوّرة، بعضهم على مقاعد خشبية مدوّرة دون مساند وبعضهم على طاولات التلاميذ وأكثرهم وقوف. ما كدت أشرع في اختراق الجمع المتراصّ حتى جعلت الأيدي تصفّق وتمتدّ إليّ بالرسائل. رسائل في ظروف بيضاء وصفراء ورمادية ودون ظروف. همّ مرافقيّ بدفع الأيدي عني، لكنني تسلّمت كل رسالة وصلتها يدي. امتلأت جيوبي. بلغتُ المنصّة. نظرت إلى الوجوه المتفرّسة فيّ. وجوه كالحة شاحبة وسخة متعبة تعاني بؤسا ظاهرا يرفّ عليه الشقاء، وعيون ذابلة ذاوية حزينة. رجال ونساء وشيوخ وصبية في ملابس محلية رثة أو وافدة مستعملة من وراء البحار فهي ألوان وأشكال وأجناس وأصناف، جيء بهم إلى هذا الاجتماع الشعبي الحاشد. بدأت أتساءل عمّا ينبغي أن أقوله لهم. سمعت السيد الكاتب العام للجنة التنسيق يقدمني بكلام أكثره ثناء على سيادة الرئيس وتنويه بعظيم حكمته وسداد رأيه ونفاذ بصيرته لتنبعث في كل مرّة يذكر فيها اسمه من الجمع عاصفة من التصفيق وأخرى من الهتاف له بطول العمر ودوام السعادة. أحيلت إليّ الكلمة. وقفت وقفة معلّم. جعلت أتحدّث عن العلم ومنجزاته المعجزة. ربطت كلامي بالدعوة إلى «المجتمع المتعلم»، بالحثّ على «طلب العلم والمعرفة من المهد إلى اللحد» وبالمناداة بالمراهنة على الذكاء. بلدنا الفقير لا منجاة له إلا بذكاء أبنائه. انثالت عليّ البلاغة من كلّ صوب. لم أفطن إلا إلى السيد الكاتب العام وهو يقرصني من

فخذي حتى أنتبه إلى قصاصة فرشها أمامي فيها «السيد الرئيس». لم أفهم إلا بعد محاولات منه متكرّرة أنّه يطلب مني أن أشيد بعظمة سيادته. سبّحت بآلاء العلوم لحظة ثم انعطفت على سيادته فأثنيت على حبّه العلمَ والعلماء. جعلت أصدح بأنّ الموارد الطبيعية لا قيمة لها ما لم تُسقَ برحيق العلم ولم يَغرس فيها سيادته مشاتل المعرفة ويلقحها بأريج حكمته. انتبهت إلى السائق في زاويته يشير خفية إلى ساعته إشارة كنّا اتفقنا عليها. أنهيت الكلام فصفق الحاضرون طويلا وهتفوا ملياّ للرئيس والحزب والدولة. انهالت عليّ الرسائل من جديد عند الخروج. ودّعت السيد الكاتب العام في إدارته إذ كان السيد الوالي مشغولا باجتماعه. وسار أمامنا عون الحرس على دراجته يولول موسعا لنا الطريق.

شغّلتُ الإنارة الجانبية، جلست باسترخاء وشرعت في فتح الرسائل التي امتلأت بها جيوبي. كانت الخطوط رديئة والورق من ذلك النوع المخصّص للمراسلات الرسمية بمربّعاته الصغيرة الزرقاء الغامقة والسوداء. قرأت : «يا سيدي الوزير، يا صاحب العقل الرشيد والفكر السديد. يا صاحب القدرة والجاه. إني المواطنة صالحة بنت... أرملة. عندي سبعة أبناء، أربعة ذكور يلبسون الجدار وثلاث إناث عوانس. أترجّاكم أن ترحموني بتشغيل واحد أو واحدة منهم. وعَدَنا السيد المستعمد خيرا منذ أعوام ولم نر شيئا». أضيفت العبارة الأخيرة بخط مختلف رديء تبعه دعاء كثير وذكر للهوية والعنوان.

قرأت : «يا صاحب اليد الطويلة والقلب الرحيم والأخلاق الفوّاحة. إني المواطن عبد الوهاب... أتوسّل إليكم ودموع

الرجاء تملأ عيني بأن تنصفوني وتعيدون (كذا) لي حقي الضائع. انسدت في وجهي جميع الطرق وأظلمت الآفاق. عندي «طبّة»[15] أرض ورثتها عن أجدادي في موقع ممتاز. انتزعها مني رئيس الشعبة الحزبية بوثائق مزوّرة. رفعت عليه قضايا. من عشرة أعوام وأنا أخاصم والحكّام لا يسمعون. يخافون من المعتمد الذي هو قريبه ومن أناس لا نعرفهم يشاع أنهم في الأعالي».

قرأت : «يا ملاذ الملهوف. يا كهف المظلومين. يا الأمل الذي شعشعت أنواره في قلوبنا... . أرفع للمقام السامي والمجلس العطر العالي مظلمتي التي تشهد عليها النجوم... أنا فرج... حارس ليلي بمصنع... اكتشفت أنّ عَرْف[16] النقابة والعمال... ورئيس الشعبة... يسرقان من مخزن المصنع المحروقات ومواد التنظيف وقطع الغيار ويبيعونها (كذا) لصاحب الورشة الكائنة بـ... وعندما هدّدت برفع الأمر للمسئولين النّزهاء فُصِلت عن العمل بدعوى التقاعس والإهمال. أهذا جزاء من يغار على مصلحة العباد والبلاد ؟».

معظم الرسائل من إنشاء كاتب واحد. الخط هو هو والعبارات متشابهة عدا بعض الصيغ التي كان يخصّ بها هذا المتظلم أو ذاك.

قرأت بلغة أجنبية : «صاحب المعالي... السيد الوزير.

أتشرف بأن أنهي إلى علمكم أني الممضي أسفله... كنت تحولتُ إلى العمل بالخارج. حصلت على ثقة مشغّلي السيد...

15 – قطعة صغيرة.
16 – المسئول الصغير ، وتطلق أيضا على كبار المسئولين وأرباب الأعمال والمصانع

عرّفته على بلدنا الجميل فأعجب به وبالقوانين الخاصة بالاستثمار الأجنبي. وظّف قسما من رأس مال شركته لتشييد مصنع للجوارب الفاخرة. دخلت معه شريكا بالأرض التي يملكها أبي في أطراف البلدة. شغّلنا يدا عاملة كانت عاطلة وأسهمنا في نقل التكنولوجيا. لكن الارتشاء والسرقة التي لا يوقفها القضاء والتهريب عبر البلاد المجاورة سارعا بنا إلى الإفلاس. المتواطئون مع المهرّبين هم فلان وفلان وفلان وهم معروفون بالرشوة. أرجو من سيادتكم أن ترفعوا أمري وهو أمر كثيرين أمثالي إلى سيادة الرئيس المفدّى. فالوضع خطير على مستقبل البلاد والعباد والنظام».

قرأتُ وقرأت حتى صرت أتثاءب. قلت للسائق: «هذه الرسائل ماذا أصنع بها؟». قال: «تلتهمها متلفة الوثائق».

ذكرتُ الرسائل التي تسلمتُ لابن خالتي فضحك وقال: «ساذج ابن ساذج وساذجة. المواطنون يظنّون الوزراء سعاة بريد. وأنت ترضى لنفسك بهذا الدور. أنشأنا لهم مصالح خاصة بالشكاوى والتظلمات حسما لهذا الداء العضال المتمكن بهم. ظلوا يترصّدون كل وزير وأيَ مسئول لتسليمه كلامهم الفارغ». رأيتُ أن أحتفظ بها وهو ما فعلته لأنظر فيها بين الحين كلما خنقني ضيق.

أصبحت زوجتي أميرة على شغالة وطباخة وجنان وسيارة لشؤونها الخاصة وشؤون الأولاد وسائق. امتنع الأولاد في اليوم الأوّل عن الذهاب إلى مدارسهم بالسيارة. هربوا. ثم سرعان ما اعتادوا وألفوا فصاروا لا يخرجون من البيت إلا قبيل موعد الدرس بدقائق. ركوب السيارة أفضل في جميع الأحوال من السير على الأقدام. الجنّان يطبخ شايه ويجلس في الظل وفي الشمس فحديقتي صغيرة ليس فيها لا نبات ولا أشجار ولا أزهار. قدّمتِ الشغالة لزوجتي قائمة في لوازم العمل : غسّالة وكنّاسة كهربائية وجفّافة... الطبّاخة لا عمل لها سوى رواية القصص والخرافات لزوجتي. حكايات مسلية في نظرها وتافهة سخيفة مملّة في نظري. هممت بأن أطلب منها أن تجعل بينها وبين الشغالة مسافة فامرأة الوزير وزيرة أيضا، لكنني خشيت أن أجرح، دون قصد، مشاعرها. غرقت زوجتي في وضع التصاميم لما ينبغي أن يصبح عليه البيت. قالت : «نضيف غرفة جديدة ونوسّع قاعة الجلوس». لم أنتبه لكلامها فقد بدأت شؤون وزارتي تشغلني.

قالت : «سمعتَ ما قلتُ لك ؟». نظرتُ إليها مستغربا فوقع بصري على صدرها الكبير المترهل. خطر في ذهني منظر صدر كاتبتي النّاهد النّافر الصّلب. لاحظت، بعد زجري إياها، أنهّا أصبحت تأتي في لباس محتشم. إلاّ أنها كانت تزيح، ما إن تحلّ بمكتبها، الفولارة [17] الحريرية الشفّاف التي تستر بها عنقها فتصبح مساحة شاسعة من أعلى صدرها ظاهرة. رأت عينيّ تطيلان الاستقرار على منبت النهدين، فأكثرت من الدخول عليّ وافتعلت، عند تقديم الملفات، انحناء يبرز لدونتهما وتكوّرهما. تسمّر نظري على نفور النهدين مرات ودوّت في رأسي المدافع. تأمّلت صدر زوجتي المتهدّل فأصابني قرف. أيكون هذا الصدر هو الصدر نفسه الذي كان في يوم من الأيام يزدان برمانتين صلبتين طالما تلهيت باهتصارهما مترنما بمقاطع من أغنية شعبية وقحة أحبها وتحبها زوجتي كثيرا. أغنية تصف جسد المرأة عضوا عضوا بعجيب من الصفات. كانت زوجتي تقول كلما طلبت مني أن أغنيها لها : «من أين تعلمتها. لم أسمع، من قبل، بشيء منها إطلاقا ؟». كنت أقول : «هذا من مخبوء عبقريات الشعوب».

بدأت الهواجس تنخر ذهني بكثير من الحدّة والإلحاح عندما طلبني سيادة الرئيس. لم يمض على أدائي القسَمَ أمامه، وكان ذلك في لحظة كلمح البصر، سوى بضعة أيام، فما الذي يريده مني ؟ جاءني صوتٌ من القصر الرئاسي عبر الجهاز الأصفر التبني يقول :

---

17 – غطاء نسائي للرأس أو العنق خفيف.

«غدا تحظى بمقابلة سيادته في العاشرة صباحا. ليكن وصولك في حدود التاسعة». لم أفرغ من التعرّف إلى مشمولات نظر وزارتي فما الذي سأقوله لسيادته ؟ قضيت معظم الليل في المكتب مع رئيس ديواني نفكّر ونحصي ونكتب ونقارن النصوص بالنصوص والأرقام بالأرقام. اكتشفتُ في مساعدي كفاءة عالية جعلته يبدو لي، رغم منظره المنفّر، في غاية من اللطف. حصلت، بعد لأي، على ابن خالتي. قال : «من الطبيعي أن يتعرّف سيادته على اقتراحاتك». في الصباح طرت إلى القصر.

استقبلني الوزير المستشار الناطق باسم الرئاسة. رجل داهية خبيث. من النوع الذي لا تتبيّن لا من كلامه ولا من تعابير وجهه أي شيء. ربما قرصك، وهو يبتسم، قرصة موجعة دون أن تتحرّك منه يد. قال بعد حديث طويل وآلي عن قيمة الثقة التي يمنحها سيادة الرئيس لمساعديه : «ماذا تقول له إذا سألك عن وزارتك ؟». بدأت أسرد المعلومات التي حفظتها بالليل. قال : «وإذا طرح عليك أسئلة لا علاقة لها بوزارتك». قلت : «أجيب بما أعرف وأعتقد أنه الحق». قال بحدّة : «لا» ثم قال كالمستدرك : «لا أنصح لك بهذا. ينبغي ألاّ نقول لسيادته إلا ما تحبّ سيادته أن تسمعه منا. إياك أن تنغّص عليه فرحة أيامه بالكلام المكدّر. ثم إنّ هذا مضرّ بمصالح الأمة». لم أفهم. قلت : «ماذا أقول لسيادته إذن ؟». قال : «تقول له كلّ شيء يسير على النحو الأفضل. ليس في الإمكان أحسن مما هو كائن بفضل ألمعيته وحنكته وعظيم حكمته ويمن طالعه». ظللت صامتا أطلب من الله ألا يسألني سيادته عن شيء لا علاقة له بوزارتي.

أدْخِلت عليه وركبتاي تصطكان من الهلع . لم يزد على أن قال : «أهلا». كان ينظر في شاشة حاسوب لا أرى منها شيئا. قرأ في سرّه ما كان مرسوما عليها. التفت إلي وقال : «كنت معلّما أليس كذلك ؟». قلت : «نعم يا سيادة الرئيس. الفضل فضلكم». قال : «كيف وجدت الوزارة ؟». قلت : «ثقتكم والقرب من مقامكم السامي ورضاكم فوق جميع ما كنت أتمنى». كاد يبتسم وقال : «بيّاع كلام بارع». لم أتبيّن المدح في هذه العبارة من الذم. ثم قال : «سر الهوينى وبثبات. لا أحب الاستعجال ولا أحب التراخي». وعاد إلى شاشته ينظر فيها.

لا أدري ما إذا كان قد ضغط على جرس من الأجراس الخفية أم أنّ الأمر كان مرتّبا سلفا فقد دخل علينا وزيرُه المستشار الناطق الرسمي باسم الرئاسة فخرج بي. أجلسني أمامه وجعل يسألني عمّا قاله لي سيادته وقلته له. استأذنت في الانصراف غير فاهم. كان ضغطي قد بدأ في الارتفاع.

ما كدتُ أصل إلى وزارتي حتى استدعاني ابن خالتي. سألني عن المقابلة فقلت : «كانت على خير ما يرام». قال : «هات التفاصيل». سردتها عليه حرفا حرفا وذكرتها خطوة خطوة. لم يعلّق. كبر عليّ أن أصارحه بأني قد تضايقت كثيرا من هذه المقابلة. عندما هممت بالتحوّل إلى جناحي قال : «تشرع في التقدم في العمل. سيادته تهمّه النتائج». كدت أقول : «أيّ عمل وأيّ نتائج. أنا لم أفهم بعد شيئا. قولوا لي ما هو المطلوب آتيكم به حتى لو كان الجن الأزرق». سكتت.

جلست إلى مكتبي مفكّرا في هذه المقابلة أحاول أن أعثر لها على معنى فلا أوفّق. بدأ التوتّر ينخرني، يشدّ على أعصابي فاستسلمتُ له. ماذا يراد مني ؟ ما هو الكلام الذي يتعيّن على كل وزير أن يقوله لسيادته حتى لا يكدّر عليه صفو أيامه أو يشوّش سديد حكمته ؟ أتلك هي عادته في استقبال أعضاده الوزراء ؟ كنت تائها فعلا عندما جاء رئيس ديواني يحمل ملفاته. حاولت أن أتجاهل انفعالي فلم أستطع . استمعت إليه دون أن أفهم كلمة واحدة. قلت له : «أحتاجك الليلة بداية من العاشرة. ارجع باكرا إلى بيتك وعد سريعا». بدأ الوقت يمضي نحو المساء ثقيلا وتوتّري يرتفع . ينبغي أن أكوّن فكرة واضحة عن وزارتي، أن أصدم الجميع بما لا ينتظره منّي أحد. أحسست بما يشبه الغليان في صدغيّ. يبدو أن الكاتبة قد انتبهت إلى اضطرابي الداخلي فقد أرسلت من تلقائها السائق فأتاني بمشروب منعش خفيف استطبته واستلطفته منها. شعرت نحوها بكثير من الامتنان. كانت تدخل عليّ وتخرج بأوراق متنوّعة تعرضها علي. تتوقّف أحيانا لتسرد أسماء الذين خاطبوني بالهاتف. كانت تضع أوراقها على المكتب أمامي وتظل واقفة على يميني، يلفحني عطرها عندما تنحني لتقليب الصفحات. ألفيت يدي تستقر على عرقوبها تمسح عليه برفق. ابتسمتْ وانحنت أكثر فلمست غديرة من شعرها وجهي. تمكّن مني اهتياج مباغت. ارتفعت راحتي إلى الفخذ وارتقت إلى أعلى. ارتفعت دقات قلبي. نهضتُ. أومأت لي بسبابتها أن اصمت. اتجهت إلى الباب الرئيسي فأدارت قفله. ذهبت إلى مكتبها لتتأكد من خلو المكان، أغلقته. دخلت وأدارت من الداخل

قفل الباب الذي بيني وبينها. أطفأت جميع الأضواء وهرعت خفيفة لتشعل في ذاتي المتأزمة جميع أنواع الحرائق الأخرى.

هل الذنب ذنبي سيدي حاكم التحقيق إذا كانت مقابلة سيادته قد وتّرتني إلى ذلك الحدّ الذي غُلِبت فيه على أمري ؟ هل الذنب ذنبي إذا كان لكاتبتي صدر شهيّ كانت تتعمّد الكشف عن خيراته كلما دخلت علي ؟ هل الذنب ذنبي إذا كان عطرها في ذلك اليوم قد نفذ إلى روحي القلقة فألقى عليها انتعاشا ؟ أهو فعلا وحقيقة ذنبي إذا كنت قد مددت لها يدي فلم تمانع ؟ هل لديك كاتبة مثل الكاتبة التي أهدانيها ابن خالتي ؟ هل الذنب ذنبك إذا كانت لك كاتبة خاصة أو ذنبي إذا كان كثير من الآباء والأمهات والإخوة والأزواج يرضون بأن تشتغل بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم كاتبات خاصات وهم على بيّنة مماّ يمكن أن يحدث ؟ هل الذنب ذنب أحد من الناس إذا كان الجوع كافرا بالفضيلة والرذيلة وكانت علاقات التشغيل عندنا كثيرا ما تشتبه بعلاقات الاستعباد ؟

شعرت بكثير من المودّة والعطف والامتنان نحو كاتبتي. أزاحت همّا ثقيلا كان جاثما على صدري.

بقيت بمكتبي إلى ساعة متأخرة من الليل. كنت منتشيا بعظيم خيرات المساء، مهدود الهمّة من غمّ الصباح، مكدودا بالبحث عن شيء لا أعرف ما هو وأشعر بالحاجة كاوية إليه.

طبيعة بلادنا شحيحة بالموارد. لا فوق الأرض ولا تحتها شيء يمكن أن يكون قاعدة أو شبه قاعدة للانطلاق. راجعت ما فوق الأرض وفي جوفها وما على الشواطىء وفي أعماق البحار فلم

أعثر إلاّ على ما يبعث على مزيد من الحزن. القليل الذي نملكه يبدّد ويخرّب ويهجّر. أمّا أكثر القليل الذي شيّدنا ففي حالة من التعليق مزرية، كمشنوق تحوم حوله الغربان. عدت إلى المعطيات أراجعها بعين متفائلة فحصلتُ على أنّ الموجود يكفي وزيادة إذا حظي بحكمة التصرّف وحسن الاختيار. انتهيت إلى أن المشكل ليس في الموارد الطبيعية بقدر ما هو في كيفية التصرف فيها، فهذه البلاد قد أعالت سكانها وكثيرا من الغزاة والمفسدين والنهّابة على امتداد قرون لا يحصيها أحد. هذا ما كنت قد استفدت من السنتين اللتين أمضيت في الجامعة غير موفّق في النجاح. اشتعل في رأسي ضوء أحمر جعل يرفّ فيه رفيفا مؤذيا. التصرّف ليس من مشمولات نظر وزارتي. إنّه في المنطقة التي تكثر فيها المزالق. انتبهت إلى أنّ رئيس ديواني قد أخذته سنة من نوم. كان وجهه يستند إلى راحته عندما انطبقت جفونه بعضها على بعض. نبّهني إلى ذلك شخير انبعث منه. حمدت الله على أنّ النوم صرعه قبل أن تداهمني تلك الأفكار الخبيثة خشية أن يفطن لها. أيقظته بلطف وخرجنا.

أخذني حنين جارف إلى «صحفة لبلابي» [18] في حي شعبي كنت ولوعا بالتردّد عليه. لكن كبرت عليّ رغبتي. ما الذي سيقال عني إذا شاهدني أحد ونقل الخبر للتندّر إلى حيث تنقل الأخبار ؟ هل آمن لسان السائق إذا ما طلبت منه أن يأتيني بها ؟ ثم أيّ نكهة في التهامها على مقعد بسيارة وزارية ؟ خنقت حنيني بقبضة صلبة

18 - أكلة شعبية تتكون من حمص مطبوخ طويلا تضاف إليه بهارات حارة وتوابل وخبز يابس جدا وزيت.

وعدت إلى البيت. كان الجميع قد ناموا. التمست شيئا أتقوّت به فلم أعثر على ما يمكن أن يبدّد شوقي إلى «صحفة اللبلابي» اللعينة. توجّهت إلى غرفة النوم. اندسست إلى جوار زوجتي. كانت غارقة في النوم. شعرتْ بي فهمّت بالانتباه لكن غلبها النعاس. شكرت له هذا الفضل.

تلهيتُ، في طلب النعاس، بالمقارنة بين الصامد من مفاتنها في وجه الزمن ومفاتن كاتبتي الجذابة. داهمني نحوها شعور بالإشفاق والقرف. كنت مشدودا إليها رغم سلاطة لسانها وبذاءته. ألعب، من حين لآخر، على اليمين وعلى اليسار مثلما يلعب سائر الرجال مع نساء ترمي بهنّ في طريقنا الصدفة أو يحملنا على ملاحقتهن الضّجر واشتهاء التنويع. ما رأيت امرأة إلاّ تشهّيتها في الفراش. امرأتي هي التي فتحت لي الطريق، بعد الزواج طبعا، إلى تشهّي الأخريات والاستمرار في ملاحقتهن. المرّة الأولى كانت مع صديقة من صديقاتها تكنّ لها معزّة خاصة. كانت دائمة التردد عليها. تجالسها فتطيل معها الجلوس. تروي لي نتفا من أخبارها. أنا سيدي الحاكم أجلّ الصداقة. أضعها على الرأس والعين. لم أنظر يوما إلى صديقة زوجتي المبجّلة نظرة شبقة أبدا. لم أكن حتى أعرف ما إذا كانت جميلة. كنت في البيت وحدي عندما طرقت يوما الباب. احتفيت بها وقلت: «صديقتك عند الحلاقة». كنت أنتظر أن تنصرف. لم يبد عليها تردّد وقالت: «أنتظرها». هل يترك أحد صديقة زوجته تنتظر في قاعة الجلوس وحدها؟ قلت: «أظنها تتأخّر بعض الوقت، أخذت الأولاد معها». تنهدت بحرقة وقالت: «أنتظرها». جعلت أسألها عن أحوالها وهي

تجيب باقتضاب. ثم انخرطت في البكاء. هممت بأن أتركها تبكي ما تشاء ثم صعبت عليّ دموعها الغزيرة فجعلت أواسيها. قرّبتُ منها منديلا لتمسح دمعها المسفوح فرفعت لي وجهها. لم أجد بدا من أن أرطب المنديل بشيء من العطر حتى تنتعش. اندفعت فجأة في أحضاني. كنت مستعدا لاستقبالها. لم نجد الفرصة لمعاودة الفرح إلا مرات معدودات. لكن المقصود كان قد حصل فقد وجدت فيها شيئا مختلفا أو هذا ما اعتقدت. ما زلت أبحث عن ذلك الشيء المختلف، كلما أدركته في أنثى تخيّلته في غيرها أطيب وأحلى فمن يومها وأنا أجري وأجري. ثم هل تركتم لي ولأمثالي مضمارا آخر للتنافس غير الركض وراء الإناث ؟

جريت وراء زميلة لي مطلقة كانت تقطن مع أم لها عمياء. كانت في المدرسة تبدي ترفّعا وكبرياء وشموخا. صادفتها قرب منزلها فاستدعتني لاحتساء قهوة من صنع يدها. ترددتُ فألحّتْ وأقسمتْ فاستجبتُ. بدت لي أبوابها التي كنت أظنها موصدة مواربة. شرعت في اقتحامها. كانت تقبل وتصدّ. لمّحت للزواج. ما كان أغباها ! رميت بها صريحة قائلا : «اسمعي يا زميلتي العزيزة. إنيّ متزوج وأحب زوجتي. لست مستعدًّا لاستبدالها. إذا كان لعبا بريئا فأنا جاهز. وإذا كان غيره فلست صاحبك». كان الوضوح مباركا عليّ، فقد سعدت بها شهرين حتى أبلغتني أنه جاءها ابن حلال مغفّل. قلت : «زوج مغفّل أفضل من زوج ذكي. والزوج المغفل أستر للمرأة من الزوج النابه». لم تكن أجمل من زوجتي. كان يخيل إليّ أني أرتقي معها بالأشياء البسيطة إلى ذرى بعيدة من المسرات. سألتها بعد زواجها عما إذا كانت سعيدة فقالت : «عندك

مكان آمن ؟». نفيتُ بحركة من رأسي. في آخر ذلك العام الدراسي انتقلت إلى مدرسة أخرى.

لم يكن الجري وراء النساء عندي من الأولويات وإن كنت أعتبره أفضل ما ينبغي أن نخصّه بالركض. فأنا، سيدي الحاكم، من الصباح إلى المساء، أجري وراء لقمة العيش وحاجات الأولاد إلى اللباس والدواء، وخلفَ ما أسدّد به فاتورة الماء والكهرباء والهاتف. أعود آخر النهار مكدودا يابس الريق زائغ العينين لا أكاد أقدر على الوقوف فتجري إليّ زوجتي بالماء الدافئ أغمس فيه قدميّ وبإبريق الشاي أطرّي به لساني. أحيانا أخطف خطفا «صحفة لبلابي» في حي شعبي عتيق، وقد أكرم نفسي بشيء من النبيذ في زاوية مستورة بحانة ابن حيّنا «شابيط». أمّا إذا سنحت فرصة للإيلام باللحم الحيّ فإنيّ لا أتركها تمرّ. كان بعض تلك الفرص يترك فيّ تقريعا قويا للضمير، لكني قلّما كنت أبالي به. كنت أقمعه قمعا فينسحب بعيدا عني مهزوما خاسئا. همّ بأن يشتد عليّ في إحدى المرات فأوقفته عند حدّه وانتهت المعركة فاصلة في صالحي. كان ذلك عندما استدعاني زميل للقيام بدروس تدارك لابنته. تمنّعت فأصرّ وألحّ. كانت البنت في طور المراهقة. ظننتها، بنت الكلب، بريئة. بدأتها بالمداعبة وبالأشياء الأخرى التي كانت تطرب لها وتهوّن عليّ تمضية الثقيل المقرف من الوقت الذي كنت أخصصه لها. وعندما سنحت الفرصة فجربتها وجدتها، بنت الكلب، متعوّدة. خفت أن يلبّسني أبوها الجرم إذا ما أحسّ به. تحيّنت إحدى الفرص ودخلت معه في مُلاسنة امتطيتها لقطع

صلتي به. صرت أشك في جميع البنات البريئات. رأيت فيهن، استرسالا مع تحاليل مفزعة كان يلقي بها علينا طالب محترف في التشهير بجرائم السلطة، نماذج حية من ضحايا ثقافة التفسخ والميوعة التي تنشرها وسائل الإعلام على مدار الساعة. ثم قلتُ في نفسي مندفعا مع الرغبة في مخالفته : وهل في الطبيعة عيب ؟ لكني ضربت طوقا من العسّة على ابنتي. أوحيت لأمها بضرورة مراقبتها مراقبة صارمة والكشف عنها إذا لزم الأمر. ركبتني غيرة نغّصت عليّ أيامي ردحا من زمن.

أنا سيدي الحاكم أؤمن بالشرف. أقدّسه تقديسا. لكني أعتقد أن لا شرف مع الاحتياج. لا شرف لا مع ثقافة الماضي، ثقافة المرأة الخادمة، امرأة تعدد الزوجات، ولا مع هذه الثقافة المسخ التي تنشرها وسائل الإعلام، ثقافة المرأة الشيء. ثم، قل لي، وأنت الخبير بجميع القيعان والسّراديب والمجاري، هل يعقل أن يودع الشرف بين سيقان النساء ؟

لا أدري ما الذي تملّكني ذات يوم حتى ظللت خجلا من نفسي أشتدّ عليها باللّوم فلا ألقى منها تجاوبا. لم أتبين فيها ذرّة واحدة من ندم. بل كان يستغرقني منها ضحك كثير وعجب أكثر. أوصاني قريب لي من الأقرباء الأباعد، التقيته بالخارج، بأن أزور أمه لأسلمها مالا وهدايا أرسلها لها. عرّجتُ في طريقي إليها على حانة «شابيط». طاب لي المقام فلم أقصدها إلا في بداية الليل. كانت تتهيأ للنوم. سُرّت كثيرا بمقدمي. استبقتني تسألني عن ابنها والأهل والأحباب. استغرقنا حديث الذكريات حتى إذا هممت

بالانصراف ألفينا المطر ينهمر بغزارة. اقترحت عليّ أن أقضي الليل عندها. تمنّعتُ فأصرّتْ. امرأة في سن أمي لا يمكن أن يردّ لها معروف تعرضُه. نمت في غرفة مجاورة للغرفة التي كانت فيها، بيننا باب داخلي. ظللت أتقلّب دون أن يصل النعاس إلى عيني. بدأت الخواطر الغريبة تنهش ذهني. كنت أطردها فكانت تعود إلي متنمّرة. نهضت. ذهبت إليها في مخدعها. تمددت إلى جانبها. انتبهت وقالت : «لم يأتك نوم أم هو البرد ؟». اندسست فيها فلم ألق صدا. شعرت بها مع الفجر تنسحب برفق من الفراش. جعلت أراقبها. رأيتها تتّجه إلى ماجل[19] عميق من مواجل دورنا العتيقة. فزعت. قلت : «لا بد أنها ندمت على ما كان، وأنها ذاهبة لترمي بنفسها فيه». لحقت بها وقلت : «ماذا تصنعين ؟» وفي نيتي أن أمنعها وأسترضيها، فقالت وفمها الأدرد المكسو بالتجاعيد يرتعش : «قلت أتوضأ لعله يرغب في آخر قبل الانصراف». انفجرتُ ضحكا. لم أخيّب أملا عقدته عليّ. قالت وأنا أودّعها : «جُرْنِي من حين لآخر». (كانت قد فقدت بفقد أسنانها إظهار حرف الزاي منذ أزمان). لكلّ منا، سيدي الحاكم، وقائع مخزية، ينسبها كثير من المغفلين إلى الشيطان، ونتكتّم عليها أسرارا مدفونة لا نكشفها إلا للثقاة، وأنت منهم.

طال بي أرقي. نظرت إلى زوجتي النائمة بحنق وأنا أتساءل عمّا إذا كانت قد فعلت شيئا من هذا مع غيري. لا يبدو عليها ذلك. لكن هل يبدو على الأخريات من اللاّتي فعلن ما فعلن شيء ؟

---

19 - صهريج عميق كان يُعمل بالدور القديمة لحفظ ماء الأمطار.

امتلأ قلبي بالحقد عليها. اشتهيت أن أرفسها برجلي. مالي أغار على امرأتي ولا أرى في نساء الآخرين إلا فرائس قد تسنح يوما للاقتناص ؟

اتجهتُ إلى الناحية الأخرى من الفراش ولعنت جميع الشياطين. لكن وجدتني أفكر في ذلك الذي يدفع جميع الإناث وجميع الذكور إلى الإقبال على العلاقات الجانبية. قلت : «لا بد أنه عندهم هو الذي عندهن. شيء من القلق والضجر والملل ومن الروتين. المزعج أن تكون عارفا قبل الشروع بجميع الأطوار طورا طورا». سرحت مع تذكّر ما كان بيني وبين كاتبتي. امرأة حاذقة ومدرّبة ما في هذا من شك. غير أنيّ أشتم رائحة ما، رائحة مفعمة بشيء من التمثيل.

في الاجتماع الوزاري الذي ترأسه ابن خالتي جعلت أدقق النظر في نظرائي. تأملتهم واحدا واحدا. لم أتبيّن في أيّ منهم وجها حقيقيا صادقا. كانوا قبل دخول ابن خالتي ينظرون إليّ بفضول ظاهر ويتبادلون همسا وفذلكات باردة فيها تلميح للجنس ولأشياء أخرى لم أدرك ما وراءها إلاّ لاحقا. بدا لي أنّ كلاّ منهم يحمل للآخر كثيرا من الضغينة والمقت. ما ابتسم واحد إلا رأيت التكشير يعلو ابتسامته ويشوّهها. دخل ابن خالتي فخيّم صمت ثقيل. أدركت أنهم يهابونه ويكرهونه. قال: «نشرع في العمل. كلّ يضعنا في الصورة». سمعت كلاما يفتقر إلى الدقة والمنهجية والاستقامة. خليط من العربية الفاسدة ومن الألفاظ الأعجمية المكسرة. ليس فيهم من يستطيع أن يتكلم خمس دقائق بطلاقة. كان ابن خالتي يرسم بعض التقييدات مطرقا. جاء دوري فقلت: «وزارتي بصدد التكوين. حديثة النشأة. الوعد الذي فيها لم يدخل بعد حيّز الإنجاز». علّق ابن خالتي بقوله: «خير الكلام ما قل ودل. تساعدونه على الولادة بيسر». أطلق الجميع ضحكة

أحرجتني. ما انتهى السادة الوزراء من استعراض أوضاع وزاراتهم حتى ضاقت أنفاسي. وجدتني أقول لنفسي : «إن يكن هؤلاء وزراء فبئس ما حشرني فيه ابن خالتي. لم أسمع جملة مفيدة واحدة». وتلك الاستعارات الكثيرة المتنوّعة من معجم لعبة كرة القدم ما كان أسمجها على ألسنتهم. أيّ أهداف وأيّ مراوغات وأيّ ضغط وأيّ حسن انتشار ؟ كأننا في معركة وهمية ضد ما لا أعرف من الخصوم الوهميين. لم يحضر وزير الداخلية. نوّب عنه مساعدا بدا لي داهية. لم يزد على أن قال : «السيد الوزير يعتذر. يبلغكم تحياته. الوضع الأمني مستقر. لا شيء يذكر». رأيته يدوّن كثيرا من الملاحظات فأخذني عجب. لا بد أنّه كان يترجم كلام نظرائي التافه إلى معطيات مهمّة. هل كان الكلام تلميحا يتنكّب التصريح ؟

ما كدت أستقر بمكتبي حتى خاطبتني كاتبتي قائلة : «سيادة الوزير الأول يرغب في مقابلته بعد ساعة». أصبحتْ، منذ أول لقاءاتنا الخاصة، تظهر جدية وصرامة واستقامة. لم تعد تكثر من الدخول عليّ. سترت أعلى صدرها بلباس محتشم. أصبحت زينتها خفيفة أخفّ من أن ترى. عطرها وحده ظل هو هو. في آخر كل يوم، بعد الفراغ من جميع الترتيبات، كانت تدخل علي مبتسمة. أبتسم لها فتصبح ابتسامتها أعرض. تغلق الأبواب جميعا. تطفئ الأنوار. ندخل في حوار صامت ليس أحلى وأشهى وأنفع. لم تطلب شيئا. أومأت مرة، من طرف خفي، لابنة أخت لها تحمل دبلومات ولا تحصل على شغل. تلقفت الإشارة. قلت :

«لـديّ صـديـق يـرأس أحـد المراكـز المالـيـة». شـغّلـتـهـا عـنـده . كـان امتنانها فوق التوقع. امرأة حاذقة فعلا وداهية في فنون التستر. قالت لي مرة : «إذا شاهدت الحاجب بمكتبي فاحنق عليّ». زجرتها بمحضره. صحت بها : «إذا كنت عاجزة عن مسك هذا المكتب فغيرك من القادرات ألوف». صارت تمثّل دور المرتبكة الوجلة التي تتوقّع في كلّ لحظة فصلا وشيكا.

قال لي ابن خالتي : «لا تقسُ على الكاتبة. كلّهن مسكينات. امرأة فاضلة قدر المستطاع». ثم ضحك وقال وعينه تغمز من تحت نظاراته السميكة : «أم لديك أخرى ؟». غيّر فجأة الموضوع وقال : «يوم الأحد تتحوّل إلى الولاية الفلانية. تتفقد ممتلكاتنا ومواردنا الطبيعية بها. تعقد اجتماعا شعبيا حاشدا. تشرح فيه بإسهاب هذه المعطيات». وقدم لي ورقة مرقونة وقال : «يصحبك فريق من التلفزة. يعرض عليك أحد الصحافيين نص التغطية التي تظهر في الصحف. لا ترجع إلا في ساعة متقدمة من الليل».

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كنت قد وجدت المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات المرتبطة بمواردنا الطبيعية مفلسة، على معظمها ديون متخلدة لا تصدّق ؟. كلّما محت الدولة ديونا لها على هذه المؤسسة أو تلك عادت إلى الغرق في العجز من جديد. هل الذنب ذنبي إذا كان المعمل الذي لا يحتاج إلى أكثر من خمسين عاملا يُحشر فيه تسعون ممّن لا كفاءة لهم ولا تأهيل أو كان يسهر على تسييره رؤساء لا تؤهلهم سوى القرابة والولاءات. لأيّ شيء يصلح هذا العدد الزائد الذي يرهق المؤسسة ويربك العمل ويعطله ويفسد كل صالح ؟ أيصلح أولئك المسيّرون إلاّ إلى خدمة الذين وضعوهم على تلك المؤسسات ؟ هل الذنب ذنبي إذا كانت هذه المصانع والمعامل والشركات والمؤسسات كثيرة الإنفاق قليلة المداخيل ؟ هل هو ذنبي إذا كانت جميع حساباتها غير دقيقة أو خاطئة وكان الانخرام في موازينها لا يقبله عقل ؟

جمعت شجاعتي وعوّلت على حماية ابن خالتي ورميت بهذه المعطيات السلبية جميعا على الطاولة في الاجتماع الوزاري الذي

أشرف عليه سيادة الرئيس. لم أسع إلى تهذيب عبارتي، رميت بكل شيء كما هو عدا التعريض بالمسئولين طبعا. كنت الصوت الناشز الوحيد في المعزوفة التي كان يردّدها السادة الوزراء. كان السيد الرئيس مطرقا. كان ابن خالتي منهمكا في تسجيل تقييدات لا أعرف ما هي. جفّ ريقي أثناء الكلام أكثر من مرة. شربت أكثر من مرة. تململ زملائي الوزراء. ضحك سيادته وقال : «خذ راحتك. وواصل». وضعت حملي وتنفست الصعداء. خيّم صمت ثقيل لم يقطعه سوى تنحنح خافت كان ينبعث من بعض المستشارين وراءنا يراهم سيادته ولا نراهم. قال سيادته : «والحل ؟». وجدتني أقول تلك الجملة التي لم أفكّر فيها مطلقا. لا أدري أيّ شيطان رمى بها على لساني. قلت : «الخاسر يبيع ». نظر سيادته إلى المستشارين الذين كانوا يجلسون وراءنا في صف واحد يقرأ في عيونهم ما لا ندرك. تململ وقال : «انتهى الاجتماع ». ظللت لا أقدر على القيام.

عندما خرج السيد الرئيس يتبعه ابن خالتي وخلفهما المستشارون جعل نظرائي يستلطفون لي. قال واحد منهم : «تهيّأ لسفارة ما في بعض البلدان النائية أو لرئاسة شرفية لديوان من الدواوين الخاسرة». رفعت قامة المعلم فيّ وانسحبت أدق البلاط أوقّع خطاي على أنغام هزيمة تلعن شجاعة قد لا تخلف إلا الذلّ.

لم أفرغ من رواية ما جرى لرئيس ديواني وهو يبدي السرور حينا والفزع حينا، حتى خاطبني زميلي وزير الفلاحة. قال، بلغة مهذبة، «إنه يعترض على ما ذكرتُ به القطاعات التي كانت تابعة

لوزارته». قال إنّ المعطيات «مغلوطة والأرقام خاطئة وإنه مضطرّ إلى التصحيح لدى مصالح المتابعة بالرئاسة». قلت : «يسرّني أن أكون مخطئا أكثر ممّا لو كنت على صواب». كلّمني وزير الصناعة محتجًّا على ما ذكرتُ به المصانع والمؤسّسات التي كانت من مشمولات وزارته. بدأت أتوتّر. كانت لهجته متعجرفة، حادّة. قال : «منذ متى أصبحت لمعلمي الصبيان دراية بالأرقام ؟». كدت أقول له كلاما قبيحا لكني تماسكت. كان رئيس ديواني متظاهرا بالاشتغال بأمور أخرى. وعندما التقت نظراتنا قلت له : «سنفاجئهم باقتراحات لا تخطر على بال. إلى أيّ حد يمكن أن أعوّل عليك ؟». جعل يومئ برأسه ويبتسم بحمق.

كلمني ابن خالتي فقال : «سيادته يريد اقتراحات عملية. جهّز لنا خطة واضحة». شمّرت عن ساعد العمل. بدت لي الأمور أعقد مما تصوّرتُ. ليس التفريط في المصانع والمعامل والشركات والمؤسسات الخاسرة أفضل من عدم التفريط فيها. المشكل ليس فقط مشكل أرقام نازلة وأرقام صاعدة. المشكل اقتصادي اجتماعي سياسي ثقافي. وإلاّ فكيف يكون مصنع خاص رابحا ليكون مصنع آخر نظيرٌ له حكومي غارقا في الخسارة والدين ؟ الجواب ظاهر. لكن كيف يكون مصنعان متماثلان أحدهما حكومي والآخر خاص فيكونان خاسرين معا ويصمدان ؟ صمود الأول يأتي من تدخّل الدولة، أما صمود الثاني... ؟ لم يعد الجواب الذي كان ظاهرا ظاهرا. أيُعقل أن يستمرّ معمل خاص خاسر إذا كانت خسارته حقيقية ؟ ثمة إذن فساد في الداخل وضغط

من الخارج وألاعيب لم أصل بعد إلى فهمها. المشكل أعقد من أن يكون حضاريا. ألقيت بالقلم جانبا ودعوت كاتبتي. أومأت إليها إيماءة فهمتها فأشارت بأنّ كل شيء على ما أحب. خرجت ترتّب أمورنا. كلّمتُ زوجتي. قلت لها إن السائق يمرّ عليها ليأتيني بما أتقوّت به لأنني قررت أن أبيت في مكتبي. أبدت تذمّرا وقالت: «أرسل لك قميصا وثيابا داخلية». ذكرت تعليماتي للسائق وأمرته بضرورة أن يعود في ساعة حدّدتها له ليوصل الكاتبة إلى بيتها. كان تدبيري يُمْنا في يُمْن انهالت بفضله عليّ الحلول إلهاما من جميع الجهات. كانت الخطة في تقديري محكمة.

لم أدرك سيدي حاكم التحقيق أنني كنت قد وقعتُ وقُضِيَت بي الحاجات الخاصة إلاّ الآن. اتّضحت لديّ اليوم الصورة ناصعة. فعندما أراجع الوقائع واقعة واقعة أنتهي إلى أنهم لم يأتوا بي إلى الوزارة لأني أستحقها أو لأنها تحتاج إليّ أو لأنّ ابن خالتي اعتلى كرسي الوزارة الأولى. كانت لديهم خطة تتطلب رجلا مثلي. لا أستبعد أن يكون ابن خالتي هو الذي أوحى بأن يكون هذا الرجل أنا فهو يعرفني منذ الصغر. لم يكن نظرائي أولئك الوزراء أغبياء أو تافهين حمقى فقط مثلما كنت قد تصورت. كانت وراء كل منهم قوّة تنتفع منه وتسنده. قوّة خارجية أكثر منها داخلية، فقوى الداخل لا يأبه بها أحد. ثم إنّ شؤون الدّاخل تُفصّل وتُخيّط دائما في الخارج. ليس لنا إلاّ أن نلبس الكساء سواء أضاق أم قصر. كانوا إذن مفروضين على الجميع يتلقّون التعليمات معلّبة من وراء الحدود. كلّ شيء يتمّ التفاوض فيه سرّا في المكاتب الموصدة. أمّا الاجتماعات والمجالس الوزارية والتصريحات والتحقيقات الصحافية والمقالات فتغليف محلّي لبضاعة جاهزة انقضت آجال استهلاكها. اللعبة

كانت كبيرة، أكبر من أن يلعبها وحده رجل مثلي كان معلّم صبيان. أدركت، سيدي الحاكم، أنني دعيت لأن أكون بهلوانا لا غير، مجرد تيّاس من تيّاسي عهدنا الباعث على القرف. لكنني كمعظم البهلوانيين ومعظم التيّاسة ظننت الأمر جدا.

قال لي ابن خالتي في مكتبه : «الذي ترضي عنه أمّنا يرضى عنه أبونا». قلت : «من أمّنا ؟». قال متأففا : «تتبَالهُ عليّ كعهدي بك منذ الصغر ؟». قلت : «أقسم لك أني لا أعرف». قال : «السيدة الأولى». قلت : «ما أبشع ما صنعتم حين جعلتموها أمّا. أفرَس كهـ...». قال مقاطعا : «ما أقل فهمك ! مجاز... مجاز لا ترقى إليه مداركك». أبديت تحمّسا وقلت : «كيف أكسب مقدار ذرة من رضاها ؟». قال : «تأتي معي الليلة إلى سهرة عائلية». قلت : «أصحب زوجتي ؟». صاح : «إياك ثم إياك. أتركها في عماها وإلا هلكتَ». قلت : «أيّ الهدايا أشتري ؟». نهض واقفا وقال : «أين تظنّ نفسك يا حضرة الوزير ؟ ما زلت تحمل عقلية الرّعاع. للحياة في الأعالي ناموس آخر. اخلع عنك أزياء التخلف. هناك حتى الهواء يتغير».

أوصلني السائق إلى بيت ابن خالتي وصرفته. جاءت زوجته مُسَلّمة. تفحّصتني مليا وقالت : «ألتحق بكما». وتحوّلنا إلى القصر. قال ابن خالتي : «أرني كيف تتصرّف. لن أنوّرك بشيء». وجدنا ثُلّة من الوزراء تصحبهم زوجاتهم جاءوا إلى زيارة السيدة الأولى. قدّمني ابن خالتي. سلّمَتْ دون أن تصافح. كان في نيتي أن أكبّ على يدها مقبّلا، فوفّرت عليّ بتعاليها ما كنت قد نويتُ غير متأفف. قالت تخاطب ابن خالتي : «لا تبدو عليه هيئة المعلمين. يبدو في مستوى

المهام التي يتقلد». سرّني كلامها المبطّن بازدراء الصنف الرفيع الشقيّ الذي انسلخت عنه لأحلّق في الأعالي الشاهقة. نظرتْ إليّ بتعال توجّستُ منه شرّا وانصرفتْ إلى ضيوفها تلاطفهم واحدا واحدا. داهمتني فجأة مشاعر الانقباض. لم يقترب منيّ أحد. حتى موزّع المشروبات والحلويات والشكولاطة الفاخرة لم يكن يصل إليّ إلاّ بعد المرور على جميع الحاضرين. تلهّيت، مداراة لضيقي، بالتفرّج على نساء زملائي الوزراء. لم يكنّ أجمل أو أبهى من زوجتي. لو وضعَتْ ماكياجا متقنا وسرّحت شعرها وصبغته ولبست ثيابا رفيعة لعلتهن جميعا. بدا لي كلّ شيء فيهنّ مصطنعا مبتذلا من أدنى طراز إلى أرفعه ذوقا ونوعا.

شعرتُ بيد تلمسني من منكبي فالتفتت مذعورا. كانت امرأة وسطا تبتسم متألقة في جمال اصطناعي باهر. قالت: «تعالى معي». توجّستُ خيفة وتبعتها. دخلت بي إلى غرفة شاسعة باهتة الإنارة اخترقناها إلى غرفة جانبية حسنة التأثيث جلست فيها امرأة مسنّة متدثّرة ببعض الأغطية الحريرية تتصدّر في كرسيّ مريح مجموعة من العجائز المتأنّقات. قالت السيدة التي رافقتني تخاطبهن: «أتيتكن بما تشتهين». سلّمتُ فمُدّت لي راحاتٌ معروقة مرصّعة بالخواتم البرّاقة انكببتُ لتقبيلها وقلت: «ألف سلام عليكن يا حاجّات». تأملتني عيون غائرة ذابلة تشع وقاحة طويلا. قالت مرافقتي: «اشتهين سماع أنشودة «ديكي ديكي» كاملة. لم نعثر على من يحسن حفظها». قلت: «أسمعهن إياها إذا رغبن». قرّبتْ كرسيا من مجلس العجوز وانصرفت. استظهرتُ الأنشودة ألفاظا مرة وألفاظا موقّعة مرة. انبسطت العجائز. همهمن كلاما لم أفهمه

فعدت أنشد مرة ثالثة. أشارت لي عجوز الصدارة بيدها تستوقفني وقالت : «أغنية مدرستي». غنّيتها بإيقاعين مختلفين فعَلا وجوهَهن انبساط كبير. قالت العجوز : «أغنية عاد أبي للدار». فغنّيتها. جاءت السيدة التي رافقتني تتفقّدنا فسرّت سرورا عظيما بانبساط المجلس. قالت : «ما رأيكن فيه». قالت عجوز الصدارة : «هشوش». استأذنتُ في الانصراف. قبّلت الراحات المعروقة المرصّعة بالخواتم مرّة أخرى، فعصرت كلّها على أناملي ممتنّة. خرجت إلى قاعة الاستقبال وأنا أقول لنفسي : «عندما كنتَ معلما كنت تعلم الصبيان وعندما أصبحت وزيرا صرت تغني للعجائز الحيزبونات».

وجدت ابن خالتي في حديث هامس مع سيادته. لم أجرؤ على الاقتراب. لاحظت أنّ سيادته يرتدي لباسا أقرب إلى لباس الشبان. أسرع إليّ أحد السّعاة بعصير وحلويات. اقتربت مني زوجة ابن خالتي، كانت متألقة، وقالت : «لم تقل لي كيف وجدت الوزارة». قلت وأنا أشير إلى العصير في يدي «منعشة». ضحكت عاليا وقالت : «إياك أن تغرق فيه». اقتربت السيدة الأولى وقالت : «أمّا الغرق فلن يغرق. سبّاح ماهر. لقطة كما يقول المصريون». رأيت شبها كبيرا بين المرأتين. بدأت حرارتي ترتفع. بدأت أتساءل عن موعد الانصراف. مرّ ابن خالتي قريبا فهمست له برغبتي. أشار بيده أن انتظر. طال انتظاري. رأيت بعض المدعوين ينصرفون فاقتربت من الباب. جاءت السيدة الأولى تودّعهم فاعتبرتني واحدا منهم. همست لي : «سيادته يعوّل عليك كثيرا. أريدك ماهرا في شؤون الوزارة... مهارتك في الغناء». ضحكتْ عاليا وهي تلوّح بيدها وتقول : «باي».

حبّرت تقريرا في مهام وزارتي وطرائق عملها وفي ما ينبغي القيام به من إجراءات رفعته إلى المقام السّامي. استندت إلى المعطيات الرقمية المتوفّرة في الوزارة الأولى للوصول إلى أنّ «الحل الذي يبدو جديرا بالعناية والتدبّر هو التفريط في جميع المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات الخاسرة والمثقلة بالديون». رأيت في هذا الحلّ، وكان قد همس لي به رئيس ديواني وزيّنته تقارير انكببت على دراستها، قضاء نهائيا على وزارتي فلعنته ولعنتها في سرّي. شعرت بالانقباض فقد بدأت آلف وزارتي وأعطف عليها، خاصة أني لم أشرع في العمل بعد. لكن سرّى عني أنّ الوزراء كثيرا ما يُنْقَلون من وزارة إلى أخرى نقلا لا يبرّره شيء، كأن يصبح وزير التربية وزيرا للدفاع ووزير الدفاع وزيرا للثقافة والترفيه ووزير الصحة وزيرا للداخلية ووزير الشؤون الاجتماعية وزيرا للعدل ووزير المالية وزيرا للرياضة والطفولة. شبّهت السادة الوزراء بالبيادق في رقعة الشطرنج يُنقلون من مربّع إلى مربّع. المهمّ أن يظلّ المرء في الرقعة بعيدا عن ضربة ملكة أو رخّ أو ركلة حصان.

عرضتُ التقرير قبل رفعه للمقام السّامي على ابن خالتي. استمع إلي قليلا ثم قال : «هات الخاتمة». قرأتها عليه. لم يعلّق. أمر بإرساله في الحين. قلت : «ما المصير الذي تتوقّعه له ؟». قال : «اطمئن. لن يصل إلى سيادته إلاّ بعد أن يُقتل درسا وتتراكم عليه التعاليق». ثم شرد بعيدا لحظة وقال : «المشكل ليس في التفريط. أصحابنا نصَحُوا لنا به قبلك. المشكل في من سيقوم به». قلت : «المصالح المختصة بوزارة المالية». قال : «الوزارات مستقلّ بعضها عن بعض. الوزير هو المسؤول عن القرارات التي اتّخذ ولم يتّخذ. المسؤولية لا تسقط بالتّقادم». لم أفهم ولكن جفّ ريقي. أنا لم أبع في حياتي شيئا غير الكلام. بعته للذين يفهمون والذين لا يفهمون. هل تراني قادرا على بيع المصانع والمعامل والشركات والمؤسسات الحكومية. كنت قد فهمت أنّ وراء كل وزير قروشا ضارية تسنده ما قدر على إشباعها. بدأ يدخل في ذهني أنّ اللجوء إليّ لم يتمّ إلاّ بدافع الخوف من أن تهجم القروش بعضها على بعض إذا ما هيّجها دم يسيل غزيرا. طردت الخاطر من ذهني. قلت : «هذه دولة. والدولة لا يعجزها شيء». كان غبائي مورِّطا أما ذكائي فكان غير نافع.

هل الذّنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان التفريط في ممتلكات الدولة يضبطه حبر كثير. حبر تُنسخ به القوانين ومنها ما ينسخ بعضه بعضا، ويُرجع به إلى القرارات والأوامر والمناشير ومحاضر الاجتماعات والجلسات والقياس على الوضعيات المشابهة. شيء ينشّف الرّيق. أمّا إذا انتقلنا إلى الشّروط المعلنة والآجال المحدّدة واحترام السرية المطلقة فإنّ العملية تصبح لا غبار عليها. ومن أين يتسرّب الغبار واللجان وراء اللجان تعقد جلساتها المغلقة في المكاتب المغلقة وراء بوّابات وزارتي المغلقة. فإذا حلّ اليو م المنتظر ذاب الحبر كله في الماء واتّضح أنّ جميع الأقفال بجميع الأبواب لم تكن تغلق. هل الذّنب ذنبي إذا كان لكلّ أمر يتمّ في بلادنا وجهان. وجه ظاهر لا أفضل منه ولا أضمَن للحقوق جميعا. ووجه خفيّ به كدمات وخدوش وجراح وتشويه. لا أشكّ في أنك، من موقعك، تعرف الوجهين جميعا. فهل بوسعي أن أضيف إلى علمك شيئا ؟

سألت رئيس ديواني عن شروط التفريط في المصانع التي قرّرت الحكومة بعد دراسات للجدوى معمّقة أن تفرّط فيها فقال :

«كلّ شيء مقنّن مضبـوط أحكمَ تقنـين وضبط». ظللت ساكتا فقال : «المشكل أنّ الانتقال من النصوص إلى تطبيقها لا يُبقي إلاّ مجالا ضئيلا للتقيّد بروحها». أمرته بأن يحيطني علما بكلّ كبيرة وصغيرة حتى نحتاط قدر الإمكان عند مواجهة المؤسسات العملاقة. كنت قد رأيت أن نبدأ ببعض المصانع الصغرى على سبيل التجريب وجس النبض.

يبدو أنّ امرأتي قد توجّست شيئا من كثير تأخري، فما إن عدت إلى البيت في إحدى الليالي باكرا حتى أبدت سرورا عظيما. كانت، ونحن في الصالة، تكثر من التودد والاقتراب مني. ضانكتني في المقعد الجديد الذي اشترته لي وسمّته «كرسي الوزير» مانعة أيّا كان من الجلوس عليه. كادت، على طاولة الطعام، تضع اللقم في فمي وهي تقول : «ذق من هذا الصنف. لا بدّ من أن تذوق منه. صنعته بيدي خصّيصا لك. ألا ترى أنك قد ضمرت. بدأت أفكّر في أن أرسل لك مأكلك إلى الوزارة. أطعمة المطاعم ليست بأطعمة». وعندما اندسسنا في الفراش استعدادا للنوم قالت : «ما انتظرتك وطال انتظاري حتى غلبني النوم إلاّ لعنت الوزارة. ماذا سنربح منها إذا كان كلانا سيظل بعيدا عن الآخر ؟». تدَحْنَسَتْ [20] عليّ وهي تقول بدلالها القديم : «شغلتك عني المرأة الأخرى ؟». فزعت قائلا : «أيّة امرأة ؟». ضحكت بمزيد من الغنج وقالت : «ضرّتي الوزارة». لبستُ عباءة الوزير وقلت بفخامة : «الأمور صعبة في بداياتها. تحتاج إلى يقظة ومتابعة. ما

20 - تودد بحركات من الجسد.

هي إلاّ أشهر وتستوي». قالت : «وهل أقدر على الصبر أشهرا أخرى ؟». التصقت بي فشعرت نحوها بكثير من الاشمئزاز. كلّ شيء أصبح فيها مترهّلا. عابثتها مرة، عندما كانت أحسن حالا ممّا هي عليه الآن، بأنّ ذلك الشيء فيها صار يحتاج إلى مكواة فغضبت وبكت. لم ترض إلاّ بعد جهد. أمّا الآن فقد أصبح ترهّلها يزعجني. كنت أرتاح لليونة لحمها فصرت أتضايق منه. ترمي بيدها على صدري فأشعر بالاختناق. يلامس فخذها فخذي فأشعر بلحمها يسيح على جلدي فيعصر القرف بقسوة على معدتي ويداهمني الغثيان. اجتهدتْ في أن تستثير فيّ ساكنا فلم توفّق. قالت متنهدة : «يظهر أن المسؤولية تقتل العنفوان». قلت : «أشعر بانحراف في مزاجي منذ مدّة. شدّة القلق تستنزفني». قامت لتضع لباسا خفيفا فانتبهت لوركها يمتلئ بالحفر العميقة. رأيت في الحفر ظلالا من انعكاس الضوء. فزعت. أكتِبَ عليّ أن أقضي بقيّة عمري مع هذه المرأة التي خلُق فيها كل شيء. لو كان فيها شيء آخر يمتع غير الجسد هان الأمر وتصبّرتُ. عادت إليّ بأريحية نادرة وقالت، وهي تندس فيّ فأبتعد عنها، : «يكفيني أن أشعر بك إلى جانبي». جعل خيال كاتبتي يتراقص بين ناظريّ حتى أخذني النوم.

وجدت في مكتب كاتبتي امرأة أخرى. ذهب في ظنيّ أنيّ أخطأت الباب. تأكّدت من أني لم أخطئ. قلت لها: «من أنت ؟». قالت: «كاتبتك الجديدة، سيدي الوزير». أمرتها بأن تطلب رئيس ديواني. صحت به: «ما هذا الذي يجري هنا ؟». قال: «يلزمكم سيدي كاتبتان. واحدة للصباح وواحدة لما بعد الظهر. اختارت الكاتبة الأولى أن تعمل في المساء». صحت فيه: «ينبغي أن أستشار. أنا المسؤول هنا. وهذه من جاء بها ؟». لم يجب. بقيت منفعلا من تصرّف الآخرين في ما أعتبره من خاص مهامي. هممت بصرفه فقال: «أشعرتنا الخارجية بأنّ سفير دولة عظمى ينوي زيارتنا. يرغب في تحديد موعد». سألتُ عن دولته وقلت: «عيّنوا له أيّ تاريخ لا يتقاطع مع نشاطاتي». كنت أعتقد أنها زيارة مجاملة.

حاولت أن أشتغل فلم أستطع. ظللت مهموما بما بدا لي استخفافا بي في جليل مقامي. دخلتْ عليّ الكاتبة الجديدة مرّات تعرض ملفات. تأمّلتها فإذا بها تختلف اختلافا كبيرا عن الكاتبة

الأولى. نساؤنا، سيدي الحاكم، خلاصة سُلافة تحدّرت من جميع السّلالات التي أرسلت علينا شرورها من آلاف القرون. فيهن جميعا يجتمع وجودنا الهجين مزوّرا بالتنوّع في أرض تعجّ بالمتناقضات. لئن كان صدر كاتبتي الجديدة ضامرا فإن وسطها رحب. الغريب أنّ عدم التناسق هذا قد خلق فيها تناسقا آخر. كان خصرها ضيقا جدا. كان شعرها الفاحم المرسل يشع بالأضواء صحّة. لباسها غاية في الاحتشام. ليس عليها زينة. استرعت انتباهي بطريقة سيرها. في حركاتها إيقاع ظاهر. تمشي كمن يدفع الهواء بكامل جسده دفعا. واجهتني لتضع أمامي ملفا مفتوحا فتأمّلت وجهها. كان جذّاب السّمرة حسن التّقاسيم. بدت لي أصغر بكثير من الكاتبة الأولى. لم أبد لها اهتماما. لم أسألها عن اسمها. لصوتها في الهاتف جاذبية بحّة خلفية مكتومة. ذكّرتني، بنبرة محايدة، بحفل التكريم الذي أصرّت شعبة الحيّ الذي أقطن به على إقامته لي بالتعاون مع لجنة التّنسيق الحزبي. قلت في نفسي : «ذهب بعيدا ذلك الزمن الذي كنت فيه لا أطالع الجرائد ولا استمع إلى شريط الأخبار ولا أذكر الدولة وأهلها إلا بالشتيمة». أصبحت عضوا في الحزب الحاكم إذ أصبحت عضوا في الحكومة.

تركتُ الوزارة باكرا قبل أن تأتي كاتبتي القديمة. كنت واجدا عليها. الذي بيني وبينها يحتّم عليها إعلامي بهذا الذي يجري في وزارتي ولا أستشار فيه. قلت للكاتبة الجديدة : «أرسلوا لي باقي الملفات إلى البيت». أبدت زوجتي سرورا بمقدمي. لكني صرفتها

بحجّة أني أحتاج إلى قليل من الراحة. لم تناقش، كانت على بيّنة من مدى حاجتي إلى أن أرتاح.

كان حفل التكريم مسرحية من النوع البذيء. أشبه ما يكون بالمهزلة. تُليتْ فيه الخطب التّافهة. صُنعت لي ترجمة شخصية أكبر من التي صحبت الإعلان عن تعييني بهذا المنصب، ليس فيها من الحروف الصادقة إلا النزر القليل. طلِبَ منيّ أن أقول كلمة فأطنبت بطلاقة المعلّمين في التنويه بعظيم حكمة سيادته، بالعبقرية العملية التي خصّه الله بها. عرّجتُ على ثقته الغالية في شخصي المتواضع فارتقيت بها إلى مجابهة الصّعاب. لم أغفل عن السّاهرين بهدي من سيادته على سعادة الأمة فخصصتُ بالذّكر أعضاء لجنة التنسيق وهيئة شعبة الحي. تأثّرتُ بكلامي حتى صرت أصدّق بجميع ما قلته فيه. وعندما انتقلنا إلى المشروبات والحلويات وجدتني وجها لوجه مع أشخاص كنت ألعنهم في سري كلّما صادفتهم وكانوا يحصون عليّ الأنفاس. كنا نسمّيهم «كلاب الحيّ». لم أجد بُدّا من مجاملتهم بالثناء على يقظتهم المتفانية في السهر على الوطن المفدّى. قالوا لي: «إن الحي قد ارتفع قدره وشرف». كانت الهديّة التي قُدّمت لي سخيفة تافهة. غير أنّ زوجتي قد سرّت بها سرورا عظيما وعلّقتها في مكان بارز بقاعة الاستقبال.

كلّمني ابن خالتي في البيت ليقول لي: «ينبغي أن تكتب للصحافة كلاما تشيد فيه بالسياسة الحكيمة التي تنتهجها الحكومة للخروج إلى فضاءات الدول المتقدمة». أومأت لزوجتي بأن تبتعد

فأسرار الدولة من حقها أن تُكتم حتى على الزوجات. صحت به: «ما هذه التصرّفات في أعوان مكتبي؟». قال: «مُرّ عليّ غدا نشرب قهوة الصباح على انفراد». وأغلق الخط. شرعت عندما لاقيته في الاحتجاج فقال: «امرأة من قرابات أمّنا «الفرَس» (وأطلق ضحكة خبيثة تصنّع إثرها جدّا) «تريد أن تطمئن عليها لديك. أفي مثل هذا التشريف ما يخدش الكبرياء؟ لولا ثقتها فيك ما أرسلتها لك». شرقت بقهوتي فداويتها بجرعة ماء.

جاءني السيد سفير الدولة العظمى زائرا. لفت نظري طول قامته وفساد ذوقه. كان غريب الهندام. استغربت أن يلبس هذا الدبلوماسي حذاء من النّوع الذي يحشر فيه قدميه حشرا. حذاء خشن سميك ثقيل. رأيت كلّ ما فيه متنافرا يجرح الذوق. حتى ربطة العنق التي يبدو أنه وضعها للمناسبة كانت عتيقة تفزع بلونها الشعشعاني من قاتم ألوان ملابسه المتناطحة. قال مشيرا إلى ما لم يصلني بَعْدُ خبرُه : «نحن نأسف فعلا. لكن ينبغي أن تعلموا أنّ خصومنا كثيرون. أيّ واقعة مهما تكن بسيطة تحدث خدشا في هيبتنا». (علمت لاحقا أنّ مشادّة صغيرة حصلت بين أعوان الأمن الذين كانوا يرافقونه وأعوان أمن الوزارة. أصرّ مرافقوه على أن يدخلوا معه إلى باب مكتبي. أصرّ أعواننا الأشاوس على أنّ حرم الوزارة حرام على أيّ عون أجنبي مسلّح. رفع أعواننا أصواتهم بأنّ هذه وزارة أولى رمز السيادة والاستقلال. انتهت المشادة بإذعان أعواننا الميامين عندما هدّد كبير الأغراب بإلغاء الزيارة لأسباب أمنية). جعل يهنئني بالمهام العظيمة التي أتقلّد ويؤكّد أني

الرجل المناسب لهذا المنصب الحسّاس، ثم قال : «نحن نُسْدِي النّصائح لأصحابنا. إذا عملوا بها ساعدناهم، وإذا ردّوها علينا تمنّينا لهم النّجاح. لا بدّ أنكم ترون مثلما نرى أنّ الشر يندحر يوما بعد يوم. ها هي السعادة قادمة للجميع». عرّج في حديث طويل عن اختيارات خاطئة غير ديمقراطية انساقت فيها دول كثيرة وقال : «حذّرناهم واحدا واحدا. كانوا لا يسمعون. وعندما بان الحق هرعوا إلينا مستنجدين. نحن ليس عندنا حقد. هم الذين خسروا عقودا كثيرة ذهبت هدرا». ثم جعل يتحدّث عن العلاقات الطيّبة التي تربط بين بلدينا وقال : «نحن نكنّ لكم حبا كبيرا. وعلاقات المحبة أقوى من جميع العلاقات». ضاقت خواطري من لغته المكسرة فاختطفت منه حبل الكلام وقلت : «أنتم دولة عظمى ما في هذا شك. وللصغير على الكبير حقّ الاسترشاد والمساعدة. وفضلكم على العالم لا ينكره إلاّ جاحد». ضحك مقاطعا وقال : «في أمثالكم الشعبية مثل أحبّه كثيرا. أنتم تقولون «علّمه الصيد ولا تصطد له»[21]. ونحن نطبّق هذا المثل في علاقاتنا بأحبابنا. مساعدتنا لأحبابنا تكون بالفكرة». بدأ اللقاء يثقل عليّ فسوق الأفكار كاسدة عندنا منذ أكثر من ألف عام. سألته عن الحال في بلده فقال : «سيدعوكم نظيركم لزيارة قريبة. وسنكون سعداء باستقبال رجل عظيم مثلكم. فهذه الوزارة إنشاء حكيم واختياركم على رأسها قرار شجاع صائب». بدأت أتساءل عمّا إذا كان هذا السفير سليما في مداركه العقلية عندما قال : «سيزوركم مساعدي

21 – ليس هو من أمثلتنا.

الأوّل وهو خبير في الموارد الطبيعية. يقدّم لكم جملة من النصائح تساعدكم كثيرا في تحقيق نجاح باهر. ونحن يهمّنا نجاحكم لأنه يصبح مثلا تقتدي به دول صديقة كثيرة. لو كان أسلافكم بالحكومة قد سمعوا منا كنتم ربحتم سنوات من التقدم كثيرة». نظرت في ساعتي فنظر في ساعته وقال : «يا الله كما تقولون. إن الحديث معكم شيّق ومفيد. تعرفون أني تجاوزت الوقت دون أن أشعر». وهبّ واقفا للانصراف. لا أدري كيف سقطت وردة من الوردات التي اقترح رئيس ديواني أن تكون على منضدة الصالون أمامنا، وإذا بحذائه الخشنة تدوسها في غفلة مني ومنه. أوصلته إلى باب الوزارة. كنّا محفوفين بأعوان أمنه. وعندما عدت نظرت إلى الوردة بأسف. كانت نعله قد سحقتها سحقا رغم نعومة البساط الذي سقطت عليه. دعوت الكاتبة الجديدة وقلت وسبابتي تشير إلى الوردة المدهوسة : «ارفعي هذه الجثة». ظلّت لا تفهم تبحث عن شيء ما فأومأت لها بأن تنصرف.

هل الذّنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان بلدنا يقع، من أقدم عهود التاريخ، في صميم أطماع الدول. ما من دولة، في القديم أو الحديث، كان لها في الغزو شأن إلاّ رمت علينا شرّها. كان الغازي يطرد من أرضنا الغازي ويجثم في الموضع الذي كان فيه. يجلس مادًّا رجليه في القصور نفسها والبيوت نفسها والفرش نفسها، وربما تبطّن الحسان أنفسهن. فينيقيون ورومان وعرب وأعراب ومغاربة وأسبان وأتراك وفرنسيون كان بعضهم يهجم على بعض بأرضنا المسالمة فيفتك به ويقع من هواها في أسر عظيم. أسر الهوى، سيدي الحاكم، غلاّب. ليس لبلادنا المغتصبة على مدى التاريخ إلا مفاتنها تعرضها مثل عاهر على بغاة الغزاة فيستنزفونها، يستنزفونها إلى آخر رمق وتتجدّد. لا تنجب المغتصبة إلا المسوخ والمشوّهين. هل أبشع في البشاعة ممّن ضانك أخاه على حنان أمّه فأصبح عند الاندحار واليأس قوّادا عليها يستدرج لها زناة الليل وفسّاق النهار. دلّني على فضلائنا الشّرفاء أدلّك على مساوماتهم واحدا واحدا على مفاتن بلادنا ينعتونها، في أيّ مكان، لكلّ جبّار

عتيّ وكلّ ذي قوة ويقولون له : «خلّصها من الوحش الجاثم على صدرها وردّها علينا مقابل استمتاع بها حلال لك أيّاما معدودات». تصبح الأيام دهورا. ما أشبه الليلة بالبارحة سيدي الحاكم. كلّ على كلّ نخّاس، وكلّ على كلّ من قهر إلى ذلّ ومن ذلّ إلى قهر. أما لهذه المهانات المتعاقبة من نهاية ؟

ما كاد سفير الدولة العظمى ينصرف لأفرغ لمداواة المغص الذي خلّفه فيّ كلامُه بقليل من الأسبرين وكثير من المياه الغازية استعدادا لتدبيج التقرير الذي ينبغي أن أرفعه إلى المقام السامي موشّى بأصناف الأكاذيب حتى خاطبني رئيس ديواني قائلا : «أشعرتنا المصالح المختصّة بالخارجية بأنّ سفير دولة صديقة صديقة يرغب في أداء زيارة. هو جاهز لأن يأتي الآن لأنّه مدعوّ إلى التحوّل إلى بلده بعد سويعات». قلت : «وأنا أيضا جاهز. جاهز له ولغيره مهما يكن العدد، أمّن له بالإعلام الطريق». لم أفطن إلى أنّ كلامي قد أصابته لكنة الوزراء إلاّ بعد الفراغ من الجهر به. دعوت الكاتبة. أمرتها بأن تغير من هواء المكتب. رأيتها تعود ببخاخة من عطرها لتشرع في رشّ الأريج فصحت : «ليس هذا. لم يأت وقته بعد». واتّجهت إلى الحمّام.

كان سفير الدولة الصديقة غاية في الدماثة واللطف. ما إن وصل واستقبلته بتفتيح الأبواب على مصاريعها حتى قال وهو يغمز بعينه : «جئتكم يغمرني إحساس عميق بأني ذاهب إلى لقاء صديق حميم قديم. صَرَفتُ السائق عند الإشارة فأنا كما ترون في بلدي الثاني». وضحك مشيرا إلى كيس لطيف كان يحمله دونما

تحرّج. كان التّلميح لما حصل مع حرّاس السفير الآخر صارخا. أعجبتني أناقته. أخِذتُ بما فيها من بساطة وذوق. طربت لفصاحته فحاولت أن أجاريه فيها بخبرة قدماء المعلمين. فطن لخوفي من اللّحن فجعل يثني على بلاغتي. قال : «نحن ورثة حضارات عريقة. لسنا كمن ليس لهم تاريخ. لم نولد بالأمس على ظهر حصان من فولاذ. القيم الإنسانية العظيمة ورثناها أبا عن جد، نحملها اعتقادا، ليس كمن يتخيّلها تجميعا للمال». انسجمنا. صرنا نتكلّم لسانا واحدا. قلت : «لو كان الأمر كما يتوهّمون كان بعض الأوباش ممّن يحصلون، كل عام، على أضعاف وزنهم ذهبا أفضل الناس». انتصب واقفا وقال : «أنحني إجلالا لهذه الحكمة». ثم التفت إلى كيسه قائلا : «تسمح لي سيادتكم بتقديم هدية رمزية من أخ يعزّكم كثيرا» وقدّم لي طردين ملفوفين لفّا جميلا. فتحتهما فإذا في أحدهما الجزء الأول من إحدى الموسوعات في تجليد فخم، وإذا في الآخر كتاب سميك عنوانه «مواردنا الطبيعية في خطر. الاختيارات الخرقاء تسارع بالبشرية نحو الفناء». تأمّلني وأنا أنظر في الكتابين وقال : «تصلكم الأجزاء الأخرى غدا». صافحته شاكرا. عدنا إلى الجلوس فدخل في كلام طويل ركّز فيه على أنّ بعض الناس يعتقدون أن التقدّم يكمن في التنمية الماديّة وحدها. قال : «يتعاملون مع أجهزة الدولة ومع الآخرين تعامل صغار التجار. قد جرّبنا التراكم المادي فغرقنا في الاستعمار ودمّر بعضنا بعضا. الذي توصِلُ إليه هذه الطريق قد خبرناه. ليس أجدى ولا أنفع من مراكمة الرّمزي من رؤوس الأموال. وممّا فيه أنّ الخبزة نتقاسمها حتى تصبح كعكة ونتقاسم الكعكة الصغيرة حتى

تصبح كبيرة، فإذا كبرت وكبرت أخذ كلّ منها حسب حاجته». تهت في الكعك حتى سمعته يقول بما يشبه الهمس: «تلك هي مثلا حال الموارد الطبيعية. الهواء مشترك والماء مشترك وسطح الأرض مشترك وما في جوفها مشترك. لا للاشتراك إلاّ في أجواف النساء. لم يحن وقته بعد». وأطلق ضحكة مجلجلة. وظلّ يغمز بعينه فظللت أنظر إليه باندهاش. سكت قليلا وقال: «والذي فيه أنّ التفريط كيّ كآخر دواء. قبل الوصول إلى الكيّ نجرّب الوسائل غير المباشرة وسيلة وسيلة. بعض الناس يريد أن يقنعنا بأنّ أول العلاج كيٌّ. ما أشدّ خرقهم». شعرت نحوه بكثير من الارتياح. خيّل إليّ أني أعرفه من زمان. هممت بإيصاله إلى البوابة الخارجية فامتنع وأصرّ. كان يمسك بيدي ويعصر عليها بودّ. قال وهو يودّعني: «السفارة مفتوحة لكم في كلّ وقت. سيكون شرفا عظيما» وقرّب مني وجهه وهمس: «أفلاك الكؤوس لا تقتحمها الأحزان كما قال شاعركم العظيم».

كنت منتشيا باللقاء الذي جمعني بسفير هذه الدولة الصديقة الصديقة عندما كلّمني ابن خالتي. قال: «كلّمتك مرتين فقيل لي عندك استقبالات من الوزن الثقيل». قلت: «واحد خفيف والآخر ثقيل». قال: «سحرك ذلك المخنّث السّفيه دون شك. لا تصدّق من جميع ما قاله حرفا واحدا». قلت: «بدا لي كلامه عين الحق». قال: «لا حق ولا باطل. انس جميع ما سمعت منه. أمّا زائرك الأول فنحن في انتظار التقرير. على كلّ لم أطلبك في هذا. ستسافر بعد يومين إلى إسبانيا لتشارك في المؤتمر العالمي الذي ينعقد حول مشكلة «الشحّ المائي». كان من المقرّر أن يشارك فيه وزير الفلاحة.

عندما تكوّنت وزارتك صرت أولى منه بالسفر. ترسل إلينا تقرير المقابلة مع سفير الدولة العظمى قبل الذهاب». بدأت أستعدّ لقضاء يوم كامل في هذا المكتب بهذه الوزارة.

جاءتني الكاتبة بالملف الذي أحالته إلينا وزارة الفلاحة وبمجموعة من الوثائق. تلهّيت بالنظر فيه فإذا بالدّاء قد أصبح عضالا. تؤكّد الدراسات المستقبلية جازمة أننا سنموت عطشا بعد بضعة أعوام. أرجعتِ الأسباب إلى شحّ السماء وكثرة التبذير وارتفاع الحاجة. شحّ السماء مرتبط بتخريب البيئة وتلويثها. وارتفاع الحاجة مرتبط بارتقاء نوعية الحياة وتزايد السكان. والتبذير مرتبط بالعقليات. يدعو منظّمو المؤتمر الدول المشاركة إلى أن تذكر التدابير العاجلة التي اتخذتها والمخططات الآجلة التي وضعتها لمقاومة هذه الآفة. بحثت عن تدابيرنا ومخططاتنا فلم أعثر على شيء. قلّبت الملف ورقة ورقة فصادفت فيه فقرات منسوخة حرفيا بخط رديء من مقالة صِحفية قديمة تحدثت في الموضوع. نظرت في المقال فتذكّرت دروس مادة الوسط التي كنت ألقيها على تلاميذي. بعثت السائق في طلبها. كلمتني زوجتي مرتاعة. ظنّت أني، بعد الوزارة وعزها، قد عدت إلى «المحفظة الخرج». بحثت في أوراقي فعثرت على ضالتي. كتبت : «التصدّي لكلّ قطرة ماء تنزل من السماء بالحاجز وراء الحاجز إلى أن تغيب في بطن الأرض ادّخارا قبل أن يغيّبها البحر هدرا. ترشيد الاستهلاك عن طريق التوعية. إلزام المصانع والفنادق وورش غسيل السيارات باستعمال المياه المالحة. استنباط طرق جديدة لتوفير الماء العذب». فكّرت فلم أر حكومتنا الرشيدة اتخذت إلاّ تدبيرا واحدا

هو الترفيع المستمر في سعر الماء. كان الحل رديئا فالذين يبذّرون الماء لا يزعجهم ارتفاع سعره.

دبّجت خطبة معلميّة عصماء قررتُ أن يدوّي بها صوت بلدي عاليا في ذلك المحفل الدولي. بدأتها مسفّها دراويش السّوء من متشائمي الباحثين في المستقبل فذكّرت بأنّ مشكل الماء مزمن في منطقتنا قديم قدم الإنسان فيها. استدللت على ذلك بالصهريج الروماني والفسقيات العربية وبدعائنا للميت بأن يسقي الله ثراه ويروي عظامه. عرّجت على السدود العظيمة والبحيرات الجبلية ونصب الشباك للضباب وانتهيت إلى ضرورة أن تتعاون البشرية متضامنة على مدّ القنوات العملاقة من المناطق التي يكثر فيها الماء إلى المناطق التي يندر فيها ويشحّ. كنت منتشيا عندما كلّمني ابن خالتي مذكرا بأمرين : أحدهما التقرير عن زيارة سفير الدولة العظمى والآخر ضرورة زيارة سيادته للاستئذان في السفر والاهتداء بعظيم حكمته. نغّص عليّ نشوتي. لعنته في سرّي وأكبرت حرصه شخصيا على مصلحتي.

حصلتْ لي كاتبتي الجديدة قبل منصرفها على موعد مقابلة لسيادته قالت إنها استثنائية. أمرتُ الثانية بإعداد لوازم السفر. طرت إلى سيادته فاستقبلني استقبالا حارّا في بدايته باردا في وسطه فاترا في نهايته. لم تدم المقابلة سوى خمس دقائق استمع فيها لمختصر شديد الإيجاز عرضته للكلمة التي تلقى باسم سيادته. قال : «تقترح إنشاء منتدى عالمي للمياه». رجعت إلى مكتبي مرتفع المعنويات مسرورا ذلك أني لم ألتق ذلك المستشار الوزير

الذي كنت متخوّفا من الأسئلة التي كنت أتوقّع أن يمطرني بها عند الدخول وعند الخروج. لم أشعر أني أعتلي كرسيّ وزارة إلاّ ذلك اليوم.

اعتنت بي كاتبتي في نهايته اعتناء خاصا. كانت قد مضت أيام لم نظفر فيها بفسحة لقاء. أطفأت الأنوار وشغّلت مذياعا متوسط الحجم جاءتني به لأواضب على الإنصات إلى نشرات للأخبار حدّدت لي مواعيدها فكنت أكتفي منها بسماع الفقرة الخاصة بنشاط سيادته واغتنمناه للتشويش كلما رغبنا في أن تكون لقاءاتنا غير صامتة. من أدراني بأنّ مكتبي لم يكن محشوّا بالمكروهات ؟ قالت ورأسها على صدري متنعّمة بالاستماع إلى دقات قلبي : «لماذا لا تأخذني معك ؟». قلت : «أيُمْكِن هذا ؟». قالت : «إذا قدر صغار بعض المدراء على أن يصحبوا كاتباتهم في كل سفر فهل...». تفاديت الاسترسال في هذا الكلام فسألتها عن زوجها. قالت : «في الانفصال الذي يسبق التطليق. كنت سأطلب منك تدخّلا للتسريع». قلت : «عندك غيره ؟». قالت : «كان. قبل أن أسعى في التطليق. تبخر عندما علم بالخبر». حاولت أن أغرق في عبيرها لكني لم أوفق. وجدتني مشغولا بضوء ما بدأ يرفّ في زاوية خفيّة من ذهني. كانت تهمس بكلام لم أكن أتبينه. نهضت وقلت : «إذا كان طلبُ التطليق منك أنت فعودي إلى زوجك. خذي الحصة الصباحية حتى تفرغي له». همّت بالوقوف وقالت : «ما أسرع ما مللتني ؟». وبدأت تنثرها غزيرة. جعلت أقول ملاطفا : «معاذ الله. ما فكّرت في هذا أبدا. لأنت مندقّة في القلب حتى لم يعد يخفق إلا

بك». قالت : «بدأت ترغب في الجديدة إذن ؟». قلت : «ما أغباك. أنا أفكّر في مصلحتك وأنت تفكّرين في أشياء أخرى لا يصدّقها عقل. انظري إلى غدك». جفّفت دموعها وعادت تتمسّح بي. قالت : «أنا شاكرة جدا. لا أصدّق السعادة التي أنا فيها. أقسم لك بكلّ عزيز عليّ، إشارة واضحة واحدة منك وأكون لك وحدك مدى الحياة». وجدتني شديد التضايق منها.

كدّرني أن يرافقني إلى مؤتمر الشحّ المائي مدير من مدرائي لم ألتق به إلاّ مرات قليلة. كنت أسأل عنه فكان يقال لي : «في مهمّات سامية خاصة». قال : «أحمل لسيادتكم الحقيبة». كان مهذّبا جدا. لا يرفع عينيه إلى وجهي حياء. بلعْتُ غيظي وتوكّلت على الله. استقبلني سفيرنا بمدريد. كان في يوم ما وزيرا وها هو الآن يزجي الأيام في انتظار يوم سعد آخر لا يهلّ. سألني كثيرا عن البلد. شححت عليه بالمعلومات التي كان يتشوّق إلى معرفتها. كان يكثر من التردّد على قاعة المؤتمر للاطمئنان على أنّ كلّ شيء على ما يرام إلاّ أنه كان يستأذنني في اصطحاب مرافقي. وعندما سألتُ عن السرّ في إكثار السيد السفير من اصطحابه احمرّ وجهه وتلعثم ثم قال : «لاقتناء الأشياء المحدّدة التي أوصينا باشترائها». فهمت. تظاهرت بأني قد تذكّرت فلعنت النسيان فبان عليه ارتياح ظاهر.

عقدنا بعد حفل الافتتاح الجلسة المغلقة الأولى. عُرض علينا برنامج غير الذي كنّا صادقنا عليه في الافتتاح. كانت له مزية الاختلاف عنه باختصار الفترات التي كنا سنقضيها متثائبين على

كراسينا الوثيرة. اقترح وزير متقدّم في السن أن تكون المداخلات مختصرة جدا. طمأنتنا رئاسة المؤتمر على أنّ كل شيء سيجري وفق ما يحبّ كلّ واحد ويشتهي الجميع. نظرت في ترتيب الكلمة التي ألقيها في ما لا يزيد على ثلاث دقائق فكانت في آخر القائمة. عبّرتُ، بواسطة المدير الذي يرافقني، عن رغبتي في تقديمها فقيل له «كان ذلك ممكنا قبل القدوم، أما الآن فقد فات الأوان». قال وزير دولة إفريقية يزيّن أصابعه بكثير من الخواتم : «يا أصحاب المعالي والسعادة. الماء هو الماء. ومشاكله هي مشاكله. هل في قدرة أيّ منّا أن يتحكّم في السماء حتى تكون لنا قدرة على حلّ المشاكل ؟ مشّوا الكلام اختصارا ولنخلص». صفّقنا له استظرافا فاعتبر التصفيق مصادقة بالإجماع. ورُفِعت الجلسة. لم أتوقّعها تنتهي بهذه السرعة فظللت أتمشّى حائرا أمام القاعة الكبرى. مرّ بي زميلي المصري يدفع أمامه بطنا هائلا ويوشّح رأسه الكبيرة بصلعة شاسعة وجبهته بتأشيرة سمع الله لمن حمده. سلّمت عليه فقال : «ما تروح تشوف لك شمة هواء أو نظرة في وجه مليح».

عدت إلى الفندق. تذكّرت أني غفلت عن تحرير التقرير الذي كان ابن خالتي يوصي بإعداده قبل سفري عن لقائي بسفير الدولة العظمى. آنست في نفسي قدرة على وضعه موشّى بالتزيدات ففعلت. دعاني السيد السفير إلى غداء في بيت السفارة. أحطته علما بما جرى في الجلسة المغلقة. زدت فقلت : «بالطبع لم أسكت. قلت لهم نحن نمثّل حكوماتنا وشعوبنا، والقضية تتطلّب كثيرا من الجد». أصغى إلي متململا ثم قال : «التعليمات التي نسير بهديها

من عظيم حكمة سيادته ألاّ نتّخذ موقفا منفردا أبدا. نحن دائما مع الأغلبية. وعند التساوي نكون في الصفّ الذي فيه أصدقاؤنا من الدول العظمى». ضحكت وقلت نادما على تزيّدي: «كأنك كنت حاضرا. والله العظيم لم أنطق بحرف».

أخذني في الليل إلى ملهى فخم. قال: «ينبغي أن تمتّع بصرك بمستور جمال إسبانيا». لم يكن الأمر على ما ذكر. صارت الملاهي عالمية تديرها شبكة عابرة للقارّات من المتنفّذين الكبار. شاهدتُ في السّاقيات والنّديمات والراقصات والمغنيات أشكالا مختلفة بدت لي تمثل جميع الجنسيات. عبّرت للسيد السفير عن رغبتي في مشاهدة «الفلامنكو» فوعد وأخلف. فوجئت به يقول لي: «ألا ترى معي أنّ استردادهم لها أفضل ممّا لو كانت قد بقيت عندنا. لو كانت قد بقيت بين يدي أجلاف الصحراء ووحوش الجبال لكانت بلدا متخلّفا ينضح شقاء وبؤسا. إنها الآن تقلع إقلاعا حقيقيا». استأتُ من كلامه فما كان أسلافنا أجلافا ولا وحوشا، لكني لم أعلّق. خفت من الكلام الدبلوماسي الذي ربما ورّط بين ضحك ولعب. زوّدني في ردهة الفندق بقارورة لطيفة من النّبيذ المحلّي وقال: «سمّيتها رضاب ولاّدة، سترى كم هي خفيفة الظل والروح». كنت أستلطفه لو لم يكن وزيرا مُكسّرا ينتظر فرصة جبر قد لا تأتي إلاّ على حسابي أو حساب نظير من نظرائي.

لم نتّفق في المؤتمر على شيء مهمّ، فاتفقنا على كلام عام أكثره بلاغة طنّانة من تحبير أديب ركيك تتبرّأ ألفاظه من جميع المعاني رجع به كلّ منّا إلى بلده فرحا مسرورا. صفقنا طويلا للقرارات

التاريخية التي ستغير حتما من وجه البسيطة التي لم تكن على الحقيقة بسيطة. نُظّم لنا حفل غنائي من الفولكلور كان مرصّعا بالألفاظ العربية المحرفة. أمضيت ساعات الفراغ في قراءة المكتوب على اللوحات التي كانت تزدان بها ردهات الفندق وبالتفرّس في الوجوه المليحة التي كانت تقتحمه باحثا فيها جميعا عن بقايا منسية من مجد أثيل أخنى عليه الدهر ومسحت به دبرها الأيام عندما اكتشفتُ أن الفندق الذي أنزلونا فيه يحمل اسم القائد الكبير الذي أجلى المسلمين عن الأندلس وارتكب فيهم أبشع المذابح. قلت في نفسي : «إذا كانوا يعبدون ربا واحدا فما الذي جعل كلاّ منهم يريد أن يستأثر به دون الآخرين ؟». ثقل عليّ السؤال فهرعت إلى غرفتي وشربت بقية «رضاب ولاّدة» مترحّما على آلاف الأرواح البريئة التي أزهقتها البربرية باسم أسمح الأسماء.

نفّذت كاتبتي القديمة تعليماتي فأصبحت صباحيّة. أبديت لها سرورا كبيرا وقدّمت لها هدية نفيسة اشتريتها لها مدّعيا للسيد السفير أنها لزوجتي المحترمة أم الأولاد. كان فرحها بها فوق المنتظر إلا أنها كانت مكسوفة منكسرة الخاطر. سردتْ عليّ جميع ما جرى في غيابي. سرده عليّ أيضا رئيس ديواني. حبّرت تقريرا عن سفرتي الناجحة إلى المؤتمر. توسّعت في الحديث عن صوت بلدي الذي دوّى في أرجائه وأفضتُ في ذكر التقدير العظيم الذي يكنّه سائر الوفود للمقام السامي رغم أن أحدا لم يعرض له بذكر. دعوت كاتبتي فلاطفتها قليلا وأمرتها بأن ترسل التقريرين إلى الرئاسة والوزارة الأولى. كتبت لابن خالتي على التقرير الذي كنت أنسيته كلمة اعتذار. أعلمت كاتبتي بأني أريد أن أنال شيئا من الراحة وبدأت أستعد للتمدّد على الأريكة. اقتربت مني وهمست متضاحكة: «هل استنزفك جمال الأندلسيات إلى هذا الحد؟». صرفتها بإشارة كانت تستلطفها وغرقتُ في سبات عميق.

انتبهتُ مذعورا على صوت الهاتف. جريت إلى مكتبي فإذا به الجهاز التبني فارتعت. كلّمني صوت لم أتبيّن منه إلاّ «... مستشار السيد الرئيس. ورد علينا اقتراح أن تستضيف بلادنا مؤتمرا عربيا حول مسألة المياه فما رأيك ؟». قلت : «رأيكم فوق الرأس والعين». قال : «ألا ترى فيه تكرارا للمؤتمر الذي كنتم فيه ؟». قلت : «هو كذلك. إلاّ إذا كان فيه مغنم دعائي ففي الإعادة إفادة». قال : «حسنا. واضح جدا».

سمعتِ الكاتبة الجديدة صوتي فدخلت علي مسلّمة بحياء. همّت بأن تعرض عليّ بطريقتها بعض الملفات فقلت بجفاء : «يظهر أنّ زميلتك لم تقم بواجبها في تعليمك كيف تُعرض الملفات. ينبغي أن تقفي على يميني بيني وبين حافة المكتب وأن تقدّميها حسب الأهمية». ارتبكتْ. احمرّ وجهها. امتثلتْ بخرق واضح. هممت بأن أقدّم لها الهدية المحايدة التي اشتريتها لها ثم أرجأت الأمر إلى ساعة أخرى.

هجمت عليّ الأعمال. مهاتفات، مقابلات، ردود على أسئلة كثيرة ومتنوّعة صرفتُ أغلبها إلى رئيس ديواني. لم أخل إلى نفسي إلاّ مع مقدم الليل. جاءت الكاتبة تعرض عليّ آخر ما ورد. حاولت أن تندسّ في المكان الذي عيّنته لها. كانت بادية الاضطراب والارتباك. ينزلق شعرها من على رأسها فيلفح عند التحرك وجهي. تبيّنت فيه رائحة مثيرة. تحركتْ يدي فاستقرت على عرقوبها. ازورّت ونطّت حتى كادت تقع. سقطت منها الملفات. ارتعتُ من ازورارها. أسرعتْ إلى مكتبها. ركبني غضب.

السّافلة. ماذا تظنّ نفسها ؟ رتّبت أوراقي منفعلا. قالت في الهاتف إنها تستأذن في الانصراف. وافقت.

سرّت زوجتي بمقدمي باكرا. جرت بين يديّ إلى غرفة النوم تساعدني على تغيير ثيابي. لم تفعل هذا إلا مرات قليلات أول عهدنا بالزواج. قالت وهي تنسحب بخفة : «خذ لك نصيبا من الراحة. تمدّد قليلا فأنت ترتعد من التوتر والتعب». وجدتني أفكّر في السافلة بنت السافلة كاتبتي الجديدة ذات الصدر الضامر الجاف والوسط الرحب الفسيح والخصر الدقيق. امتلأت عليها حقدا. بدأ ذهني يشتغل بسرعة. أفصلها بعد يومين. أرميها بالإهمال وإفشاء الأسرار. أركّب لها تضييع ملفات. تذكّرت أنها جاءت، حسب ابن خالتي، من قِبَل أمنا الفاضلة السيدة الأولى. ارتعت. تعجّبت كيف لم أسألها عن صلتها بتلك الناحية. تخوّفت من أن تشكوني إلى من كان وراء تعيينها كاتبة لدي. بدأ العرق البارد يتلبّط على جلدي. أحسست بحرارة تغزو صدغي. جعلت أصرّ على أسناني. تتصنّع البراءة. تتظاهر بأنّ لها كبرياء. قلّبت الأمر على وجوه عدّة لم أصل منها إلى قرار.

تناولت قبل العشاء قليلا من المشروبات الروحية داريت بها قلقي. لم تهدأ أعصابي المضطربة. ثقل عليّ العشاء مع زوجتي. كانت تسرف في التودّد لي فكنت أزداد ضيقا بها. لاحظت أنها قد أصلحت من شأنها. لا بدّ أنها صارت تداوم التردد على محلات التجميل. وضعت ثوبا جديدا أبرز مفاتن لم أرها فيها من زمان. كانت الإشارة واضحة. عذرتها في أعماقي فمنذ تقلّدت الوزارة لم يحصل بيننا تقارب ناجح.

انسللنا إلى غرفتنا. جعلت تسرد عليّ وقائع حصلت في الأيام الماضية ولم تجد فرصة لذكرها لي. وقائع كانت تهمّ الأولاد مبرزة سرعة تأقلمهم مع الوضع الجديد، فهم في غاية السعادة. ووقائع تافهة تتعلّق بالشغالة والجنّان والجيران والأقارب والأصدقاء كانت تستمدّ منها أهمية في الامتلاء بذاتها. بدأت تسعد بالأحاديث التي كانت تسوقها لي. تحوّلت إلى أيام زمان تتذكّر العهود التي كان جسدانا يقدحان فيها الشّرر. أبدت شيئا من الحسرة عليها. قلت مواسيا: «لكل عمر مذاق».

همست لي بأنها كانت قد بدأت تيأس مني حتى همت بالإقبال على الصلاة استعدادا لحَجّة بدأت تراها قريبة. قالت إنها قد فكّرت في دعوتي لتجريب تلك المنشطات التي بدأ يكثر الحديث عن نجاعتها. قلت إني لا أعتقد في جدواها فالمسألة ليست أكثر من راحة للبال ومن نظام للتغذية. سمعتها تحت الماء تدندن بألحان هزجة عتيقة. قالت عندما عادت: «نظام التغذية عليّ وراحة البال عليك». ما أسرع ما استغرقها نوم هادئ مطمئن. ظللت مؤرّقا. أفزعني الترهّل المرعب الذي أصاب زوجتي. كانت كالعجين المتحلّل. أرمي يدي فتغوص، أسحبها فأجد العجين ملتصقا بأصابعي. وتلك الحفر في وركيها أصبحتُ أتأذّى منها. نقمت على الزمن كيف يسير بأجمل الأشياء إلى البشاعة والتشويه. كانت امرأتي أجمل من حشد كامل من النساء. انعطفتُ على نفسي أتساءل عن التغييرات التي أدخلتها الأيام على جسدي. لم يكن تشويهي قبيحا كتشوهها أو هكذا كنت أراه.

كان في نيتي أن أشرع في الإعداد للمؤتمر العربي حول «المسألة المائية» عندما تبيّنت في وجه كاتبتي القديمة مخايل ابتسامة ماكرة. تجاهلتُ الأمر. دخلت عليّ وخرجت مرات. شعرت بها تحوم حول شيء ما. صمّمتُ على التجاهل. إني أفهمها أكثر مما تفهم نفسها. لا نعرف المرأة إلا بعد متكرر اللقاء الحميمي بها. تفقد إذ ذاك جميع أسرارها. وهل هي، سيدي الحاكم، إلا مجرد جسد نتلهّى به ممتّعين لحظة من زمن ؟ ليس لها خارج الجسد كيان. آدميتها آدمية حيوانية لا غير. هذا ما جبلتها عليه ثقافتنا في ذهنها وفي ذهننا. وإلا فما بالنا نعتبرها سلعة ؟ وكاتبتي هذه من ذلك النوع الذي يزعم أنّ له خارج دائرة الجسد كيانا، تعتبر نفسها ذكية فتظلّ تدور بالهدف مرات قبل أن تباغِت فتنقضّ عليه. كنت أجعل لها دائما تحت الطُّعْم الذي ألقيه لها خيطا فإذا انقضّت عليه شددت على الخيط وضحكت. كانت لا ترتبك وتعيد الكرّة في لعب لم نتواطأ على أجمل منه أو أكثر إثارة للحواس الغافية. تظاهرتْ بتنظيف ركن من المكتب كان شديد النظافة وشغّلت المذياع الذي

كانت تشغله كلما طرقت معي حديثا خاصا أو هممنا بالأريكة. أبديت لها استغرابا افتعلته فالتقت عيوننا. ابتسمت وقالت : «ماذا فعلت للكاتبة ؟». لم أفلح في التظاهر بالاندهاش فقلت مداريا رعبا كبيرا تمكن مني : «أية كاتبة ؟». قالت : «هل عندك غيرها ؟ أبلغتني أنها لا تأتي اليوم. طلبتْ مني أن أعوّضها». قلت : «لم أفعل أو أقل شيئا. لا بد أن لها أمرا خاصا». قالت : «لا بد أنك رميت يدك». سيطرت على هواجسي وقلت : «إلا إذا كنت قد حسبتها أنت». لبستْ قناع الجد وقالت : «دعك من الصبايا الغرّات. لا تصلح بك إلا راشدة مثلي. تعرف أين تقف وإلى أين تمضي». أسكتت المذياع وصرفتها برفق. امتلأ صدري بالغلّ على تلك الغرّيرة التافهة. ابتلعني الشغل فلم أتذكّرها إلا آخر العشي. كانت كاتبتي القديمة تحوم حولي منتظرة إشارتي المعتادة. نظرت إليها مليّا مرات وشعرت بكثير من التوتر. بدأ الإحساس بالاختناق يضيق علي الأنفاس. ألقيتُ جميع ما كان بين يديّ على المكتب بقرف وخرجت.

كان في نيتي أن أقصد خمارة ابن حارتنا شابيط ففي الجانب الخلفي منها ركن خفيّ استقبلني فيه، قبل أن أصبح وزيرا، مرات اشتدّت بي فيها رغبة في تجديد خلاياي الدماغية تجديدا جذريا. فزع سائقي إلى السيارة جاريا. استنتجت أن الكاتبة أخطرته بخروجي المفاجئ. كدت أذكر له الطريق إلى الخمّارة غير أني انتبهت إلى أنّ منصب الوزير لا يسمح لي بارتياد مثل ذلك المكان الوضيع في ذلك الحي الشعبي. ما الذي سيقال عني إذا شاهدني

مخبر مندس بين السكيرين وهو يصطاد أيّ كلام يقال في سبّ الحكومة أو التعريض برمز من رموزها ؟

اتجهت إلى بيتي على مضض. استقبلتني كومة العجين المتحلّل التي هي زوجتي بفرح أقوى من فرح الأمس. أخذت بيدي إلى غرفة النوم. جعلت تساعدني على استبدال لباسي. قالت : «نم. أتعبتك هموم الوزارة كثيرا». سمعتها تتّجه إلى المطبخ فاتجهت إلى خزانة المستورات وسحبت كحولا معتّقا من النوع الفاخر وكرعت منه حتى شملني خدر سرعان ما غيبني في نوم مضطرب. نبّهتني زوجتي مع العاشرة. تناولت معها عشاء خفيفا سقيته بكثير من النبيذ. كانت تسرد عليّ أخبارا لا أتبينها عندما أطبق عليّ النوم من جديد فخلصني من محنة أخرى للاختلاء بها. صرت لا أطيق لها صورة.

في السابعة صباحا كنت في مكتبي. صرت له ألوفا. يكفي أن أجلس على هذا الكرسي الدوار بهذا المكتب الأنيق وأن أنظر إلى الداخل والخارج من عل والقلم في يدي أحبّر به الاقتراحات الخطيرة وأوقّع به على المشاريع من بعض القرارات حتى أشعر بسعادة غامرة لا يكدّرها عليّ إلاّ شيء من الخرق في بعض التصرّفات التي كنت أحْمِلها، لأتحمّلها، على التّعجرف المستكنّ في أهل هذه البلاد التي لم تتأصّل فيها الحضارة بعد. قرأت بعناية فائقة ما وجدته أمامي من مراسلات وإشعارات وتقارير وإفادات. دخلت عليّ كاتبتي القديمة تحمل رزمة من الوثائق قالت إنها تخص اجتماع مجلس الوزراء الذي ينعقد غدا. غاظني أن يتعمّد السادة

الوزراء إرسال الوثائق قبل انعقاد الاجتماع بوقت قصير. ذهب في ظني أنّ العناية التي يبذلونها في توفير الوثائق هي التي تتسبّب في التأخير حتى اكتشفت أنهم يتعمّدون ذلك تعمّدا. كانوا لا يريدون أن نجد الوقت الكافي لإمعان النظر فيها حتى لا نناقشهم في ما قد يقبل نقاشا. كلّ له طريقته في التمويه حتى يضمن لنفسه مزيد تماسك في منصبه. أدركت أني كنت غرّا عندما رفعت صوتي بمناقشة وثيقة من الوثائق فقال لي الوزير الذي صدرت الوثيقة من قطاعه : «الجواب على الاستفسار في موضع سابق». ضحك سيادته وقال : «اقرؤوا الوثائق التي تصلكم بإمعان قبل الوصول إلى هذا المجلس». ضحك الجميع لضحك سيادته وتمنيت لو كانت الأرض قد ابتلعتني. نظرت، بكثير من الإمعان، في الوثائق التي وردت عليّ فألفيت فيها فصولا وتقارير قديمة لا علاقة لها بما نجتمع عليه. ابتسمت. قرّرت ألاّ يرتفع لي صوت في غير ما يتعلّق بوزارتي.

كلمني ابن خالتي مستفسرا عمّا وصل إليه الإعداد لمؤتمر المسألة المائية. طمأنته على أنّ التفكير جار في الأمر. ارتفعت نبرته وهو يقول : «أنبهك إلى أنّ المسألة أعسر مما تتصور. أيّ خطأ تتحمّله أنت. فيه قطع الأرزاق. سمعة البلد لا تسامح فيها. شغّل مَن هم دونك وراقبهم». أثر فيّ كلامه فدعوت رئيس ديواني لأمسح فيه ما داخلني من روع. كان يتلقّى تأنيبي صامتا. يزوي عنقه بين كتفيه ويحني رأسه وتستقر راحته على شنبه المنفر.

هل في سيرتي سيدي الحاكم ما يدعو إلى الإدانة بما تدينوني به ؟ أيّ شيء تنكرون علي ؟ أنا لم أرتكب أي جرم. لا تشر، من

فضلك، إلى ما كان بيني وبين كاتبتي الأولى فأنا أوّلا لم أجبرها على شيء، وهذا ثانيا أمر شديد التواتر والانتشار. ليس من وزير أو مسئول كبير ليس عنده كاتبة أو كاتبات يُزِحْن عنه كبير التوتّر ويخلصنه من شديد الضيق. الوزارة ليست لعبا. وخدمة الدولة ليست شيئا هينا. ثم هل اشتكت لك هي أو غيرها من شيء ؟ كان الناس يهرّبون بناتهم ونساءهم إلى قطاع التعليم، يظنون أنه الأنظف. هيهات. قد انتشر الوباء وعمّ. لكن لماذا أسميه وباء وهو قائم بين الناس منذ كان الناس. كانت البلاد ماخورا مستورا فجاء من سحب عنها الغطاء. أنا لا أبرّر ما كان مني قبل اعتلائي كرسيّ الوزارة فالقانون لا ينسحب على سابق. ثم إن هذا السابق من أدراك أنه كان. ألأني ذكرته ؟ ما أكثر ما نذكر ما لم يقع أو نحسّنه إرضاء لغرورنا. اسأل زميلي وزير الداخلية فعنده الخبر اليقين. ثم إنه ليس فيّ، عند التحقيق والتثبت، إلا عيب واحد هو «قوة الاشتهاء»، أما الآخرون فما أكثر عيوبهم : سرقة وكذّابون ونمامون وخونة وقفافون وانتهازيون ووصوليون وفاسقون ومخاريط. بأيّ ذنب يقبض عليّ إذن وأساق كالمجرمين العتاة تحت حراسة مشددة إلى هذه الزنزانة المنفردة ؟ اقبض عليهم أجمعين إذن وجرّهم إلى التحقيق ؟ أم أنك أنت أيضا تكيل بألف مكيال ؟ قيل لي إنه قد أغمي على زوجتي وإن ابنتي قد هربت إلى غرفتها وأغلقت عليها بابها. لا بد أنها قد انتحرت. سأجعل دمها في عنقكم إلى يوم الدين.

بعد الظهر جاءت كاتبتي الثانية. سمعت حركتها. أخليت لها في ذهني زاوية بدأت أملأها بالمخططات لإحكام تسديد الضربة

التي تفصلها عن العمل. دخلتْ عليّ برفّ من الوثائق لا أدري من أين استخرجتها. وضعتها برفق في المكان الذي ييسّر عليها عرضها عليّ من الزاوية التي كنت قد حدّدتها لها. لاحظت أنها قد وضعت ثوبا جديدا يبرز رحابة وسطها. كان شعرها الطويل مرسلا. صكني منها عطر غريب منعش انبعث منها. كانت ظاهرة الارتباك. همست: «أقدّم لكم اعتذاري سيدي الوزير...» احتبس الكلام في حلقها. تظاهرتُ بأنيّ لم أسمع. اصطدمت يدها بيدي مرات عند تصفح الملفات. صرت فيّ ذبذبات كهربائية أنكرتها. توقفت عن التوقيع ونظرت إلى وجهها. التقت نظراتنا فابتسمت.

هل الذنب ذنبي سيدي الرئيس إذا كنت لا أرى امرأة إلا تخيلتها معي في الفراش؟ يكفي أن تكون امرأة حتى يكون الفراش وراءها. شيء خلقت به.

لعنتُ الدم الذي أصبح يغلي في عروقي وعدت إلى عملي. اصطدمت يدها بيدي مرة أخرى فعضّت على شفتها وتثنّت فلفح شعرها صفحة وجهي فاندست يدي حيث تشتهي الاندساس. كان المكان حاميا فأخذتني رجفة. بدأت راحتي تصعد وتنزل برفق وئيد فكادت تتعطل فيّ الحواسُ. جريت إلى الحمّام أسكب ماء باردا على عنقي وصدغيّ.

جعلت أتساءل طويلا عمّا حملها على أن تغيّر من سلوكها كلّ هذا التغيير. هل في الأمر فخّ من الفخاخ التي صرت أتخيلها منصوبة لي في كلّ اقتراح يرد عليّ وكل نصيحة وكل حركة أو بادرة. أتكون قد استشارت فأشير عليها بأن تكون طيّعة لرئيسها

موافقة لهواه. أم تكون قد فكرت من تلقائها فاقتنعت بأن تلك طريق مفضية، لا محالة، على صنوف الترقية والصعود فزيّن لها الطمع بأن ترضى اليوم بما كانت ترفض بالأمس؟ لم أتساءل عمّا إذا كانت تصدر عن عميق اقتناع بما كانت تنكره فصارت تقبل عليه لأنّ امرأتنا مهما تراءت شارعة في التعلق بأذيال الحرية لم تملك بعد من أمرها شيئا. اختلطت عليها السبل. هي لا تعرف إلى أين تسير وماذا يراد منها أو يُنتظر. الحرية قرينة المسؤولية ولا حرية عندنا ولا مسؤولية. ألفاظ نرددها دون أن تعني عندنا شيئا.

خفّت الرجل بالوزارة فدعوتها غير مستبعد أن تكون قد غيّرت من موقفها. أشرت إليها بأن تغلق باب مكتبها من الداخل. غلّقتِ البابين الآخرين. شغّلتُ المذياع خفيفا. أطفأت الأضواء عدا الضوء المنبعث من الحمّام. أضفيت على المكان رومانسية لا تلائمه. كنت قد رتبت الأمور ترتيبا محكما. كانت مرتبكة. لم تقدر على ألا تهمس وهي تداري حرجها: «أعتذر عن المرة الأخرى». لم أدعها تكمل كلامها. كان بي نهم إلى الخيرات الأخرى. ليس في هذا الموقف مكان للكلام. في لغة الجسد ما يغني. وهل هي إلاّ مزيج قاتل من الإقبال والصدّ والإقدام والإحجام والاستئناس والاستيحاش والاستسلام والازورار. وهل هو إلاّ همس لا يبين لم نفطن في حمياه إلا على الإبحار. ذعرتُ من البهتة التي أخذتها ومن التحليق عاليا في الانتشاء. لم يكدّرني إلا لوم النفس على تقصير في اتخاذ الاحتياطات الضرورية.

قالت زوجتي وهي تحاول أن ترفع مجرورا لا يرتفع : «شممت على قميصك روائح عطور». قلت : «لا بدّ أن الجمع قد طمأنك». قالت : «بعض الاطمئنان». قلت : «الداخلات أكثر من الخارجات. لا أدري لمَ تسكب الواحدة منكن قارورة عطر كاملة على جسدها. أأنتن نتنات إلى ذلك الحد ؟». لكزتني وقالت : «متى كنتم عطرين ؟ إنّ الواحد منكم لتنبعث منه رائحة تيس». قلت متفاديا المقارنة بين الرجال والنساء، موضوع زوجتي المفضل الذي أعرف نهايته فقلت : «فكرتُ في أن أفتح لك محلا لبيع العطور». سطعها الاقتراح. لمعت عينها. اقتربت مني أكثر فصكّها العطر الذي ظلّ ناشبا بي فرفعت رأسها وقالت : «ما هذه الرائحة التي تنفذ إلى الجسد أكثر من الثوب ؟». قلت متظاهرا بنفاذ الصبر : «هل تركت هموم الوزارة فيّ عرقا ينبض ؟ ألا ترين كيف أصبحتُ خرقة. لا أكتمك أني بدأت أفكّر في الاستقالة». صاحت : «لا تفعل! يقال عنّا ماذا ؟ لم تكن في مستواها ؟ كل شيء إلا الاستقالة». جعلت تعانقني وجعلت ألعنها في سري إلى أن غلبني نوم هادئ لذيذ.

غرقت في الإعداد لمؤتمر العرب حول «المسألة المائية». تفتّقت مواهب مدير ديواني عن مهارات عالية في التنظيم. كان الأجدر به أن يكون مديرا كبيرا للمهرجانات والحفلات. اقتصرتُ على المسائل التي كانت تتجاوزه. أمّا اختيار الفنادق وتوزيع الوفود وجدولة الأعمال والاستقبالات والدعوات والترفيه والهدايا فقد كانت له فيها خبرة لا تجارى. يسّر لي ذلك فرصا كثيرة تفرغت فيها لمحاسن كاتبتي الثانية. نطقتِ الطبيعة فيها بأروع رقص على أروع إيقاع في أروع عطاء. كنت أفترش السعادة وأتغطّى بها. لم يصرفني عنها إلا ما لا بدّ منه من استقبال الضيوف. كنت أظلّ في قاعة التشريفات بالمطار بينما يدخل رئيس ديواني إلى الوافد ما إن تحط طائرته. يهلّ نظيري الضيف فتتلقاه حسناء من حسناوات الفندق بباقة كبيرة من الورد. أعانقه عناق الأصدقاء وأوصله إلى الجناح الذي خصص له وأعود إلى المطار لاستقبال قادم جديد. حرصتُ مع ذلك كلّه على أن أهرع مشتاقا إلى مكتبي لأنهل، بعد الغروب، من خاتمات نار الانتظار. لم يكن لي أنعم من تلك الأيام.

من لم يخبر ملتقيات الوزراء والمسؤولين العرب ومؤتمراتهم لا يعرف من العوج الذي تنشقّ من بشاعته أكباد الحمير إلا جزءا صغيرا. لم أر أناسا معقّدين خرقا أجلافا صغار النفوس ضيّقي الأذهان والخواطر تافهي العقول مثل الكوادر الرسمية بهذه المنطقة من العالم. بأيّ المقاييس اختارهم الذين سوّدوهم على رقاب الناس ؟ ليس من جار جغرافي إلاّ يعادي جاره. ليس بين الحكومة والحكومة من حكومات الدول العربية إلاّ المغاضبة والمنابزة والمباغضة والحسد. كلّ ينكّد على كلّ ويتآمر. رحت بعد سويعات

من المسرّة مدهشة قضيتها منعّما مع كاتبتي إلى الفنادق التي أنزلناهم فيها لأطمئن عليهم فلم أخلص من المشاكل التافهة إلا في آخر الليل. فهذا وفد يحتجّ لأنّ إقامته جاءت مجاورة للوفد الذي بين حكومته وحكومته خلافات عميقة ومقت قاتل متبادل. وهذا وفد آخر متضايق من أنّ استقباله لم يكن في مستوى استقبال وفد آخر لبلد آخر بينه وبينه تنافس. كنت قد قرأت حسابا لكثير من الجزئيات فلم أفرح بوفد أكثر من وفد، ولم أميّز وفدا عن وفد لا بالإقامة المجانية ولا بنوع الأجنحة ومكوّنات الغرف. لكن فاتتني أشياء لم تكن لتخطر لي على بال. فاتني مثلا أنّ بعض الأعضاء من قمّة هرم الوفد إلى قاعدته الدنيا قد استجلب من خارج حدودنا ومن داخلها نساء قيل لي إنهن «حرمات». صرخت في رئيس ديواني : «ماذا تفعل حرمة هنا، وليس في أيّ وفد من الوفود القادمة عنصر نسائي واحد ؟». كنت، في الحقيقة، قد ارتحت لذلك تيمّنا بقلّة المشاكل. قال : «أشعرني بعض حمّالي الحقائب أنّ بعض أصحاب المعالي ترافقهم حرمهم. وعند التثبت لدى إدارة الفندق علمت أن ببعض الغرف وبعض الأجنحة نساء». ظللت مترددا أحاول أن أفهم فقال : «طُلِبَ مني أن أستقبل وافدات يصلن في ساعات متأخرة من الليل من بقاع نائية». صحت فيه : «حرمات عاهرات خليلات قوادات لا يهمني. كلّ يسدّد ما عليه ويسوّي مشاكله بنفسه». كدت أنصرف غاضبا عندما أخذني مدير الفندق الفخم الذي تعاقدت معه مصالح وزارتي لإقامة أصحاب المعالي واحتضان وقائع المؤتمر إلى مكتبه. قال : «هذه أمور تعوّدنا عليها. لا ينبغي أن يزعج معاليكم شيء. قد تكون الكلفة أرفع مما قدرتم

فقط. لكنها سمعة البلاد». دخل علينا دون استئذان أحد ضباط الأمن. همّ، عندما شاهدني، بالانصراف فناداه مدير الفندق وقال: «السيد الوزير متضايق من الوافدات». ابتسم الضابط وقال: «لتطمئن سيادتك. الوافدات من الخارج نحصل على هوياتهن من المطار. والمحليات تعرفهن مصالحنا معرفة كاملة. المطلوب أن نشعرهم بأننا نتكتّم عليهم في ما ابتلوا به». لم أقتنع بكلامه، لكنني سكتت. رأيت فيه مخايل واوات كثيرة لم أتعوّد عليها.

اتجهت إلى الجناح الذي خصص لاستراحتي. كان رئيس ديواني يلهث ورائي. ما إن جلست في غرفة الاستقبال حتى قلت له: «لم أتبين شيئا واضحا في هذه القضية. مسؤولية المؤتمر في عهدتي. أريد على الأقل، إذا ذبحت، أن أذبح مفتوح العينين». خرج. أجريت مكالمات هاتفية لا معنى لها. وجدت ضغطي مرتفعا. جاءني رئيس ديواني يحمل ألبوما في كيس من أكياس الفندق في كيس، وقال: «أقسمت للسيد مدير الفندق بجميع الأيمان على أن يظل ما فيه سرّا بيننا». فتحت الألبوم فإذا فيه صور لفتيات ونساء شبه مكشوفات، في ألبسة داخلية قصيرة شفّافة. تحت كلّ صورة رقم. لبعض الصور سمات أجنبية أو مموّهة حتى تشبه نماذجها ولبعضها الآخر سمات محلية بيّنة. جعلت أتأمل الوجوه وجها وجها. لكأن لي بالبعض منها سابق معرفة. بدأ يداخلني الشك. فهذه الصورة أكاد أقسم بأنها صورة زميلة لنا في المدرسة كنا نعتبرها مثلا أعلى للاستقامة وحسن السلوك والأخلاق. كنّا نحسد زوجها، وهو معلّم معنا، عليها. سألت رئيس ديواني وكان واقفا كالتلميذ المهذّب عن صاحبات الصور ما

إذا كنّ عاهرات محترفات. نفى برأسه. عضّ على شفته تحت شنبه. أطرق وقال : «بل محترمات، ربات أسر، بنات عائلات». أبديت حركة اندهاش فقال : «صعوبة العيش تدفع إلى اغتنام بعض الفرص السانحة». سلّمته الألبوم وصرفته. كنت قد سمعت بهذه الأشياء ولكنني كنت دائما أستبعدها. اعتبرتها دائما من وحي خيال مصدوم بحضارة لم يلحقه من خيراتها شيء.

ضاقت أنفاسي فعدت إلى بيتي. طلبت من سائقي أن يبكّر في أخذي إلى الفندق. وجدت الجميع مستغرقين في النوم. أزعجني شخير كان ينبعث من زوجتي. خفت إذا أيقظتها أن تلبسني. تعذّر عليّ النعاس فلذت ببقايا قارورة الكحول أستعين بها على النوم فلم تخيب أملي.

يبدو أن مدير الفندق كان يترصّدني، فما إن دخلت إلى البهو حتى وجدته أمامي. أخذني إلى طاولة منفردة. طلب فطور الصباح بإشارة خفية وقال : «للفنادق التي من نوع فندقنا أصول في التعامل وتقاليد. أنتم تعرفون أنّ للتطور أحكامه. لكلّ عمل أخلاقيات...» قلت : «دعني من هذا. هات ما عندك وباختصار ؟». قال : «إذا رغبتم في ضغط ما على رأس وفد من الوفود ساعدناكم». وغمز بعينه غمزة كرهتها. قلت : «لست أحتاج إلى شيء من هذا» واتجهت إلى قاعة الاجتماعات أتفقدها وفي رأسي المكدود تطنّ تهديدات ابن خالتي.

ما كدنا نفرغ من افتتاح المؤتمر حتى انسحب رؤساء الوفود كلّ إلى جناحه. قيل لي إنهم يجتمعون بسفراء دولهم ويجرون

اتصالات مهمة بحكوماتهم. تواعدنا على أن نعقد جلسة حاسمة بعد الظهر. تركنا الخبراء يشتغلون. أوصيت رئيس ديواني ومدير الفندق بإعلامي بكلّ كبيرة وصغيرة واتجهت إلى مكتبي. جاءت كاتبتي القديمة تسلّم عليّ وتكثر من الدخول والخروج. نظرت إليها بقرف. ما هي إلا عيّنة من صاحبات تلك الصور التي رأيت. كم تراه يكون عددهن ؟ تخيّلت كم عندنا من فندق فاخر وافترضت أنّ لكل فندق ألبوما من الصور واحدا وحاولت أن أقدّر العدد فمنعني الارتياع من الوصول إلى رقم من الأرقام. لم أدقق في تصفح الألبوم الذي كان رئيس قد جاءني به. كنت خائفا من أن يصفعني بمفاجأة من المفاجآت التي قد لا تتحمّلها قواي. من يضمن لي بأني لست عاثرا فيه على قرابة من القرابات ؟ كنت ذاهلا عندما شاهدت كاتبتي تشغل المذياع فارتفع ضغطي. سمعتها تقول : «قد تراضيتُ مع زوجي». نظرتُ إليها بازدراء وقلت : «هنيئا. لم يعد لنا إذن حظ فيك». قالت بشيء من الغنج استبشعته منها : «أما أنا فمستعدة دائما. مثلك لا ينسى. ألا تثق في صدقي ؟». قلت : «مثلك لا يُشكّ فيه أبدا». وامتدّت يدي إلى المذياع تغلقه. فهمت نفسها فانصرفت.

هل الذّنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان العرب «قد اتفقوا، من أقدم الأزمان، على ألا يتفقوا» ؟ هل الذنب ذنبي إذا كان إفراطهم في أكل لحوم الإبل قد أخلى قلوبهم من الحب وملأها بالحقد والبغض ؟ ففي الأمثال «ليس أحقد من جمل». هل الذنب ذنبي إذا كانت رؤوسهم فارغة إلا من شهوتي البطن والفرج ؟

عقدنا قبل المغرب الاجتماع الذي كان موعده بعد الظهر. كانت الجلسة مغلقة عن الصحافيين والفضوليين حتى يكون كلّ على راحته. لكن ما كدنا نشرع في التمهيد للعمل حتى اندلعت الملاسنات وانقلبت إلى سباب وشتم. احتقنت الوجوه وارتعشت اللحى والشوارب وأصبحت العيون تقدح شررا وتطايرت الاتهامات بالخيانة والعمالة والغدر والتآمر وتصاعد التهديد. قمت من مجلسي. جريت إلى المتشاتمين أقبّل رأس هذا وأكبّ على كتف ذاك وكلّ يتملّص ويزأر. ساعدني في ذلك بعض العقلاء. ما كاد الهدوء يرجع إلى القاعة حتى همس لي الشيطان بأن أروّح على الجميع بشيء من الهزل نستقبل به ما ينتظرنا من جدّ فقلت: «لئن لم تهدأوا وتنبسطوا عاقبتكم بحورية تؤدي لكم رقصة الستبرتيز». ضحك بعض وصفّق بعض وقام لابس لحية طويلة مخضّبة مشذبة فقال منفعلا: «ما هذا الكلام؟ جئنا للعمل أم للموبقات والمحرّمات» وهمّ بالخروج. جريت إليه فعانقته وهمست له: «وحق الذي تعرف معاليكم أني أعرفه إلا» ورفعت صوتي «كبرتم بي وطيبتم خاطري». رمشت عيناه قليلا. ارتعدتْ ترقوته. تردّد وقال: «يكبر عليّ ألا أكرمكم ونحن في ضيافتكم» وجلس. تنفّست الصعداء وبدأنا الاجتماع. كان الجو المشحون بالشحناء والبغضاء والتوتر يهدد بالانفجار في كل لحظة. قال أكبرنا سنا وأكثرنا، في ما يبدو، خبرة بأجواء الاجتماعات العربية: «أقترح أن نعلق اللقاء إلى التصديق على ما يرفعه الخبراء». ثنّى الجميع على الاقتراح. رأيت أصحاب المعالي يهمّون بإخلاء القاعة فقلت معابثا: «على بركة الله وأنشودة ديكي ديكي». انتفض صاحب معالٍ وصاح: «ما هذا.

صرنا في حديقة حيوان ؟». رأيت زميلا من عقلاء المشاغبين يشرح له بكثير من الأناة ما غاب عن علمه. خطر في ذهني أن أقترح أن تصبح أنشودة «ديكي» نشيدا رسميا لأمتنا العربية المدجّنة علّها تسترجع شيئا من براءة ذوات الجناح من غير الجوارح.

يبدو أن سيادته لم تكن به رغبة في استقبال الوزراء الضيوف. أعلن بيان صادر عن رئاسة الجمهورية أن فخامته يخلد إلى الراحة أياما عملا بنصيحة أطبائه الحذاق. طلبت من ابن خالتي أن يشرّفهم بلقاء. لعن مرات ثم قال : «نصف ساعة قبل تحوّلكم للعشاء». اتجهنا إلى الوزارة الأولى فرحّب بهم واحدا واحدا، كان في غاية الانبساط. كان يكون ممثلا نجما لو لم يكن مبتلى بحب السلطة والتسلط. همس لي عند الخروج : «اسعد بصحبة هؤلاء الأباعر».

كانت مأدبة العشاء التي أقمتها على شرف ضيوفنا أعضاء حكومات البلدان الشقيقة بلا مفاجآت. تغيّب معظم الزملاء نظرائي الأفاضل. كنت عارفا بالأسباب الخفية التي تُغطّى عادة بكلام غامض عن المصالح العليا فقبلت جميع الاعتذارات. لاحظت أنّ جمعا من الذين نوّبوهم لشغل الكراسي الفارغة كانوا يكثرون من مغادرة قاعة الطعام والرجوع إليها. ظننتهم مصابين بداء السكري أو البروستاتا. أشرت إلى رئيس ديواني فهمست له بضرورة التثبت حتى نزيد من الاحتياطات الطبية. عاد إلي مبتسما. قال : «كانوا يقصدون مقصف الفندق فيعبّون على عجل كأسا كبيرة من الويسكي يستمرئون بها لذيذ الأصناف».

كنت بين نوم ويقظة منكمشا على حافة الفراش محترسا من أن تستيقظ زوجتي عندما جعل جرس الهاتف يدقّ. خنست متوقعا أن ييأس فظلّ يلح بإصرار. قمت فإذا رئيس ديواني يقول : «آسف على الإزعاج. لكن أفضّل أن تأتي سيادتكم إلى الفندق. المسألة تتجاوزني». قلت محتجّا : «هل نظرت إلى ساعتك ؟». قال : «إني مرابط هنا صحبة السيد المدير».

أسرعت. أخذني مدير الفندق إلى مكتبه وقال : «مشكلة صغيرة مع وزير من جيراننا». أعلمني أنه استقبل إحداهن فنشب بينه وبينها خلاف. صمت قليلا ثم قال : «أخشى أن يتطوّر إلى فضيحة إذا ما تناهت رائحته إلى أحد الصحافيين المتعاملين مع الأجانب». صعدتُ إلى جناح الوزير. وجدته متكئا على مسند في فراشه مخمورا يجاهد للتمسك بصحو هائج. أمّا المرأة فقد كانت واقفة منفعلة تمسك بحقيبة يدها. سلّمت عليه معانقا وقلت : «ما المشكل ؟». قال بلسان ثقيل : «الشرموطة. تريد أن تضحك علي. تخدعني، تستغفلني». صاحت المرأة : «كذّاب وسافل ونتن». صرخت بها : «تسكتي أنت أو رميت بك في الحبس. ابتعدي. اذهبي إلى غرفة أخرى». ابتعدتْ. قلت لزميلي : «ما الحكاية». قال : «لم أسوّ شيئا وتريدني أدفع لها. لن أدفع شيئا». قلت : «حقك عليّ سأريك فيها». ذهبت إليها وقلت : «ما الذي تريدينه منه إذا كان لم يأخذ شيئا ؟». قالت بوقاحة أزعجتني حتى تمنيت لو أشبعتها صفعا وركلا : «وجدته لا يقدر على الوقوف من شدة السكر. قال... »، لم تنطق الكلمة وإنما أشارت بلسانها، «سمحت له. تأذيت من رائحة

كحوله». ذهبت إليه وقلت : «ما دامت قد وفت بما وعدت... فحقها قائم». انتفض في السرير وجحظت منه عينان كعرف الديك وقال : «تضحك عليّ وأدفع ؟ لن أدفع شيئا». صاحت هي من الغرفة الأخرى : «أصرخ وأشنّعها وليكن ما يكون...» قلت له : «لن تدفع . أنا الذي أدفع . أنت في ضيافتي. لك عليّ حق الجيرة وحق الزمالة. أما هي فأقسم بمعزتك عندي أني لا أستحق جميع ما أنا فيه إن لم أتركها تلعن اليوم الذي جاءت فيه إلى هذه الدنيا». جعل ينخر ويزفر. تجشّأ حتى كاد يقذف ما في بطنه. دسّ يده تحت الوسادة فاستخرج محفظة صغيرة سحب منها أوراقا نقدية وضعها في يدي وقال : «غلبتني. هل يكفي هذا ؟ لولا الجيرة والصحبة». تحوّلت إلى المرأة. أعطيتها المال. لمعت عيناها عندما عدّتها. تنهدتْ وأجهشت بالبكاء. قلت : «انصرفي الآن وإذا رأيتك هنا مرة أخرى زججت بك في الحبس». عدت إلى زميلي فوجدته قد تمكّن منه النعاس. سحبت عليه الغطاء. استغربت أن يخامرني عليه شيء من الإشفاق.

كان مدير الفندق في انتظاري. بدأ يتملقني بامتداح مواهبي في مواجهة الصعاب وحل المشكلات. طلبت منه أن يوصلني فقد أصبحت غير مطمئن لقدرتي على السياقة. ظلّ طيلة الطريق يسبّ ويشتم هؤلاء الأوباش الذين سودتهم علينا طبيعة جائرة خزنت في أرضهم نفطا لم يتعبوا عليه ليعرفوا معناه. كان ينعطف من حين إلى آخر عليّ بالمدح والثناء حتى أسكتته. كنت مهموما من الوزير القواد الذي أصبحت.

انتهى المؤتمر مثلما ابتدأ. لم يتغير شيء في علاقات التباغض بين الدول المتجاورة وغير المتجاورة. اتفقنا بعد أخذ ورد ومشادات ومشاورات على بيان كان كالماء بلا طعم ولا لون. اتفقنا على أن ندرج في وثائق المؤتمر مختصراَ مما اتخذته كل دولة من تدابير عظيمة خيّرة واستنبطته من حلول مثالية لهذه المعضلة. شرعت في توديع زملائي الوزراء وزيرا وزيرا. همس لي رئيس ديواني بأنّ صاحب المعالي الذي أبدى احتجاجا على معابثة الستربتيز تعرّض للابتزاز. لم أفهم فقلت: «إلى الجحيم». وعندما رافقته إلى المطار لاحظت عليه مخايل تضايق. لم أملك نفسي من أن أقول له: «أرجو أن تكون معاليكم قد تمتعتم بالمؤتمر والإقامة». زفر بنفاد صبر وسكت. كان شارد اللب. وعندما قلت له: «أرجو أن نراك والعوائل في زيارة خاصة لبلدكم الثاني» قال مزورّا: «أعوذ بالله». سكتتُ ممتعضا.

أخبرني رئيس ديواني أن مدير الفندق انفرد بحامل حقيبة ذلك الوزير وأطلعه على صور كان فيها صاحب المعالي شبه عار صحبة امرأة شبه عارية وقال له: «أبلغ سيادته أنيّ دفعتُ فيها مالا حتى لا تذهب إلى أيد أخرى وأني بصدد المساومة للحصول على الأصول». غاب حامل الحقيبة بعضا من الوقت، وعندما رجع لمقابلة مدير الفندق رجع ليقول له: «كم تريد كي يموت كلّ شيء هنا ؟». فكّر مدير الفندق طويلا ورسم رقما. لم يغب حامل الحقيبة طويلا وجاءه بكيس فيه باكوات فسلمه مدير الفندق ظرفا صغيرا فيه الصور والأصول جميعا. قلت: «ما الباكو ؟». قال

رئيس ديواني : «ألف دولار». قلت : «ما أسهل ما صدّق». قال : «كانوا يفبركون له ما هو أشنع لو كان حاول تمنعا».

لم أدرك السبب الذي حمل رئيس ديواني على إخباري بحكاية الوزير المبتز إلا عندما قدم لي ظرفا شككت فيه ففتحته فإذا فيه حزمة من الأوراق النقدية عملة صعبة. هممت بالكلام فسبقني إلى قوله : «ليست لكم. هدية بسيطة من الفندق للذين أسهموا من أعوان الوزارة في إنجاح المؤتمر». ترددت فقال : «هذا معمول به في جميع بقاع الدنيا». سحبتُ منه كمشة وقلت : «وزّع الباقي على السواق خاصة والإداريين عدا الكاتبتين». جاءتني كاتبتي القديمة تعرض عليّ ملفاتها فدسست نصفه بين ثدييها. ضحكت وقالت : «ما أراها تعوّضني عنك أبدا». ارتمت علي معانقة فلاطفتها قليلا وأومأت لها بإشارة الانصراف. آلمني ضغطها على اللفظة الأخيرة.

اختليت بعد الغروب بكاتبتي الثانية. كانت شديدة التألق لا تزداد مع الأيام إلاّ حسنا على حسن. أصبح ينبعث من عينيها ضوء ساحر. أعادتني بروعتها عشرين عاما إلى الوراء. سلّمتها المبلغ. أبدت استياء. شرحت لها الأمر فلم تفرح. كانت مأخوذة بأشياء أخرى لم أتبينها. بدأتُ أتوجّس خيفة من شدة تعلّقها بي. يظهر أنّ صبوتها العارمة لم تكن تمويها أو تمثيلا. تذكرت أن كاتبتي الأولى قد حذرتني من «الغرّات الغريرات». كدّرني انقباض غامض.

هل الذنب ذنبي سيدي حاكم التحقيق إذا كانت الأجساد الفتية النضرة تشعل فينا ألف نار ونار ملتهبة. تستفزني المبالغة في لغتكم التي تعتبرونها أفضل اللغات حتى زعمتم إنها لغة الفائزين بالجنّة مثلما يستفزني فيها حرف الخاء أو يهزّني جسد غض. هل جعلك «الدفء القبري» المنبعث من جسد فتيّ لدن محتدم الشهوة تفقد الصواب ؟ أما أنا فقد فقدت صوابي مرات ومرات. إذا كنتَ ممن يعدّون هذا جرما أو منقصة في الأخلاق والدين فابدأ بإصدار أقسى الأحكام على الذين ينكرون ما به يكتوون. أما أنا وأنت فآثمان. إثمك أنك تلازم منطقة الآثام، وآثامي ها أعترف بها إثما إثما. سلّط أحكامك القاسية على جميع الناس. لا أستثني أحدا. وأبصمُ على ما أقول. لكنني ما خنت ولا سرقت ولا ارتشيت. لديّ، مثلما لدى غيري، لحظات ضعف مشتقة من آدميتي، وإلا فبأيّ شيء أكون إنسانا مثلك، حاشى قدرك السامي، ومثل سائر المخطئين ؟

أنا لا يحيّرني شيء، سيدي الحاكم، مثلما يحيّرني الجسد. تلعنه جميع الشرائع ومعظم الفلسفات، تفضّل عليه الروح. ما أتفهها

مزاعم. هل رأيت أنت أو رأى غيرك روحا في غير جسد ؟ أعجب ما فيه من ألوان العجب أن قطعة منه في حجم الرمانة تخبر بما في الأكوان وما وراء الأكوان. الحسّ جسد والإدراك جسد وكل ما في الوجود امتداد للجسد وتطوير له. في الجسد جميع المسرّات وجميع ... الأوجاع. أما أنا فقد ولعت منه بجميع الثقوب. ففي الثقب الحياة. هل سبق لك أن تصوّرت، مجرد تصوّر، جسدا من الأجساد وقد سدّت فيه جميع الفتحات وجميع المنافذ ؟ أمحتاج أنت إلى تفاصيل ؟ ثم... هل ترك الذين تعرف أكثر مني مجالا للتنافس والتبريز غير التفنن في اصطياد الغزلان ؟ ها أنذا أرددها مرات ومرات دونما كلل أو فتور.

لم أسترد أنفاسي من أتعاب المؤتمر ومتاعبه حتى بدأ ابن خالتي يستحثني على مزيد التقدّم في التفريط في المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات التي ينبغي التفريط فيها. رجوته أن يمهلني أياما أحظى فيها بشيء من الاستجمام فلم يقبل. قال لي : «تظن نفسك من ؟ إياك والغلط في نفسك ! أنت في خدمة الدولة. وفي خدمتها تظل». بلعت التهديد. دعوت رئيس ديواني وجعلت أرميه بالتعليمات. شتمته فلم يبد عليه أي ضيق. كدت أشفق عليه وأنا أحدد له الآجال ثم قلت في نفسي : «يتعب هو أفضل من أتعب أنا. أليس أن الذين ينعمون غيرُهُم هم الذين يشقون ؟».

جاءتني كاتبتي الثانية مضطربة مستسلمة تجرجر هما ثقيلا. قالت : «متى تكون فاضيا، لديّ حديث مهم». تلاحقت أنفاسي

فليست هذه عادتها في مفاتحتي في الأمور المهمّة. ثم إنه لا شيء مهمّا بيننا. حددت لها وقتا اجتهدت في أن يسبق حصص المتعة المختلسة حتى يكون مدخلا لمزيد من المسرّات. جلستْ، بعد أن شغّلت المذياع، في المقعد الذي كان يجلس دائما فيه رئيس ديواني. شبكت أصابع يديها بعضها ببعض. أطرقت وهمست : «عندي تأخير». لم أفهم أول الأمر ثم جعل ذهني يركض في غير اتجاه بسرعة مذهلة. جفّ حلقي. قلت : «أمتأكدة أنت ؟». أنعمت بإشارة من رأسها. قلت : «لكننا كنا دائما نتخذ ما يلزم...». سكتت. جعلت الدموع تنحدر من عينيها. نظرت إليها باشمئزاز وقلت : «أمتأكّدة أنت من أنك لم...». رفعت إليّ وجها مبللا. واجهتني بنظرة معاتبة. لم تقل شيئا. همّتْ بأن تتنهد وأجهشت. خطرت في ذهني المرة الأولى. كنا قد فوجئنا فيها بالتوغل بعيدا في ما لم يكن في الحسبان. قلت : «والعمل ؟». قالت : «أسترني». وعلا نشيجها. قلت : «أسترك بأيّ شيء ؟». قالت : «تتزوجني». ضحكت فارتعدَتْ مرتاعة. قلت : «هذا لا يكون. أنت تعرفين كل شيء. لدي زوجة وأولاد ومركز ومنزلة». قالت : «قلت لي مرات إنك... ؟». قلت بغيظ لم أفلح في كتمانه : «يا مجنونة. قلت لك ذلك حتى يزداد ما بيننا طيبا. ما كنت أظنّك حمقاء إلى هذا الحد». جعلت تعضّ على سبّابتها. قلت : «اسمعي جيّدا. دعيك من فكرة الزواج هذه. احذفيها من ذهنك مرة واحدة. غدا تقصدين طبيبا من معارفي. تتأكدين من أنّ المصيبة قد حصلت. بعدها نمتصّ المشكل امتصاصا. ولا من رأى ولا من سمع. إذا رغبت في أن تعودي مثلما كنت كان ذلك». ظلّت مطرقة تتحدّر من عينيها

دموع صامتة. سحبتُ مفكرتي. طلبتُ رقما. جاءني صوت صاحبي الطبيب لابسا قفازاته. تبادلنا مجاملات وقلت: «تأتيك من قِبَلي فتاة. أريد عناية خاصة». قال متهكّما: «مخطئة أخرى في الحساب؟». قلت: «هو كذلك». قال: «مرحبا بجميع المخطئات. حتى المخطئين أرحّب بهم». لعنته مرات وقلت: «أعوّل عليك». رسمت لها العنوان على ورقة وقدّمته لها. ترددتْ ثم تسلمتها. قلت: «أنت تعزين علي كثيرا. ما أفعله لك لا أفعله لأخرى أبدا. كلّ هذا لتعرفي كم أنت غالية عندي». قالت بانكسار كبير: «الذنب ذنبي. ما كان ينبغي أن أصدق». أردت أن أقول لها: «لأنك ساذجة ومغفلة وتافهة. ماذا كنت تتصورين؟ أكلما فتحت الواحدة منكن ساقيها لرجل ظنّت أنها امتلكته؟ يا لك من مسكينة». لكني أشفقت عليها فقلت: «لا تجعلي من الأمر كارثة. تسعون في المائة من النساء يحدث لهن هذا. هيا ابتسمي واخلعي عنك سواد الأفكار. سيكون كلّ شيء على ما يرام». نهضتْ مهدّمة تلملم أجزاءها بعسر. قلت: «أمنحك راحة بثلاثة أيام. سأتابع الأمر مع صديقي الطبيب».

ما كادت تخرج حتى سمعتها تردّ على الهاتف. حوّلت لي المكالمة فإذا هو صديقي الطبيب. قال: «لم أكن وحدي وفهمت أنك لم تكن وحدك. هل هي جميلة على الأقل؟». صحت قائلا: «اسمع لا تفهمني خطأ. تعرف أنني لا أدور بهذه السوق. ديني الوفاء لزوجتي وأولادي. لست مثلك. مجرد فتاة من أقاربنا الأباعد. ارتكبت في حالة ضعف خطأها الطبيعي. زلّت بها القدم. لم تكن عثورا. خفّفها من حملها واجبر ما انصدع. نحن أناس

محترمون». قال : «ما لك هجمت علي. لم أكلّمك في هذا. تذكّرتُ ابن المُبنّجة التي تعمل معي. لديها ولد يحمل شهادات راقية. كان الأوّل في كل شيء. حصل بعض من أصحابه ممّن لهم علاقات على شغل وظل هو في البطالة. أمّه تكاد تجن. أخشى أن ترتكب خطأ مهنيا». قلت : «فهمتُ. أعرف الباقي. أرسله بترجمة ذاتية مفصلة. أريد ملفا كاملا».

كبرت في عيني كاتبتي الأولى. تذكّرت نصيحتها الثمينة، لو لم تفسدها بقولها : «لا تصلح بك إلا امرأة مثلي».

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كانت بلادنا شحيحة بالموارد الطبيعية فقيرة مثل الفقر نفسه ؟ هل الذنب ذنبي إذا كانت فقيرة لأنها منهوبة أو منهوبة لأنها فقيرة ؟ مَن مِن الحكام والرؤساء، حاشا قدرك، هو الذي لم ينهب منها نصيبا ؟ كان معلّمونا في درس التاريخ يحدّثوننا عن وزير للمالية في بعض العهود القريبة التي شهدت فيها بلادنا ميلاد أول دستور في المنطقة، جمع أموال الدولة كلّها في أكياس واخترق البحر إلى بلاد الحرية فاستقبلته بلاد الحرية ببطاقة الجنسية، تلك البطاقة التي تحلم بها بناتنا ويخاطر من أجلها أولادنا بعبور صراط الموت. كنّا نضحك من ميزانية دولة يمكن أن توضع في صناديق. لم نكن نتخيّل أنّ تلك الصناديق كانت مملوءة ذهبا من ذلك النوع الذي تسمّيه نساؤنا «محبوب» والذي لا محبوب لديهن سواه. عندما أصبحت معلّما وأصبحت أعنّة بلادنا في أيدينا قال لنا الخبير البيداغوجي : «لا تذكروا للنّاشئة هذه الخرافة (أصبحت خرافة ؟) أبدا. لا تذكروا لهم إلا الصفحات المشرقة من تاريخنا». قلّبنا

كتب التاريخ وجها لظهر فلم نعثر فيها على صفحة واحدة لنا مشرقة.

كان سفير تلك الدولة العظمى الذي كان قد زارني مهنئا بالوزارة فداس على غفلة منه ومني بنعله العملاقة الخشنة إحدى الوردات التي أردتُها رمز حفاوة به ومحبة، عند وعده. أرسل إليّ مساعده الأول زائرا. كان قصيرا مدوّرا بمقدمة رأسه صلع، شديد الأناقة يحمل اسما شبيها بالأسماء التي كان من حملتها خدم كثيرون في قصور حكّامنا اللصوص. عجبت كيف يكون صاحب هذا الاسم حاملا لجنسية تلك الدولة العظمى. قلت في نفسي: «أيّ عيب في أن يخدم أربابها مثلما خدم أسلافه أربابنا؟».

قال: «ندخل مباشرة في الموضوع. قررت حكومتنا أن تساعد حكومتكم لأنّ نجاحكم في تحرير اقتصادكم مناسب لمصالحنا. صحيح أنه لا وزن لبلدكم لا عالميا ولا جهويا ولا محلّيا. (غلا لهذه العبارة الوقحة، وأقسم بمعزتكم عندي، دمي فاسودّت الدنيا أمامي وكدت ألكمه لولا أني فطنت إلى أنها من مخبوء المناورات السياسية فتماسكت مراوغة ودهاء) ولكن نجاح التجربة في بلد يُطمِع الآخرين بالمغامرة ويجرّئهم عليها. تربحون ماديا ونربح معنويا ثم ماديا. لكن حكومتنا لا تساعد لا بالهبة ولا بالعطاء. نحن نؤمن بالعمل. نخشى إذا وهبنا أن نعوّد الكسالى على الكسل. نشتري إذن نقدا ما تعرضونه علينا نسيئة».

أردت أن أطعن في تعجرفه، تلميحا، بالكلام الدبلوماسي الذي ظننت أني صرت أحذقه فقلت: «حكومتنا ممتنّة أيّما امتنان للمشاعر

الخيّرة التي تكنّها لها حكومتكم. وشعبنا يبتهل لله من الصباح إلى المساء يسأله أن يديم عليكم النعمة التي أنتم فيها. لكنكم تعرفون، سيدي، أكثر من أيّ أحد أنّ بلادنا ليس فيها شيء يباع أو يُرهن أو يُكترى. صحراؤنا ليس فيها نفط، وبحرنا ماؤه قصير، وبطن أرضنا ليس فيه معادن، ووجه أديمنا لا يكاد يقيم أود الإنسان والحيوان». أصغى إليّ بكثير من الانتباه والأدب وقال: «هذا نعرفه حق المعرفة. المعطيات التي ذكرت يمكن أن تقرأ قراءة مختلفة تماما عن هذه القراءة الساذجة. في لغتنا الضارّ ضارّ والنافع نافع وفي كلامكم العجيب «ربّ ضارة نافعة». لغتكم فيها أعطى ووهبَ ومنح وتكرّم وأغدق وتصدق. ولغتنا فيها أخذ وأعطى لا غير. تضيعون وقتا كثيرا في الكلام ووقتنا ننفقه في العمل». أخذتني الحمية على لغتنا فقلت منفعلا: «الفصاحة لنا». قال: «لست أجادل. وليس في نيتي أن أجرّدكم من فضل لا ينازعكم فيه أحد أو يرغب فيه. إنما أنازعك في قولك الآن إنّه لا شيء عندكم يباع أو يرهن أو يكترى. لو فكّرت قليلا لرأيت للمسألة وجها آخر هو شديد القرب منكم». نهض وقال: «لقاؤنا هذا نعتبره بداية تعارف بيننا. سترى، إذا روّيت فيه، إلى أيّ حدّ هو مفيد. أزورك إذا سمحت معاليكم الأسبوع القادم في مثل هذا الوقت. إني آسف فعلا للانصراف فبعد قليل أسافر إلى بلدي للتفاوض في التعليمات». رافقته إلى باب مكتبي. انصرف كالمتدحرج.

قلت في نفسي: «لا بدّ أنّ بعقله لوثة. ما هذا الكلام الفارغ الذي سمعته منه؟ هل يستحقّ أن أضرب له من أجله موعدا أو أن

ينتقل بسببه من سفارة بلده إلى وزارتي ؟ ثم أيّ تعجرف هو هذا التعجرف ؟». ظللت أفكّر في هذا الشخص الغريب محتارا، ثم رفعت السماعة أطلب من كاتبتي أن تبحث لي عن ابن خالتي. رويت له المقابلة وقلت : «ما أشكّ في أنّ صاحبنا مجنون». ظل صامتا برهة ثم قال : «المجنون أنت. ما المجانين إلا نحن. اعتبرها قاعدة سلوك».

أشهرتْ وزارتي ثلاثة مصانع للتفريط بالبيع. قضت الدراسات التي أجراها عليها الخبراء بذلك. وقفتُ على تطبيق القوانين وقفة مُعَلمِّية. كنت أردّد لرئيس ديواني: «لا غش ولا تدليس». قلت له: «ينبغي أن أحاط علما بكل صغيرة وكبيرة. اذكر لي الصغيرة قبل الكبيرة». لم تكن المصانع الثلاثة كبيرة أو عظيمة القدر لكن كانت لها قيمة رمزية. فهي التي دشنا بها إفلاسنا الأول الذي أقبلنا فيه على اشتراكية أرادوها اشتراكية خاصّة بنا فكانت لا خاصة ولا اشتراكية. كان ذلك في قصّة طويلة سمّيت «ملحمة البناء والتشييد» أعواما وعندما انقلب عليها ظهر المجن أصبح الذين أطلقوا عليها تلك التسمية يسمونها «ملحمة الإفساد والتخريب». لم نخرج من المولد دون حمص فقد غنمنا متعة بمعرفة بئرنا وغطائها. تندّرنا بالملحمتين سنين عديدة. كانت هذه المصانع ملكا للدولة. لكن الملك العام من أرذل الأملاك. ألا ترى سيدي الحاكم كيف أنّ الواحد منا إذا غالط أجهزة الدولة في ضريبة أو غافلها في مكس أو تهريب بضاعة ممنوعة أو مغشوشة

أو أفلت من مغرم أو استحوذ على ما ليس له فيه حق هزّه طرب فانتشى وقال: **«عدّيتها على الحاكم»، «حشوت فيه كراعي»** (حاشا قدركم وسمعتكم فالكلام موجّه إلى غيركم)، «رميته فيه»، «أعميته وأصميته» فضلا عن الكلام الآخر القبيح الذي أحرص كل الحرص على ألا أخدش به إحساسكم الرهيف، فأنا يا سيدي، أولا وآخرا، معلّم، للأخلاق الفاضلة عندي أرفع الرتب. كنت دائما أقول لتلاميذي: «لكم الحق في أن تكونوا حمقى وأغبياء وكسالى عُرْج الأذهان عُور العقول، فمعظم الناس هكذا، لكن ليس لأيّ منكم الحق في ألاّ يكون مهذّبا». في إحدى السنوات التي كنت أشتغل فيها بالتعليم بذلت الجهد كلّه حتى تفوز بجائزة المدرسة التي كنتُ بها بنت لم تفلح لا في النّباهة ولا في الاجتهاد ولا في التفوّق، ولكن أفلحت في حسن السلوك والاستقامة واللطف والدماثة. بنت كنت قد مكّنتها من دروس خصوصية مجانية لم تستفد منها.

الأخلاق الفاضلة التي أتحلى بها وأدعو إليها في الصباح وفي المساء وحيثما كنت هي التي جعلتني أنوّب رئيس ديواني دون غيره في استقبال العروض وجلسات التثبّت والفرز. أيُعقل أن تنتظر ممّن ائتمنتَ غشّا؟ أنتم تعرفون، سيدي حاكم التحقيق، أن هذه الجلسات تشارك فيها أطراف عدّة من عدة قطاعات مشهود لها بالخبرة والكفاءة درءا للشبهة وحسما للتلاعب والطمع.

جاءني رئيس ديواني يوما بعد الظهر محمّلا بكثير من الوثائق يمسح براحته عرقا كان يسحّ عليه سحّا. بحث في جيوبه عن ورقة

مطوية، نظر فيها وقال : «فازت بالعرضين الأولين شركة واحدة محلّية حديثة عهد بالتكوين شديدة الازدهار. وفازت بالعرض الثالث شركة أجنبية لها ببلادنا معرفة جديدة وحب طريف». قلت : «هذا جيد جدا. الأفضل هو الذي يفوز». مسح مزيدا من العرق وقال : «لم تكن أفضل العروض». قلت : «قد يسعف الحظّ من لا يستحق الصّدارة». قال : «بل كانت أسوأ العروض». صحت فيه : «في أيّ مكان أو زمان يفوز الأسوأ ؟».

فهمت بصعوبة وبعد جهد واستعادة أنّ لجنة التثبت والمقارنة والفرز قد طبّقت مقاييسها تطبيقا صارما. نظرتْ في تواريخ الوصول وفي العارضين بعين المتفحّص الذي لا يغيب عنه شيء، واستبعدتْ ما وجدت عليه غبارا أو ذرّة من غبار. فهذه لم تسدّد دَينا متخلّدا عليها للدولة، وهذه لم تسدّد ضرائبها، وتلك تتلكّأ في الدفع . وتلك تشغّل كثيرا من المعارضين أو الغاضبين على الدولة. وهذه سمعتها سيئة وأخلاقها منحطّة. لم يتمّ الاحتفاظ إلا بالشركة الفائزة فسُمْعَتُها فوق الشكوك. أمّا الشركات الأجنبية فبعضُها وراءه الصهيونية وبعضها مورّط في غسيل الأموال القذرة وبعضها الآخر متعاطف مع أعداء النظام وخصوم الدولة. لم تبق إلا الشركات التي ليس عليها غبار كثير. من سوء حظ بلادنا أن الشركتين الفائزتين هما اللتان قدمتا أسوأ العروض. قال رئيس ديواني : «فكّرنا في تأجيل البتّة ثم قلنا دينار في الجيب أفضل من عشرة في الهواء». قلت : «هل تأكّدتم من وثائق الاتهام ؟». قال : «هذا غير ممكن. أيّ السرّاق يقول أنا سارق ؟ ما هي إلاّ رائحة

تنبعث فتتلقفها الأنوف. لكن تأكّدنا من الذين شهدوا من أشرافنا في نظافتها».

أنت تعرف أكثر مني، سيدي الحاكم، أنّ حكومتنا البارّة بالمواطنين، حكومة دولة القانون يجرى على جميع الرقاب، لا تحاسب السارق إلا إذا رغبت في تقديد جلده. تتركه يسرق ويفسد، ترخي له العنان، وتسجّل عليه. فإذا تخطّى خطّا من الخطوط الحمراء التي لا تعرفها إلا حكومتنا، ولم يتدارك نفسه بالمسارعة بالانبطاح، أو لم يُولم للقروش الضارية، فتكت به أجهزة المراقبة المالية والضرائب فتكا. لهذا يثرى الأثرياء ثراء فاحشا في بلادنا في طرفة عين، وينتقلون في طرفة عين من عزّ الثراء والجاه إلى غيابات السجون، ما لم يسارعوا بالهرب. مَن مِن أثريائنا ليس له حسابات كثيرة في الخارج ؟ مَن لم يلذ منهم بحام يذبّ به عن فساده ؟

احترتُ. هذا أمر وراءه ما وراءه. لم آنس في نفسي قدرة على نقل النبأ إلى ابن خالتي. ما الذي سأقوله للمقام السامي وتقديراتي الأولية التي استقيتها من تقارير الخبراء تتكهّن بثمن يساوي أربعة أضعاف الثمن الذي تمّ به التفريط ؟. تخيلت حركة الاحتجاج العارم التي سيلجأ إليها العمّال فجفّ ريقي. تصوّرتُ النظرات الشامتة التي سيلقيها علي نظرائي في الاجتماع الوزاري فبدأ نفسي يضيق. جريت إلى الباب أبحث عن لفحة هواء فإذا بالكاتبة تكاد تمسك بي قائلة : «ابن خالتك على الخط. والخطوط الأخرى ترف». قلت وأنا أحثّ الخطى : «قولي له راجع بعد قليل. لا تتّصلي بي إلا إذا سمعت أنهم أقالوني».

هـرعتُ إلى بيـتـي. لا أدري كـيـف استـطـعـت أن أنـام قـلـيـلا. اعترضتني الشغالة التي أرسلتها الحكومة للعمل عندي. استغربتْ مقدمي لكنها قالت: «سيدتي حرم الوزير خرجت، لديها عشوية مع صديقات». قلت: «لست هنا. هل فهمت ؟». وأشرت إلى الهاتف. اندسست في غرفتي بثيابي تحت الغطاء. وجعلت أفكّر. ألحّ عليّ خاطر ظلّ ينخر في ذهني. أحاول صرفه عنّي فيعود بإصرار. «هل جيء بي إلى هذا الأتون لأقوم لهم بمهمة قذرة يتعالون عليها ؟ جيء بي لأحترق إذن ! لكن لماذا أنا بالذات ؟». جعلت أخوّض في مراجعة علاقتي الغريبة بابن خالتي. صحيح أنه كان بيننا تنافس في كل شيء. لكنني كنت المهزوم دائما. لم أغلبه إلا في الفوز بحب أمّه خالتي. كنت أعبدها وكانت تبادلني حبا بحب. ما عبَبْتُ وقت الضيق واليأس من عبير حنانها إلا أحسست بأنيّ أبعث من جديد. كنت أعابثها كأنما لو كنّا صبيانا نلعب. لم أكتم عنها حكايات حميمية لا تشوّه صورتي لديها، كنت لا أتحرّج من روايتها لها بالتفصيل. كانت تضحك حتى تدمع عيناها ويحمرّ

خداها وينضح جلدها بالعرق. وعندما كانت تسوء العلاقة بيني وبين زوجتي كنت ألوذ بها فأسرد عليها كل شيء. كانت تنصت إليّ بجد وتقول: «لم تبلغا بعد حيّز الفساد». من خالتي عرفت أسرارا كثيرة تتعلّق بالأقارب والجيران. كانت تذكرها لي بعد أن أحلف لها مرات أيمانا كثيرة بأني لن أنقلها لأيّ كان. تذكرُها بتلك الصيغة التي أحبها منها فأظل أسمع مبهورا بغرابتها وبالسحر الذي ينبعث من روعةِ الجمال في قصها. تجرّأت يوما فقلت لخالتي إني مغرم مدلّه بجارتنا فلانة. لكزتني بجمعها وقالت: «أيّ شيء تريد منها؟ اللعب لا يكون لا مع القريبات ولا الجارات» وضحكتْ فأغلبُ ما كانت ترويه لي لعب مع الجارات والقريبات. قلت: «تسدين معروفا لو...» لم أكمل الجملة حتى استبدّ بها غضب ارتفع بحسنها إلى الحدّ الذي خجلتُ منه إجلالا. لم أدر ما إذا كانت قد سعت لي في لقاء بالّتي كنت مدلهّاً بها عن قصد أم كان ذلك اتفاقا. كنت في زيارتها عندما جاءت تلك الجارة. لم تكد تجلس حتى وضعت خالتي لحفتها[22] وقالت: «أستأذنكما في ساعة». خرجت فبقينا صامتين. طال بنا الصمت. حاولت الجارة أن تخترقه بأيّ كلام فلم أقدر على التجاوب. غرقتُ في عظيم وجدي بها حتى صرت لا أقدر على النطق. وجدتني أنسحب مهزوما أكاد أبكي من الوجد والقهر. عندما زرت خالتي بعد أيام قالت لي: «لم أخَفْ عليها منك فأنت لم تخيّب ظنوني. خيّبتَ فقط أملها هي فيك. المرأة التي يختلي بها رجل فلا يحاول منها قربا

22 - ثوب من حرير أو كتان أو صوف تتلفع به المرأة إذا خرجت لشأن من شؤونها.

يكون قد أهانها. لم يعد لك حظ في تلك الجارة فابحث لك عن هوى آخر بعيدا عن منزلي». بكيت يومها بين يديها بدموع غزيرة فلم ترحم ذليّ ولم تقبل مني عذرا. كان ابنها يدخل علينا في بعض الأحيان فيقول بهزء ظاهر: «تتآمران عليّ أم على الكون حولكما ؟». نسلّم عليه فيقول مخاطبا أمّه: «لو كنت اتخذت لك زوجا كنت أحسن حالا. كان، على الأقل، يجنبك مجالسة هذا الثقيل الغبي». كنّا نعتبر كلامه مزاحا ثقيلا فلا نعلّق.

وصلت إلى مكتبي قبيل الغروب. هرعتْ إليّ الكاتبة بقائمة المكالمات التي تهاطلت عليّ. قالت: «أيهم أطلب ؟». قلت: «لا تطلبي أحدا». جاءني رئيس ديواني بمشروع تقرير في جلسة التفريط في المصانع الثلاثة. رميت به جانبا وقلت: «أنظر فيه لاحقا». غرقت في كرسي الدوّار مسترخيا.

دخلت عليّ كاتبتي مبتسمة. اقتربت من مكتبي وشغّلت المذياع. نظرتُ إليها باستغراب فقالت: «ما الذي أصابك اليوم ؟ تبدو منزعجا». قلت: «أنا ولله مهموم». وجدتني أروي لها ما جرى. قالت: «تنخر ضميرك بهموم تتوهّمها. ماذا يهمّك ؟ هذه لجنة مختلطة مختصّة ومنتقاة أفتت بما رأته صالحا. ما دخلك أنت ؟». ارتحت لكلامها. ماذا يهمني فعلا ؟ قلت بحثا عن مزيد من الاطمئنان: «يزعجني أن يفوز باللقمة من لا يستحقها». قالت: «دنيانا هكذا. أتظنّ نساء الوزراء والأعيان والوجهاء أفضل مني ؟ وأنا أتظنني أفضل من الضائعات في الشوارع والأزقة ؟ هل يستحققن دوني ما هنّ فيه ؟ هل أستحق أنا ما أنا فيه دون آلاف

الأخريات ؟». سرّى عليّ كلامها فقلت: «أنت أفضل ألف مرة من عجينة الشحم واللحم السائح التي في بيتي». قالت: «عيب. لا تذكر أم أولادك بسوء». أشرت إليها بأن تغلق الأبواب وتقترب. امتثلت. أجلستها أمامي على أحد الكرسيين. كنت في حاجة إلى شخص قريب أتحدث إليه. قلت في نفسي: «هي على الأقل لا تنصب لي فخّا ولا تضحك عليّ من ورائي».

حدثتها عن هواجسي طويلا. كانت تنصت إليّ باهتمام. شعرتُ بكثير من الارتياح. وجدتني أذكر لها طفولتي مع ابن خالتي. خطر في ذهني خاطر فقلت: «كان بينك وبينه شيء ؟». قالت: «لا. كان ينظر إلى الأعلى». سألتها عن زوجها فتأففت وقالت: «ما هو إلا مسكين». قلت: «اهجريه. صرت أغار عليك منه». ضحكت ضحكتها المثيرة وقالت: «لم أسمح له، منذ سمحتُ له بالعودة، إلا بالنزر القليل. أنغّصه عليه بالشكوى. أذكر له أني أنسِيتُ هذه الأشياء. أحتاج إلى مدّة من التهيئة والتدريب والاستعداد فيصدّق. أصبح كل ليلة يبذل جهدا كبيرا في تهيئتي دون أن يوفق». هممنا بالتحول إلى المنضدة فقالت بغنج: «أيتهما تفضّل، أنا أم هي ؟». توقّفتُ فهمستْ: «أعني كاتبتك الأخرى». قلت مجاريا: «التي تفضلك لم تخلق بعد». قالت: «لهذا هجرتني». قلت: «هذا شيء في دمي». وأصابني فتور مباغت فصرفتها.

انتظرتُ حتى ذهبت وطلبت صاحبي الطبيب. جاءني صوته وَهِناً فصحت به: «قلت لك ألف مرة لا تسرف. متى تأخذ بما

ندعوك إليه إشفاقا». قال : «ما هذا الذي فعلتَ. عفوا ما الذي فعل صاحبُنا لتلك المسكينة. أسكن في بيتها اثنين. قد نظفت المحل. لم يبق إلا تغليق الباب. هل أحكم سده ؟». قلت : «طلب منك أحد ذلك ؟». قال : «بكل إلحاح». أغلقت عليه الخط. أحسست نحوها بشيء من الحقد. ينبغي أن أصرفها إلى مصلحة أخرى.

أوحى لي الحديث مع كاتبتي الحاذقة بكلّ شيء بأن أسترشد عن الشركتين اللتين فازتا بالمصانع التي فرطنا فيها بالبيع . كلفتُ بذلك رئيس ديواني. خاطبت عين الحزب الحاكم عليّ بوزارتي. تحدثت مع مخبر محنّك بوزارة الداخلية من معارفي القدامى. كلّفته بذلك بصفة شخصية. لم يأتني واحد منهم بخبر. بدأت أحتار في الأمر. توتّرتُ حتى استبقيت كاتبتي لتزيح عني ثقل الهم الذي استبد بي. بحت لها بالقلق الذي صار يؤرّقني. قالت : «بماذا تجازيني إذا جئتك بما ترغب في معرفته ؟». قلت : «ألبّي لك أيّ طلب». وأبديتُ استغرابا وشكاّ فقالت : «لدينا حاسة سادسة ليست لديكم».

عادت كاتبتي الثانية فأمرتها بأن تعمل في الحصص الصباحية. لم يبد عليها أيّ قلق. كانت مهمومة شاحبة منكسرة الخاطر كثيرة الشرود. أصبحت تلفّ شعرها الرائع بمنديل قاتم. كانت تدخل عليّ شبه غائبة. استغربت الحزن الذي غرقت فيه. حاولت أن أخرجها من همّها على طريقتي فلم تتحرّك. بدا لي أنها لم تعد تشعر بشيء. هل يمكن هذا ؟

قالت لي كاتبتي الأولى وهي ترتّب الملفات التي كانت أمامي : «لا تسأل مجددا عن الشركتين اللتين سألتَ عنهما. أخشى أن تحترق. امض ما اقترحته لجنة الفرز والبتّ ولا تهتم». قلت : «أنت تعرفين أكثر مني أنها لجنة استشارية لا غير». قالت : «لن يتخلّى عنك أحد ما دمت تؤدّي جليل الخدمات». قلت : «ينبغي على الأقل أن أعرف لمن أؤدي خدماتي». رفعت كتفيها وانصرفت إلى مكتبها توقع بالأرداف. كدت أوقن أني تدلّيت في أتون لولا أنّ الأحداث تتالت سريعة سرعة لا تسمح بالتوقف.

في الليل وجدت زوجتي واجدة عليّ. لاحظت أنها كانت تتفاداني. قالت وأنا أستعد للدخول في الفراش : «بماذا تفسّر تغيّر رائحة عطر النساء على قميصك ؟». قلت محاولا ألاّ أنفعل : «أي قميص وأي عطر ؟ هل جننت يا امرأة ؟ سنعود مرة أخرى إلى التخريف». قالت بحدّة : «أنا التي جُنّت أم أنت الذي جننت. تكذب علي وتزعم أن مشاكل الوزارة قد استنزفتك وأن عطر الداخلات والخارجات يطير منهن فينشب في قمصانك». انفلت اللسانان، لساني ولسانها. لكنها غلبتني مثلما كانت تغلبني دائما. كنت أهرب من سلاطة لسانها إلى خمّارة شابيط أو أيّ مكان آخر. لم أشعر هذه المرة إلا ويدي تلطم خدها لطمة ألقت بها على الفراش. كادت تولول. لكنها تماسكت وانخرطت في بكاء حار. كانت المرّة الأولى التي أمدّ فيها عليها يدي. وجدتني لا أندم على ضربها فقلت : «في المرة القادمة أأدّبك يا عديمة التربية».

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان الرجال أمتن عضلات من النساء وأقل منهن عقلا ؟ ستقول لي : «المتواتر في العقل عكس هذا» فأقول لك : «دُوَيْوُ ! ما هي إلاّ حيلة احتال بها الرجال عليهن ففطنّ لها فتظاهرن بتصديقها وتركنها تمرّ. لو لم يكن لهن فيها مغنم ما تظاهرن بتصديقها».

لم تترك لي زوجتي الغرفة. لم تهجر الفراش. بكت مدة ثم نامت. نامت نوما عميقا مرتاحا بينما بقيت أتقلب على النيران. أصابني منها خوف. لو كانت ردّت عليّ فضربتني بيدها مثلما كانت تضربني بلسانها، لو كانت قد نزلت فيّ شتما وسبا مثلما كانت تفعل في قديم معاركنا، لو كانت قالت، بعد تلقي الضربة، شيئا، ما كنت أخاف منها. أمّا أن تتّخذ هذا الموقف فقد أصابني منها توجّس. أعرف أنّه لن يهدأ لها خاطر حتى تصيبني بأذى. لكن أيّ أذى يمكن لها أن تلحقه بي أنا زوجها وأبو أولادها والوزير الذي تتفيأ تحته ظلالا لم تكن تحلم بها ؟

أصبحت مكدّر المزاج منكّدا من الليلة التي قضيتها فريسة للهواجس والأوهام. ما كدت أدخل إلى المكتب حتى أرسل ابن خالتي في استدعائي. كنت قد عرفت من ملخصات الأحداث والوقائع التي كانت ترد علينا في ظروف سرية أنّ عمّال المصانع الثلاثة يستعدّون للتحرّك احتجاجا على التفريط في موارد رزقهم ورزق أولادهم على ذلك النحو المزري. في الملخصات أنّ الحاقدين على الدولة في ما تحققه من نجاحات يستعدون لركوب الحدث، أجروا في ذلك اتصالات ببعض المنظمات المهنية والإنسانية التي يحقد أصحابها على بلادنا. استقبلني ابن خالتي استقبالا فاترا. قال: «سيادته غير مسرور بأداء وزارتك. ذكرتَ له في تقاريرك ودراساتك أنّ التفريط في المصانع الثلاثة يسدد ما عليها من دين ويحلّ ما ينتج عن ذلك من تبعات اجتماعية ويوفّر فائضا. لم يدخل من الصفقة الأولى إلا ما يغطّي نصف الدين».
قلت: «ليست حساباتي هي الغالطة. الغلط في الإجراءات المعقّدة التي تطبقونها في التفريط في أملاك الدولة. لو كان قد فاز

بالصفقة صاحب أفضل عرض ما وقعنا في هذه الورطة. أيهمني سوء أخلاقه إذا كان سيدفع نقدا ؟». ابتسم وقال : «ما كنت أظنك غِرّا إلى هذا الحد. يفوزون بالصفقة فلا يدفعون. يظلون يماطلون إلى يوم الدين. تتصوّر التفريط في ممتلكات الدولة بيعا للخردوات في سوق الثياب المستعملة». لبستني العزة المُعَلّمية فقلت : «ماذا تريد مني ؟ أن أستقيل !». ضحك حتى انخلع قلبي وقال : «الوزراء الفاشلون نقيلهم ولا يستقيلون. نرمي بهم في عالم الظلمات. أدخلها مرة واحدة في ذهنك واحضنها جيدا. أنصحك أولا بأن تتدبّر أمورك لمواجهة المشكل الاجتماعي. ثانيا تشهر مؤسسات ومصانع أخرى للبيع . اختر منها التي تنسينا هذه الكارثة. اجعل التوفير غاية الغايات. ابحث لنا ثالثا عن مصادر للدخل أخرى ترفع بها منزلتك لدى سيادته». لم أفهم شيئا لكنّي شعرت بأنّ الفخّ قد انطبق عليّ. تظاهرت بالاقتناع ونهضت فقال : «ما هذا البحث المحموم عن الشركتين الفائزتين ؟». لم أجد ما أجيبه به فانسحبت مهزوما مهموما أداري غصصي حتى لا يظهر عليّ انفعال.

بقيت أقلّب النظر في ما سمعته من ابن خالتي إلى قرابة الظهر. تحاشتني كاتبتي. تحاشاني رئيس ديواني. لم يكلمني أحد. بدأ يستبدّ بي الضجر عندما طلبني زميلي السيد وزير الداخلية. إنها المرة الأولى التي يطلبني فيها. كنا نتهيبه رغم يقيننا من أنّ الخيوط لم تكن بيده. قال بنبرة هادئة جدا : «الإجراءات التي اتخذتم بدأت تشعل علينا البلاد. لديكم تصور لمواجهة الوضع أم لا ؟ الحل الأمني في سياسة سيادته هو آخر الحلول». تلعثمت ثم أفلحت في

أن أقول : «لديّ سيناريوهات متنوعة لم أتبين بعد أفضلها. قد أحتاج إلى مشورة من نوع خاص». قال بهدوئه المستفز : «تحيطوننا علما بما يقر عليه الرأي. بالنسبة إلى المشورة أقترح عليكم مستشاري للشؤون السياسية». طلبت من كاتبتي أن تطلبه لي في الحال. دعوته إلى زيارتي في أقرب وقت. عادت كاتبتي الأولى تحوم حولي. كان يبدو عليها تردّد. قلت لها : «عندك شيء ؟». قالت : «تثبّت من قدميك أين تضعهما ؟». شعرت بأنها كانت تحصي عليّ الحركات فقلت في نفسي : «لصالحي ما في هذا من شك».

جاءني مستشار زميلي وزير الداخلية السياسي. كان رجلا لطيفا جدا. سألني عن تصوّري لمواجهة الأزمة. ذكرت ما خطر على البال ممّا كان قد أوحى لي به ابن خالتي فقال : «في العمل السياسي نسبة من المقامرة لا بدّ منها. الناس مولعون بما يصدم المخيلة. ما تفكّر فيه جيّد كله. المهم أن تتبين الأفضل». لم يسعفني بشيء واضح لكني أفلحت في الحصول منه على الباب الذي يوصلني إلى الشركتين اللتين فازتا بالمصانع الثلاثة. أعطاني رقمين وقال : «أستبعد أن تصل إلى ما تريد». ما كاد يخرج حتى طلبت الرقم الأول. جاوبني صوت فيه حشرجة تشبه خفيف حكّ الحديد على البلاط. أثبتني فجعل يصيح بكلام من قبيل : «يا أهلا وسهلا. يا للشرف العظيم». سألته عمّن هو فقال منتفخا : «الوكيل العام لشركة...». توقف ثواني وقال : «يا للشرف العظيم. كنت أنتظر أن تشرّفونا بهذه المكالمة. هل عندكم من يشتري ؟». فهمت أن لسانه المحشرج بخفيف كرّ الحديد على البلاط قد سبقه فلم أعلّق.

جعل يقول : «الأولوية لكم. وصلنا إلى ثلاثة أضعاف الثمن». قلت بنبرة محايدة تدرّبت عليها طويلا حتى صرت أتقنها : «لم أكلمك في هذا يا حضرة الوكيل العام. بلغني أنكم تبيعون فأردت أن أنبهكم إلى ضرورة احترام الفصول المرافقة للبتّة. راجع كراس الشروط». ذهب انتفاخه فقال : «نحن لا دخل لنا في شيء. اشترينا بالأمس ونبيع اليوم. الذي يحصل العقار في ملكه يدفع الثمن». أنهيت المكالمة بكلام عام جدا. بدأت أفهم.

دعوت رئيس ديواني. ما إن دخل حتى صحت به : «كنت طلبت منك اسمَ مَن وراء الشركتين المحليتين فلم تردّ خبرا. الظاهر أنّ لك يدا في العجين ؟». بوغت فجلس دون استئذان. ارتفعت يده إلى شنبه المنفوش يمسك به وقال : «لا دخل لي في أيّ شيء. قالوا لنا «الجلسة سر مطبق» فأقسمنا على ذلك». قلت : «هات الصحيح». ذكر لي أن من الشركات حديثة العهد بالنشوء شركات تشتري على وعد بقرض من البنك وتبيع ما اشترت فتكسب فرق ما بين العمليتين. أشار بيده إلى الأعلى مرات حتى خلته يومئ إلى صورة سيادته فوق رأسي فكدت أوبّخه.

تبيّنتُ فجأة الأسباب العميقة التي كانت وراء استدعائي دون غيري إلى هذه الوزارة. أيكون التعفّن في دواليب الدولة قد وصل إلى هذا الحدّ فعلا ؟ أأكون مظلّة النجاة الصّدوق الوحيدة ؟ ألهذا السبب لجأ إليّ ابن خالتي وهو ما هو دهاء ومعرفة بخبايا الأمور ؟ تجلّت لي فجأة أهميتي. شعرت بكثير من النخوة. امتدت يدي إلى درج مكتبي تبحث فيه عن قائمة الممتلكات المرشّحة للبيع.

استعرضتها حسب الترتيب الذي همس لي به رئيس ديواني بناء على مبدأ التدرّج من الأصغر إلى الأكبر. شممت وراء ذلك الترتيب الذي دافع عنه طويلا رائحة كريهة. أخذتُ قلمي وعلّمتُ على مصنع كبير جدا له في كثير من الجهات فروع متفرّعة. قلت في نفسي : «نبدأ به قبل أن تعدّ له القروش الضارية عدتها». ستكون اللقمة أكبر من جميع الأفواه. فليغصّوا بها إذا رغبوا في الاختناق. لن تقدر بنوك عديدة مجتمعة على تقديم الغطاء لأيّ كان».

انتشيت. اكتشفت أني مهم فعلا وأنّ ابن خالتي أدهى من جميع الدّهاة. أومأت لكاتبتي القديمة بأن تبقى للسر الذي بيننا. اقتربتْ مني وهمست : «لست أصلح». أسفت لهذه المنغصات. دعوت رئيس ديواني لأطلعه على ما كنت قد عزمت عليه. دخل مستوحشا متوجسا يدسّ رأسه بين كتفيه فداخلني فيه شك. أرجأت إطلاعه على قراري إلى ساعة أخرى. قلت له : «دعوتك لأمر غاب عني. عد إلى مكتبك. أدعوك إذا تذكّرت». لم يبق ما يشدني إلى البقاء في مكتبي فخرجت.

ثقل عليّ أن أعود إلى البيت. كنت متخوّفا ممّا قد يحدث بيني وبين زوجتي. أمرت السائق بأن يضرب بي في الشوارع ثم تركنا المدينة إلى بعض الضواحي. تمشيت على شاطئ مهجور قليلا. أصبحت أشك في الجميع . حتى نفسي صرت أشك فيها.

عندما عدت إلى البيت ألفيته ساكنا. حمدت الله على أن الجميع قد غيّبهم عني النعاس. جلست قليلا في قاعة الاستقبال

واتجهت إلى غرفة النوم. حمدت الله مرة أخرى عندما شاهدت زوجتي غارقة في سبات هادئ. بدت لي عيناها منتفختين. اندسست في الفراش برفق. وظللت أفكّر إلى أن نعست. كنت مسرورا.

زارني مستشار سفير الدولة العظمى. شككت في أن يكون قد سافر إلى بلده بُعَيد لقائنا الأخير. لم يشر إلى شيء من ذلك. قال: «نحن ننظر بكثير من الإعجاب إلى الشجاعة التي تصلحون بها شؤونكم. جئت لأعبّر لكم عن صداقتنا، وعن تهانينا. وقد فكّرنا طويلا في ما يمكن أن نساعدكم به. نحن لا نهب ولا نعطي ولا نتصدّق. نخشى أن يتعوّد أصدقاؤنا على الكسل». تأذّيت من هذه الأغنية السّمجة التي لا يكفّ عن ترديدها. هممت بأن أقول له إنه ليس لدينا ما يباع أو يرهن فاستثقلت ذلك. تذكّرت أنّ أجدادنا كانوا يقولون: «السكوت من ذهب» فسكتتُ. قال: «رأينا يا صاحب المعالي أن نستأجر منكم جميع ما لا يصلح لكم». بدأت أتأكّد من أني أمام مجنون فبدرت مني حركة استغراب التقطها فقال: «يبدو لكم كلامي غير مفهوم. إني أعني ما أقول». قلت: «إذا كان ما تنوون تأجيره لا يصلح لنا فكيف يصلح لكم؟». ابتسم وقال: «سؤال ذكي جدا. اسمح لي بأن أقدّم لكم تهاني على هذه الفطنة المتوقدة». شرب قليلا من الماء وقال: «نكتري

منكم سمك البحر دون أن نقوم بصيده. ونكتري منكم الصحراء دون أن نفحص عمّا في بطنها. نحن نعرف أنه ليس في بطنها شيء. ونكتري منكم بعض المناطق غير الصحراوية دون أن نقوم بزيارتها. نكتري منكم الفضاء ونترك الهواء لكم. إذا كانت لفظة الكراء تؤذيكم استعملنا لفظة أخرى. فلغتكم الفصيحة ملآنة بالمترادفات التي لا تؤذي ولا تغني. نأخذ منكم هذه الأشياء التي لا تصلح لكم لمدة تسعة وتسعين عاما فقط». تأذّيت من استهانته بلغتنا رغم أني لا أعتبرها بديعة أو لا مثيل لها بين اللغات فكدت أوقف التفاوض انتصارا لها من وقاحته. طلب مني أن أفكّر مليّا في العرض حتى إذا ملنا إلى الموافقة تحدثنا في الثمن. أزعجتني لفظة «الثمن» فارتفع ضغطي. قال بنبرة واثقة: «البحر لا يصلح لكم. أنتم لا تقدرون على صيد السمك الذي فيه. ينهبه أجواركم فلا تقدرون على صدّهم. والصحراء لا تصلح لكم، لم تعد النوق نفسها ترتادها. ثم إنه لم تعد لديكم نوق. وفضاؤكم ليس في أيديكم، أسطولكم الجوي الصغير لا يمخره إلا مرات في الأسبوع معدودة. أما الحربي فهو معدوم». بدأت أحقد عليه وعلى الحق في كلامه. قلت: «من كان واثقا في صلابة جبهته الداخلية لم يحتج إلى سلاح ثقيل. ومن كان مثلنا يعبد السلام لم يخش أحدا». تظاهر بأنه لم يسمع. شاهد كاتبتي تدخل مثقلة برزمة من الملفات، وكان قد شاهدها وهي تدخل بالقهوة والمشروبات، فقال: «مقابل أي عمل تتقاضى الكاتبة راتبها؟» قلت وقد بدأ يساورني شك في أنها قد حَلتْ في عينه: «على الطباعة والرد على الهاتف والحرص على المواعيد وعلى حسن الاستقبال والسهر على المكتب». قال:

«جميل. كاتبة متعددة الاختصاص». نهض فازددت يقينا من أن بعقله لوثة. هل كان يعرض عليّ، لو لم يكن كذلك، كراء الصحراء والبحر والفضاء ؟

أبلغت رئيس ديواني أني قرّرت إشهار المصنع الكبير للبيع. ظهر عليه اندهاش قوّي. قال : «ألم يكن الرأي أن نبدأ بالمعامل والشركات والمصانع الصغيرة حتى يعتاد الناس على التفريط في الممتلكات التي عاشوا طويلا على أنها لهم ؟». قلت : «رأيت غير ذلك. أنت مطالب بالتنفيذ وفي أقرب فرصة». صرت لا أرتاح له. طلبت من كاتبتي الحزينة أن تأتيني من مصلحة الموظفين بملفه. انقضى الصباح كلّه دون أن يصل الملف فتظاهرت بتجاهله.

ذهبت إلى زيارة ابن خالتي بعد التأكّد من أنه غير مثقل بالمواعيد. استقبلني بفتور كنت له متهيئا. لم يسألني عمّا فكرت في اتخاذه من تدابير لمواجهة المشكل الاجتماعي الذي أصبح يغلي في الأفق. قلت له : «نبيع المصنع الكبير قريبا». تفاجأ. تأكّد لديّ أنّ رئيس ديواني لم يسبقني إليه بالخبر. قال : «ما الداعي إلى تحوير الأجندا ؟». قلت : «لدي شكوك في بعض الناس». ظهر عليه اهتمام كبير فقال : «من تقصد ؟». قلت : «عندما أتأكد أخبرك. أما الآن فلا أريد أن أسبق الأحداث». شعرت أني علوته فداخلني طرب. لم يدعني أمشي قبل أن يقول : «كاتبتك الثانية لماذا تسببت لها في ذلك الحزن». قلت بسرعة كأنما كان الجواب جاهزا من مدة على لساني : «كان عندها مشكل عاطفي تخلصتْ منه. هي الآن تتداوى من جراحها. أفكر في نقلها إلى مصلحة أخرى. لم يعد

انتباهها يرضيني». قال : «لا تنس أنها ابنة صديقة قديمة من صديقات أختنا السيدة الأولى». قلت : «لست بناس. قد وضعتها على الرأس وجعلتها في سواد العين». قال : «بطل على النساء... الوضيعات، كعهدي بك». أطلقنا في وقت واحد ضحكة من القلب مدوّية تذكرنا بها واقعة من وقائع الصبا مخجلة. فقد ضبطنا جارة لنا تسرق لوزاً لنا كنا نجفّفه على السطوح. جعلت تسترحمنا. قال لها ابن خالتي وكان يقصد إلى الإمعان في إحراجها : «إذا مكنتنا منك سترنا عليك». كان ينتظر رفضا فامتثلت. أما هو فلم يقدر على شيء. وأما أنا فقد توفقتُ. أعطيتها من اللوز أكثر مما كانت تنوي سرقته. وشى من شدة غيظه بي. أصابني من أمي عقاب شديد ومن أبي عقاب أشد. سمعت خالتي بالحادثة فسرّها فساد أخلاقي مثلما سرّها حسن أخلاق ولدها.

عدت إلى مكتبي مرتفع المعنويات فرحا. هذا يوم جميل حقا. كدّرت فيه رئيس ديواني وعلوت ابن خالتي ونزل عليّ إلهام من السماء. إذا مشت الأمور على ما أشتهي وفّرْتُ للدولة مالا لم تكن تحلم به. بثمن المصنع الكبير نجبر جميع الحالات الاجتماعية المتضررة من التفريط في ممتلكات الدولة ويبقى الكثير. وبرَيْع كراء ما لا يصلح لنا نوفّر عملة صعبة خيالية. شعرت أن إقلاع هذه البلاد سيكون على يدي. لم أشك يوما في أن يد المعلّم كلها خير وبركة. لم أنقبض انقباضا خفيفا إلا من حرماني من إتمام فرحتي. فكاتبتي القديمة في حالة غير صالحة وكاتبتي الثانية غارقة في حزن لا تبرحه.

عدت إلى بيتي باكرا فألفيت زوجتي نائمة. استغربت أن تنام باكرا. ظل الأولاد ملازمين غرفهم. جلست في قاعة الاستقبال مدة واتجهت إلى غرفة النوم منزعجا من قضاء ليلة كان من المفروض أن تكون من أبدع الليالي. استرعى انتباهي وأنا أتهيّأ لدخول الفراش خفيف زرقة في محاجر عيني زوجتي. انقبضت. كانت تلك الزرقة تظهر عليها إثر الوصال الموفق. كنت أعابثها بالإشارة إليه فلا تغضب. أذكر أننا كنا نسترها بالغبرة البيضاء حياء وبنظارات سوداء مزيفة من الماركات العالمية. دقّقت فيها النظر فبدت لي مخايل تلك الغبرة تحت أجفانها. جعل قلبي يدق بعنف. اشتعل فيّ لهيب. أتكون قد فعلت شيئا ؟ لم أستطع يوما أن أتخيل أنها يمكن أن تقدم على شيء من هذا. جلست على حافة الفراش مفكرا. هل أوقظها ؟ مع من يمكن أن تفعل فعلتها ؟ هل تجرؤ ؟ أهو انتقام من إهمالي لها ؟ بدأ الغضب يستبدّ بي. أيّ المواقف أتخذ إذا كانت قد تجرأت وفعلت ؟ هل فكرت في أولادها ؟ ماذا يقال عنها وعنهم ؟ وأنا ما الذي سيقال عني ؟ كيف سينظر إليّ ذلك الذي فعلتْ معه ما فعلت ؟. لم أعد أقدر على الجلوس فقمت واتجهت إلى قاعة الاستقبال مترنحا. أهذا جزاؤها لي ؟ صحيح أني لم أكن وفيا لها. لكنني رجل أنا. ألاّ أفي لها ليس يعادل ألاّ تفي لي. النساء اللاتي عرفتُ أنا الذي تمتّعتُ بهن. أنا الذي أخذ. هن اللاتي أعطين. أما هي فكيف تجرؤ على أن تمنح غيري محاسنها. أصبح اللهيب حريقا. استلقيت على الأريكة أغالب قهري. قالت لي خالتي مرة وقد تجاذبنا أطراف الحديث عن خيانات النساء :

«تخون المرأة للكلمة الحلوة لا تجدها عند حليلها وتخون لذات اليد وتخون انتقاما. أما بنات الأصول فلهن كرامة ترفعهن عن الخيانة». كنت أعتبر زوجتي إحدى بنات الأصول.

قد كثرت في الآونة الأخيرة عشوياتها وتنوّعت. عشويات لا أدري، على وجه الدقّة، مع من كانت تقضيها ولا أين. كانت قد لّمحت إلى ذلك منذ مدّة غير أني كنتُ مشغولا عنها لا أسمع كلامها إلاّ بنصف أذن. كانت تتناهى إليّ نتف من أخبار عشويات نساء الأثرياء والمتنفذين كنتُ أعتبرها مغرضة. الخيال المريض مثل المجتمع المريض والثقافة المريضة لا ينتج إلا الهلوسات. قالت لي زوجتي مرة عندما أصبحت مغرمة بتتبّع الأخبار لا تفوّت منها شريطا معلقة على زميل لي بإحدى الوزارات: «صورته في الواقع بشعة جدا فماذا فعلوا له حتى صار مقبول المظهر؟». قلت بنبرة غير مبالية: «تعرفينه؟». قالت: «كنّا عند أخته بإحدى العشويات عندما مرّ عليها مسلّما. ظللنا نتعجب من دمامته». هل كان يتردد على تلك العشويات النسائية رجال؟ بدأت أعصابي تحترق. أيكون من نظرائي الذين أمقت من ولغ في وعائي؟

لا أدري كيف استغرقني نوم كنت أعتقد أنه لن يكحّل جفوني. أفقت على زوجتي تهزّني من كتفي وتقول: «ما لك تنام في قاعة الاستقبال. هل بك سوء؟». هممت بأن أقول لها: «بي جميع أنواع السوء»، إلا أني جعلت أفرك عيني وتنهدت بحرقة. سرتُ وراءها إلى غرفة النوم متثائبا أداري رغبة في خنقها. وعندما تمددت على الفراش لاحظت أن رقعة الزرقة قد اتسعت تحت

جفنيها. قلت متعلّقا ببصيص من الأمل : «ماذا أصاب عينيك ؟». قالت : «تورّمتا فوضعت فيهما كحلا من نوع جديد دلتني عليه الشغالة». قلت : «دعيني أرى». قربت منها وجهي. تأملتها. بللت قطنة بماء الورد دعكت بها ما تحت الجفن أبحث عن آثار تلك الزرقة التي كادت تهد كياني. لم أعثر منها على أثر فعانقت زوجتي بجميع ما أملك لها من حب وكره ومقت وضيق. تضاحكتْ وقالت : «مالك الليلة ؟ أحب أن أنام». نمت وأنا أقسم بأغلظ الأيمان على أن أكون لها وفيا إلى الممات.

ما إن حللت بمكتبي حتى حبّرت دفعة واحدة تقريرا ضمنته ملخصا لزيارة مستشار سفير الدولة العظمى وعروضه التي إن صدقت كان الربح فيها مضمونا والخسارة منعدمة. ذيّلت التقرير باقتراحاتي في شأن تقديم الأهم على المهم. ورفعته إلى المقام السامي مع تحويل نسخة إلى ابن خالتي حرصت على أن أدمغها بعبارة نظير. شعرت بكثير من الارتياح وآنست في نفسي قدرة هائلة على الابتكار.

كلّمني رأس المنظمة الشغيلة، ذلك الذي يسمي نفسه «الأمين العام» فيرتعد منه نظرائي ارتعادا، طالبا مني النظر في إمكان عقد اجتماع ببعض من أعضاده لحل المسائل الاجتماعية العالقة. صحت به، رغم أن لهجته معي كانت مهذبة : «دعونا يا سيد نشتغل. أمسكوا عمّالكم. مصلحة البلاد فوق جميع الاعتبارات». يبدو أنه صدم بكلامي. سمعته يقول : «هكذا إذن ! طيّب. أعتذر عن الإزعاج». لم أندم على ما بدر مني. قلت في نفسي : «لا يفهمون إلا هذه اللغة». وازددت امتلاء بالإحساس بأهميتي.

لم أخرج من مكتبي إلا بعد أن اطمأننت على أن كل شيء يسير حسب ما صرت أخطط له. دعوت رئيس ديواني فجعلت أقرّعه حتى يسرع بإنجاز التراتيب الخاصة بالتفريط في المعمل الكبير. حامت حولي كاتبتي القديمة مرات. همّت بأن تضع يدها على المذياع فأشرت إليها بأن تقرب مني أذنها. عانقتها وقلت : «افتضحنا. انتظري حتى أعثر على عش يكون لنا خميلا».

أصبحت أعود باكرا إلى بيتي. ظفرت بشيء من الوقت للأولاد فتفقدتهم. رغبت في أن أتعرّف على التحوّلات التي أدخلها عليهم اضطلاعي بشؤون الوزارة. تحدثت إلى ابنتي الكبرى فوجدت حبل التواصل بيننا منقطعا. كانت أجوبتها شديدة الاقتضاب. لم تكن عيناها تواجهان عيني. لاحظت أنها كانت تضع كحلا في أهدابها وأن على شفاهها بقايا حمرة لم يذهب بها إسراعها إلى محوها عندما شعرتْ بأني آت إليها. أنكرتُ الولدين. سمعتهما يذكران رغبتهما في قضاء العطل في منتجعات خاصة بأبناء الأعيان. كانا يلوكان الكلام لوك المخنّثين من طول ما تدرّبوا على تقليد أولاد الذوات. عبّر كل منهما عن رغبته الشديدة في الانتقال إلى معاهد أخرى يتردد عليها أبناء كبار القوم. كانت ابنتي الصغرى هي الوحيدة التي لم تتغير. أطلعتني على أشيائها الصغيرة بفرح ظاهر. قالت لي : «هل صحيح أن جميع الوزراء يذهبون إلى جهنم ؟». قلت : «لا. ليس صحيحا. الوزراء مثل سائر الناس. من كان مستقيما وعمل خيرا ذهب إلى الجنة. ومن كان خبيثا وعمل شرا ذهب إلى جهنم». ضحكتْ وقالت : «لكنهم

مفسدون». قلت لها: «ليس أكثر مما يفسد الآخرون». كنت راضيا عن صغيرتي مستوحشا مما لحق إخوتها من تلوّث.

توقّعت أن يبدأني رأس المنظمة الشغيلة بإطلاق النار عليّ فلم يفعل. كان أدهى مما توقعت. انتظرت أن أجد تعطيلا أو عرقلة من رئيس ديواني في تنفيذ التعليمات فلم أر عليه إلا الإخلاص والتفاني. أشعرني ابن خالتي بأنّ المقام السامي لا يعترض على اقتراحاتي وحثني على مقابلة مستشار السيد سفير الدولة العظمى للتعرّف على الثمن الذي يعرضه. لم أستطب أن يَرِدَ عليّ الردُّ بهذه الطريقة. كنت أنتظر مكتوبا موشّحا بكثير من الثناء على عبقريتي. لكني دعوت السيد المستشار. كنت غير متحمس له. فأنا لم أحب يوما طريقته المتعالية في الكلام. ثناؤه على ما لا يستحق الثناء يزعجني. تحامله على ثقافتنا يدفعني دفعا إلى أن أشبعه صفعا وشتما. كان من سوء تدبيري أني دعوته إلى عشاء على حساب الوزارة في أحد المطاعم الفاخرة. كنت عازما على أخذه غرّة عند إطباق السّكر عليه لحظة تناول المهضّمات. غاب عني أنه لا يشرب مثلنا حتى يتعتعه السكر. تناول كأسا واحدة وقال: «في هذا كفاية». دعوته إلى المزيد فقال: «تريد أن تقتلني!». شربت من شدة الغيظ نصيبه ونصيبي. وعندما طرقنا الموضوع الذي اجتمعنا عليه قال إنه ينتظر إذنا من المصالح المختصة في بلده. لعنته في سري ولعنت بلده.

كانت الأمور تسير وئيدا عندما أقدمت والأولاد في مدارسهم وزوجتي عند خياطتها على إجراء تفتيش في أمتعتهم. كانت

التغيّرات التي أصابتهم قد زرعت في ضميري تساؤلات عملتُ على تجنبّها فلم أفلح. بدأتُ بغرفة البنت الكبرى. تهت في التأثيث الجديد الذي ملأتها به. اهتدت عيني الخبيرة ، عندما ألفت المكان، إلى ما كنت أبحث عنه. ففي زاوية قصيّة بالدولاب القديم عثرت على ملف مدسوس في ظرف زريّ. فتحته بحذر وتوجّس. ألفيتُ فيه رسائل وصورا من صديقات. بدأت أطمئن عندما ظهرت لي صورة رجل تجاوز شبابا ما زال يتعلّق بأذياله. قلبت الصورة فإذا على ظهرها تاريخ قريب وكلمة «قبلاتي الحارة» بلسان أجنبي. ارتفعت حرارتي. تلاحقت أنفاسي. عدت أفتش في الملفّ. عثرت على رسالة مقتضبة فيها : «أنت أحلى من جميع الحلوات. أعدّ الساعات منتظرا لقاء مثل الذي كان بيننا بالأمس». لم أعثر على تاريخ. فحصت الأوراق بإمعان أشد فعثرت على صورة أخرى لذلك الشخص نفسه. كان في زيّ السباحة على ذراعه وشم وعلى صدره وشم آخر وفي عنقه سلسلة كريهة. غاظتني نظرة وقحة تنبعث من عينين خبيثتين. أثارني فم له شهواني قبيح. صررت على أسناني وقلت : «يا فاسقة». قوي عليّ الضغط. جفّ حلقي. أحسست بحاجة ملحّة إلى التبوّل وبوجع في أسفل البطن. أعدت الملف إلى مكانه على عجل. وذهبت إلى غرفة النوم. تمددتُ على الفراش. أحسست بالدنيا تميد بي. وجدتني أنقم على زوجتي نقمة أظلمت لها عيناي. لو كانت متيقظة فطنة ما كان ليغيب عنها شيء. لا تفهم الأنثى إلا الأنثى.

ظللت في غرفتي إلى أن عاد الجميع. قالت زوجتي : «عدت اليوم باكرا». قلت : «انتهيتُ ممّا كان بين يدي». سمعت الأولاد

كـلاًّ يـذهب إلى غـرفـتـه ويشـغّل الأجـهـزة الـتي كـان يـحـلـو لـهـم تشغيلها. لم أسمع حركة ناحية غرفة البنت. تظاهرتُ بالذهاب إلى الحمام ومنها ذهبت إلى قاعة الاستقبال. كانت زوجتي أمام التلفاز تلوك علكة. سألتها عن ابنتنا الكبرى فقالت : «لديها اليوم تمرين على السباحة». تظاهرت بأني فهمت. منذ متى أصبحت لها تمارين في السباحة ؟ أيجري ما يجري في بيتي وأنا لا أعرف ؟

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان الواحد منّا يعتقد أنّ ما يصيب الآخرين لا يصيبه هو. فنساؤنا وبناتنا وأخواتنا وأمهاتنا، في يقيننا، عفيفات شريفات نظيفات فاضلات لا يعتريهن ضعف ولا يستميلهن هوى ولا تغلبهن نزوة. وأولادنا مستقيمون فضلاء. ما يصيب الآخرين لا يتلطّخ به ذوونا أبدا. إنه نتيجة تربية سيئة وثمرة انحرافات قديمة وجديدة يستحقّها الآخرون. أمّا نحن فقد نقّينا أصولنا من جميع الشوائب.

أنصـحك، صـادقـا سيـدي الحـاكـم، بألاّ تفـتّش تحت سـريـرك. أخشى أن تعثر على ما يسوؤك. أما أنا فقد فتّشتُ تحت جميع الأسرة في بيتي فانتقلت من مفاجأة إلى مفاجأة أغرب وأدهى. ظـلـلت لا أفـلـح في ابـتـلاع حـنش إلا أرغـم عـلـى ابـتـلاع ثـعـبـان. وجدتني أشدّ على شعري وألعن قولهم «علم الشيء ولا جهله» لأقول «جهل الشيء ولا علمه». ينبغي أن نعكس جميع الحكم عسى أمورنا التي طال بها الاعوجاج يلحقها شيء من الاستواء.

اكتشفت في اليومين اللذين قمت فيهما بتفقد شؤون أسرتي أن التحولات التي دخلت عليها كانت أعمق من كلّ تقدير. أما ابنتي

الكبرى فقد عثرتُ على أنها كانت تتعشق ثلاثة أشخاص أحدهم ذلك الجلف الذي ضبطتُ صورته في أوراقها، والثاني جلف من نفس طينته، والثالث صعلوك ضائع من الصعاليك الذين كانوا يرابطون حول مدرستها بعد طردهم منها. شدّدت عليها الخناق فاعترفت ولو كنتُ ضغطتُ أكثر لكانت قد اعترفت بأكثر من هذا العدد. تقوّض داخلي. كم سنّها ؟. قد تجاوزت السابعة عشرة بقليل. لم يؤذني أن تكون قد دخلت الحلبة باكرا بقدر ما آذاني أن تكون قد اقتحمتها من باب التعدّد مع أوباش امتطوا لها صهوة المراهقة. لو كان الأمر مجرّد ملاعبة ومداعبة مع أتراب لها من النابهين هانت. أمّا أن تصبح مثل مومس من سقط المتاع فهذا ما لم أقدر على تحمله. صفعتها مرات. بصقت عليها. لم تزد على أن همهمت : «كل بنت لها بوي فرند». تمنيت لو كان لديّ سيف فرند أقدّها به قدّا. اكتفيت بأن جررت إليها أمها من شعرها وأنا أصيح : «تفقدي ابنتك العاهر يا محترمة».

اكتشفت أن أكبر أولادي، هو الثاني في الترتيب، يتعاطى المخدرات. ابتدأ، قبل أن أصبح وزيرا، بالتدخين ثم انتقل مع صعودي إلى كرسي الوزارة إلى الكحول والمخدرات. ابتدأ بالاستنشاق ثم انتقل إلى الحبوب والحقن. كان يتزوّد من أمام المدرسة التي كان ينهل منها العلم ومحامد الأخلاق. ابنتي الصغرى هي التي دلت عليه. قالت : «شاهدته من ثقب الباب يغرس إبرة في ذراعه. هربتُ». ضيّقتُ عليه الخناق فاعترف. ما كان ليقدر على الإنكار وشاهد الجريمة في ذراعه. علمت من

اعترافه أنّ فرقة مقاومة المخدرات ضبطته. سجّلت عليه إقرارا بالتعاطي وأخلت سبيله. أصحابه سجّل عليهم إقرار بالتعاطي والإمساك والترويج. كان آباؤهم أكثر غنى مني ولم يكونوا وزراء. فهمت أنه كان يظنني عارفا فاعترف.

اكتشفت أن ابني الثاني مخنث مدمن. أخوه هو الذي باعه لي. قال، وأنا أضيّق عليه الخناق: «الغبرة أفضل من الفساد الآخر. فساد ابنك. صرت أخجل من أن يكون أخي». أصبح الفساد في اعتقاد هذه الشبيبة المنحرفة درجات. هجمت عليه في غرفته. لم يكن صلب العريكة فانهار بسرعة. كان يجرّب الأمر مع لداته في المدرسة فقد كنتُ، عندما كنت معلّما، أحرّم عليه وعلى أخيه اللعب مع أوباش الحي. جرّبه مع من هم أكبر منه سنا. كبرت البلية به. كان السائق الذي يأخذه إلى المدرسة متواطئا معه. أصبح يأخذه إلى بعض الشقق المخصصة لمثل هذه المسرّات. كان مرتاعا من أن أزهق عمره. ردّد مرات: «أتوب. والله أتوب» وأغمي عليه أو تظاهر بالإغماء.

جلست على سريري أندب حظي في الأبناء الذين خلفت. قلت لنفسي: «لم يبق إلا أن أكتشف أنّ زوجتي المحترمة عاهر من زمان مشهورة بالعهر دون أن أعلم، أو أن أفاجأ بأني أنا الآخر مأبون دون أن أدري». هل يعقل هذا؟ أطلّتْ عليّ ابنتي الصغرى برأسها من فرجة الباب فزعة العينين. أشرت إليها بأن تقترب. وضعتها في حضني فدسّت رأسها في صدري وأجهشت بالبكاء. كدت أجهش معها. لبراءة الطفولة علينا دائما سلطان محبة لا يقاوم.

قضيتُ معظم ليلتي تلك في غرفة ابنتي الصغرى. نامت في أحضاني وإبهامها في فمها. كانت ملتصقة بي فزعة من أشياء لا بد أنها كانت قد شاهدتها أو سمعتها. كانت تنبعث منها بين الحين والحين زفرة تقطعها مخلّفات النشيج. تهت في مراجعة أوضاعي المقوّضة. ما كانت هذه الوزارة إلاّ وبالا عليّ.

لم يعد لديّ شك في أنّ ما خرّب أسرتي قد تسرّب إليها من جهة زوجتي. لم تكن أسرتها تكافئ أسرتي. لكني رغبت في امرأة جميلة متوسطة الحال أمتع بها وترضى بمقاسمتي القليل الذي يسعدنا. لم أرفع عيني إلى الأعالي خوفا من أن أسقط فأتهشم فلا أجد من يلمّني. ثم إنّ العالم الرّاقي، في ما كان يتناهى إليّ، كثيرا ما يتدنّس اختيارا. تساميت على الوضاعة استبعادا لأيّ شرّ ففي الوضاعة جميع الشرور. تهجم عليها اضطرارا. كنت أعرف أنّ بوالد زوجتي طمعا وفي إخوتها دناءة. لكنني قلت في نفسي : «ليس شرطا أن ما يصيب الإخوة يصيب الأخوات». حزمت أمري وتوكّلت على الله. كنت، في أيام التعارف الأولى، أنصب لها الفخاخ بحثا عن حقيقة لا بدّ أنها كانت تكتمها. رأيتها تجيب بتلقائية أفسدت عليّ حبائلي. سألتها، أثناء حديث النفس للنفس مرة وعلى حين غرة مرات، عما إذا كانت قد عرفت تلك الأشياء قبلي. كانت دائما تقول : «لم يلمسني منذ صرت أفقه أحد. لا أتحدث طبعا عن لعبنا صبية عندما كنّا بلا سراويل. كنّا كثيرا ما نقارن بين أعضائنا ونتلامس». وتطلق ضحكة بريئة براءة تلك العهود. قالت مرة : «وأنت ؟». فقلت بتلقائية تشبه تلقائيتها :

«مرات معدودات في البيوت العلنية للاطمئنان على أني سويّ».
قالت : **«هذا ليس عدلا. يباح لكم تجريب ما تحظرونه علينا»**.
كذبتُ عليها بطبيعة الحال. كنت لا أشك في أنها قد كذبتْ عليّ.
فليكن كذب بكذب كي لا يُظلم أحد.

عندما تأكدتُ من أنّ الجميع قد ناموا نوما وددت ألا يقوم أكثرهم منه تسللت إلى دولاب غرفتي فسحبت قنينة كحول فاخر كنت أحتفظ بها للمناسبات النادرة واختليت بها في غرفة الاستقبال. جعلت أعبّ منها وأعبّ ومع كل جرعة ألعن. لعنت اليوم الذي ولدت فيه والأبوين اللذين ولدت منهما والبلد الذي نزلت فيه والزمان الذي هبطت إليه والتعليم الذي درست والمهنة التي امتهنت والأماكن التي عملت فيها... لا أذكر ما إذا كنت قد بلغت بلعناتي اليوم الذي تزوجت فيه. وجدتني في الصباح في فراشي ومطارق العالم كلها تضرب دون رحمة أو شفقة على رأسي وفي معدتي لهيب تورّمت من كيّه شفتاي. بقيت في فراشي يومين لم أسمح بأن يقربني فيهما أحد. كانت ابنتي الصغرى وحدها هي التي تجرؤ على الاقتراب مني فأفرح بها.

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان التاريخ لم يترك حبلا من حبال تآمره لم يحكم لفّه على رقابنا. شدّ معي الحساب إذا كانت بك رغبة في المكاشحة. أمّا أنا فقد تخلّيت عن العناد ونبذتُ المكابرة منذ عرفت دنيانا. كفرت بكل شيء وقررت أن أكون مع اللحظة التي أنا فيها. لكني لم أقدر على أن أثبُتَ على قرار واحد من جميع القرارات التي كنتُ اتخذتُ. إنه شيء في دمي. وإلاّ فهل من عيب في أن يعيش أولادنا بقيم غير التي عشنا بها منذ آلاف الأعوام ؟ ما لنا نحافظ حتى الموت على ما يفرّط فيه سوانا ونفرّط في ما يحافظ عليه سوانا حتى الموت فتكون حالهم في ما فرّطوا فيه وحافظوا عليه أفضل من حالنا في جميع ما نفرّط فيه ونحافظ عليه ؟

عندما كنت صغيرا أقدمت جارة لنا فتاة على الانتحار. كانت وحدها ذات قيلولة عندما تناهى إليها صوت بائع متجوّل. أدخلته إلى السقيفة لتشتري مساسيك ولوبانا وخرزا. قيل اغتصبها وقيل وصل إليها برضاها. تردد عليها مرات. شعرت بأعراض الحمل

فأعدت عقارا من النوع الذي نقاوم به العقارب والفئران وشربته. في نفس اليوم الذي خرجتْ فيه جنازتها كانت جارة أخرى لنا تقيم حفلا مشهودا إذ كان قد تأكد لديها أنها حبلى بعد سنوات طويلة من زواج لم يثمر. قالت ألسنة السوء لاحقا إنها لقحت من مجهول لا يُسْتبعد أن يكون هو البائع المتجوّل نفسه الذي كان يرود أزقتنا في القيلولات مناديا على المساسيك واللبان والخرز. كانت نساء حيّنا يدخلن إلى دار العزاء ثم ينتقلن، في زينتهن ذاتها، إلى دار الفرح. وعندما بدأت أشبّ أقدمت جارة ثالثة لنا على قتل وحيدها. اكتشفتْ، وكانت مفارقة، أنّ ابنها يتداوله الرجال من حضن إلى حضن. دسّتْ له عقارا مسموما أعدته له بيدها. أحس بالهلاك فصاح : «قتلتني يا أمي...»، فقالت له : «أردتك تاجا لشيبتي فكنت عارا علي». وعندما سيقت إلى الحبس قالت وهي على عتبة بيتها : «حرقة ساعة ولا معيشة اللوعات»، خلّصها من الحرقة واللوعة جنون كان بها رحيما وأصبحت تعدّ به من الوليّات الصّالحات. في تلك السنة نفسها تزوج ابن حارتنا العنّين. جميع الناس كانوا يعرفون أنه كان عنينا فكانوا يتندّرون بذلك. تزوج فتاة من أجمل بناتنا ومن أرقى الأسر. كانت الفتاة قد صادف منها زوج أختها غفلة فوثب عليها. استطابت الطبيعة فيها وثوبه فعاودته حتى امتلأت. علمت أمها بالقصة فزوجتها من ابن حارتنا العنين. هذا ما كانت تتناقله ألسنة السّوء التي هي ألسنتنا. وعندما وُلِدت له بنتٌ قيل إنها نزلت في الشهر السابع. خرج بها في حضنه مسرورا فضحك منه الناس فجعل يقسم بأغلظ الأيمان أنها منه. كان يحتجّ بشبه بينه وبينها. كلنا في الحقيقة متشابهون.

وعندما التحقتُ بالجامعة لأرسب بها العام بعد العام نظّمنا، أوّل حلولنا بها، حفلا راقصا بإحدى الشقق الفخمة بحي جديد مرقه ظللنا فيه إلى الصباح. اكتشفتْ زميلة لنا، وكانت قد أكثرت من الشرب والغناء والرقص، أنها لم تعد بتولا. جعلت خلال الأسابيع القليلة الموالية تكثر من التودد لطالب منا كان زميلا لها في الصف. طلبتْ منه يوما أن يرافقها إلى الأسواق العتيقة والحديثة. في اليوم الموالي جاءه سائق والدها يدعوه إلى مكتبه في شركة كبيرة كان يديرها. استقبله الرجل. سقاه مشروبا واحتفى به ثم قال: «نحن أسرة رأس مالنا في شرفنا. وقد بلغني أنك تصادق ابنتي وتتجوّل معها في الأماكن العامة. وأنا رجل مشهور وابنتي معروفة لدى الخاص والعام. وقد رآكما الناس. فأتمم ما بدأتَ. إلا إذا كنت ممّن يحبّون إلحاق الأذى بالشريفات».

أين هو الحق وأين هو الباطل يا سيدي الحاكم؟ هل كنت، وأنت العارف بالقانون والعرْف، تحوّل مثل هذه الملفات إلى القضاء؟ إذا كان قد راودك مثل هذا الخاطر مرة فإني أدعوك إلى أن تبدأ بأرباب صحفنا الكثيرة الصفراء، بالساهرين على الإعلام، بالمخططين لمقررات التعليم وبجميع الذين جعلوا حياتنا تدور بين قطبي الرذيلة والفضيلة فكلاهما زائف زيف اللغة التي نتحدث بها عنهما.

أمّا أنا فقد استقبلت أيامي مثلما يستقبل الناس أيامهم. ما سبق السّكرة وما عقبها لم يكن إلا أضغاث أحلام. قررت أن أغنم اللحظة التي أنا فيها. ما دخلي أنا في قضايا الكرامة والشرف

والعزة والذل والهوان والحق والباطل، شغل من لا شغل له وهموم مختلقة ابتدعها الناس حتى يُشغل بعضهم ببعض ويَأكل بعضهم بعضا. هل استقامت يوما ؟ إذا كانت عوجاء طبيعة فلتبق كذلك !

عملت على تناسي كل شيء فما أسرع ما كنت قد نسيت وتفاءلت. قد وضع المقام السامي فيّ ثقته وها هي عين ابن خالتي ترعاني. ليس ما أزعجني، قارب نجاة هذه الأمة المخذولة الذي أصبحتُ، سوى رواسب من وضعية غير وزارية كنتُ فيها من الرّعاع. أنا الآن أنتمي للذين في يدهم الحلّ والعقد. مصير البلاد في قبضة يدي. هل في إقبال فتاة على عيش فتيّ هو عيش نظيراتها ما يمثّل مأساة ؟ وهل في أن يكون ابناي مثل أندادهما ما ينكّد ؟ ألم يقل الحكماء من أزمان قديمة : «دعوا أولادكم يختلفون عنكم فقد جاءوا لزمان غير زمانكم» ؟

شمّرت عن ساعد العمل ونظّمت لقاء مع السيد مستشار صاحب السعادة سفير الدولة العظمى فاتفقنا بعد أخذ وردّ ارتفعت فيه أصواتنا على «إمكان أن تسوّغ حكومتنا الرشيدة حكومة بلده لمدّة تسعة وتسعين عاما ما يلي :

1 - ماء البحر في البحر ويستثنى منه السمك بأنواعه ومدّخرات قاعه من نفط وغاز وكنوز مدفونة وطحالب وسائر ما قد يكتشف فيه من خيرات.

2 - القسم الأوسط من البلاد بسباسبه وتستثنى منه الخيرات السطحية والمدفونة بما في ذلك الخفايا المجهولة في بطون السبخات والوهاد.

3 ـ الفضاء جميعه باستثناء ما يمخر منه أسطولنا الجوي المدني والحربي.

4 ـ الحرارة المنبعثة من جوف الأرض».

حددنا مقابلا ماليا تقريبيا يسدّد نصفه عاجلا نقدا واتفقنا على أن أراجع حكومتي الرشيدة ويراجع هو حكومته. نشب بيننا خلاف بسيط حول الوجوه الممكنة التي قد تستثمر فيها دولته العظمى ما تكتريه منّا. قلت : «لا أحب أن ترابط أساطيلكم النووية وغير النووية بموانينا. لا أسمح لكم بأن تنصبوا في فضائنا محطة سحرية تصوّرون بها ما هب ودب على أرضنا فشرفنا مصان ونساؤنا حييات ورجالنا حماة أشاوس للعرض. لا أسمح بأن تحفروا سباخنا لتزرعوا فيها نفايات صناعاتكم المدمرة». قال : «مبدئيا وقانونيا ليس لكم الحق في منعنا. لكن أطمئنكم على أنه لن يحدث شيء من هذا. فنحن نرغب في مساعدتكم. وبما أننا ضدّ الكرم والبذل والعطايا والهبات والهدايا فقد رأينا أن هذه أفضل طريقة نعطيكم بها دون أن تتأذّى مبادئنا». لم يكبر بيننا الخلاف والحمد لله.

ما كدت أصل إلى هذا الاتفاق مع ذلك المستشار الذي لا أشك في أن بعقله لوثة حتى أبلغني رئيس ديواني أن عمّال المصانع الثلاثة التي فرطنا فيها دخلوا في احتجاج جعلوه اعتصاما مستمرّا بها. قال لي : «بلغني أن منهم من جاء بالزوجات والأطفال والقطط والكلاب». كدت أضحك فالحيوان الذي هو مثلنا لا

كرامة له عندنا يمكن أن يستدرّ عطف الشعوب المتحضرة وما أكثر من يصيد من رجال إعلامها في مياهنا الكدرة.

فزعت إلى ابن خالتي بيد مسرورة ويد منقبضة. تأكّدتْ كاتبتي من كاتبته أنه موجود فقصدته. دخلتْ عليّ كاتبتي القديمة قبل أن أخرج ضاحكة. قالت : «ما لكاتبة السيد الوزير الأول واجدة عليك ؟». تساءلتُ بحركة من حاجبي فقالت وهي تغرق في الضحك : «سألتني عما إذا كنتُ ما زلت صابرة على...» سكتت لحظة ثم رمت بها على عجل «المهراس الذي عندي». قلت : «رغبتْ في أن تحلّ أخرى محلك فرفضتُ» وحثثت الخطى.

لم أنتظر أن تبلغ الكاتبة ابن خالتي بمقدمي. دفعت الباب ودخلت. وجدته يضاحك امرأة صعقني جمالها. كانت شقراء شقرة حقيقية. عيونها واسعة زرقاء ميّالة إلى خضرة لا تدع في الناظر إليها عرقا لا يرفّ. بشرتها صافية صفاء يكاد المرء يرى الدم يجري في عروقها. جلست مبهورا. أكمل ابن خالتي ضحكه. قدمني للمرأة ولم يقدمها لي. حزّ ذلك في نفسي. رأيتها تسحب سيجارة فيسرع ابن خالتي إلى إيلاعها لها. وددتُ لو كنت النّفس الطويل الذي سحبته منها. لا أشك في أن الداهية ابن خالتي قد أوجس شيئا فاختصر الجلسة. رافق زائرته إلى الباب. سمعته يهمس لها : «إلى لقاء قريب. مثلما تواعدنا».

قلت له : «ما هذه السخطة ؟». ابتسم بخبثه المعتاد وقال : «أعجبتك ؟». قلت : «معاذ الله. أنا لا أكفي المصيبة التي تضيّق

علـيّ الأنـفـاس في الـبيت». قـال : «قـلـه لـغيري يصـدقك. أمـا أنـا فأعرفك أكثر مما تعرف نفسك».

عرضت عليه مشروع الاتفاق الذي حصل بيني وبين مستشار سفير الدولة العظمى. تأمّله بكثير من الإمعان وقال : «ترفعه إلى المقام السامي في ظرف مطبق السرية. تكتب فيه : «للاستئناس بسديد حكمة سيادتكم». قلت له إن الأمين العام للمنظمة الشغيلة قد أرسل علينا كلابه. قال : «دع الأمر لي. إني أعرف منك باللغة التي يفهمها». هممت بالانصراف فقال : «أحدثت في بيتك زوبعة لا مبرر لها». فاجأني. رغبت في أن أقول شيئا فلم يطاوعني لساني. واصل كلامه قائلا : «تريدون التقدم والتخلف معا. هذا لا يكون». قمت مستعدّا للانصراف فقال : «لماذا أقلعت عن لعبة الأضواء التي تنار وتنطفئ بمكتبك ؟». عقلت المفاجآت مداركي.

عدت متضايقا إلى مكتبي. من أين لابن خالتي أن يعرف ما يجري في بيتي وفي مكتبي من خفيّ الأسرار ؟ أمّا المكتب فكنت لا أستبعد علاقة ما بينه وبين كاتبتي الأولى مثلما كنت لا أستبعد أن يكون محشوّا بآلات التنصّت والتصوير الدقيقة. وأمّا بيتي فقد كنت أعتقد أنه محصّن ضد جميع التسريبات عدا ما قد ينفلت اتفاقا من زوجتي والأولاد فتتلقفه آذان السائق والجنان والشغالات. هل كان اعتقادي باطلا ؟ أتراهم يصلون إلى هذا الحد ؟

كنت أفكر في الكيفية التي أمسك فيها بالخيوط جميعا حتى أظل متماسكا في الرقعة أنقل فيها من مربع إلى آخر فلا أسقط خارجها ملويّ العنق عندما جعلتْ كاتبتي القديمة تكثر من الدخول والخروج. كان يشغلها أمر لا محالة. تظاهرت بعدم الانتباه. لم تطق صبرا فاتجهت يدها إلى المذياع تشغّله. ظللت ساكنا. قالت : «هل رغبت كاتبته فعلا في أن تحلّ أخرى محلّي ؟». قلت بنبرة محايدة : «من هي التي لا تحسدك على كل شيء فيك ؟». جلست واضعة ذقنها على ذراعها على حافة المكتب حتى يمكنها أن ترى

عينيّ جيّدا وقالت : «دعنا من اللباقة وهات الصحيح ؟». قلت : «الصحيح أنك، عندي، فوق الجميع. فكوني فوق الجميع. لا تشوّهي روعتك بالصغائر». زفرت. همّت بالنهوض للانصراف فقلت : «رأيت اليوم في الضفة الأخرى امرأة عجبا». قالت : «صفها». ذكرت ما انتقش في ذهني من صفاتها فمطّت شفتيها وقالت : «تلك فلانة. أعجب من أنك لا تعرفها. مفكّرة العناوين وأرقام الهاتف في حقيبة يدها تقدّر بالملايين. مختصّة في تنظيم اللقاءات الرفيعة». قلت : «ليس مع الكاتبات». هجمت عليّ. اتقيتها بأخذها في الأحضان.

أعدتها للجلوس أمامي وقلت : «هات نوّريني». عرفتُ منها أن عظماء البلد يلتقون في محافل خاصة جدا ومغلقة. لكل عظيمٍ عظيمٍ محفله. قالت : «إذا لم تكن في محفل من هذه المحافل كنت كمن ينام في العراء بلا غطاء». أخذتني رعدة من خوف جفّ لها ريقي. وجدتني أحقد على ابن خالتي. لم يسع لي، منذ لقاء الأناشيد الديكية، في أيّ اقتراب من دوائر المتنفذين. شاهدني مرة في إحدى حفلات الاستقبال التافهة القليلة التي دعيت إليها أطيل الحديث مع امرأة زميل من الوزراء تبيّنت فيها ملاحة فقال لي بنبرة زاجرة : «اصرف نظرك عن الشطوط البعيدة. لا تعوّل عليّ حتى أنقذك من الغرق. لازم شواطئك الناشفة». عضّني وجعي. سألتها عن أفضل الطرق في الوصول إليهم فقالت : «أن تكون لك زوجة باهرة الجمال أو خليلة نادرة الحسن أو أن تكون في وزارتك الدموع».

استبقيتها للخلوة المسائية فاكتشفت كنز المعلومات الذي كانت تخفي في صدرها المكتنز بالخيرات. ذكرتْ أسماء معروفة بالوجاهة والثراء. سمّت لي بالترتيب أنواع اللقاءات الخاصة التي يعقدونها في أوقات الفراغ والإخلاد للّهو والمسرات والهوايات : خروج للصيد البري في المحميات الغابية، خروج للعب الغولف في أوقات معلومة تكون فيها أشهر الملاعب محجوزة لهم، سهرات للمقامرة البريئة (على بضعة آلاف في الجولة الواحدة)، سهرات ماجنة يكتفي فيها الذين لم يعد فيهم عرق ينبض بالفرجة. قالت : «هذا ثابت، ليس من إذاعة قالوا. الوافد الجديد يرتقي من مقام إلى آخر وفق الأقدمية وما يضيفه من عناصر البهجة وأنواع النّفع». قلت، كاذبا، : «دُعيتُ للمشاركة في بعض التمارين الرياضية وبعض الجولات في الهواء الطلق فلم أستجب». قالت : «لم تخسر شيئا. بل فيه فضل كبير، فأنت لم تفقد عذريتك بعد». أومأتُ إلى المقام السامي في صورته المرشوقة فوق رأسي فأشارت لي بسبابتها أن أسكت.

كنت أسمع عمّا تحدّثت به كاتبتي عن هذا العالم نُبَذاً من الحكايات كنت أحملها على المبالغة في التشهير بطائفة من الناس كانوا رعاعا تافهين فبالت عليهم الدنيا بمزاريب من ذهب. كنت أقول لنفسي أحيانا : «ما الذي يمكن أن يفعله شابيط وأمثاله إذا وجد بين يديه فجأة كمشة من الملايين ؟ سيشتري دارا كبيرة فاخرة في أحد الأحياء الراقية. يقتني سيارة فخمة جدا يسوقها به سائق جميل مهذب. يكون له سكن صيفي في منطقة جميلة جدا من

بلادنا التي كانت جميلة جدا. يسافر إلى البلدان المتحضرة في العام الواحد عشرات المرات. يكون في خدمته خدم وحشم. ثم... بأيّ شيء سيملأ وقته الآخر خارج ما ينفقه منه في عقد الصفقات والتثمير ؟ سيسعى إلى تعويض ما فات. ما الذي يمكن أن يكون قد فات رجلا مثل شابيط ؟ الجاه والمسرّات ؟ بأي المسرّات يفرح شابيط ؟».

وطّنت النفس على أن أدخل في الزّحام. وزارتي على فوهة بركان. الذين جاؤوا بي إليها لا يمكن أن تكون نواياهم إزائي صافية. ابن خالتي يساندني ما كنت له سندا. في الأفق تباشير نجاح وعلامات إخفاق. ينبغي أن أحمي ظهري، أن أدّخر شيئا ما لغد قد يأتي رغما عني كالحا. أن أسبق المصائب بالاستعداد لاتقائها.

منذ متى لم أتعاط الرياضة ؟ آخر عهد لي بها عندما اجتزت امتحان الباكالوريا. لم أكن أتصور أنيّ ملاق ثلث زملائي الوزراء في الحشد الذي كان يهرول وراء ذلك الوجيه النّافذ الذي ذكرته لي كاتبتي بكثير من الثناء. رجال من مختلف الأعمار تندلق النعمة من أجسادهم على الأرض. أجساد مترهّلة مشوّهة التقاسيم. كان كلّ ينفخ ويزفر ويمسح العرق في منشف خفيف كان يربطه على كتفيه. قطب الكوكبة رجل ربعة لا يعرف له سنّ من فرط ما كان يتعهّد به جسمه من ألوان العناية. في الكوكبة عدد من الأطباء من صنف الأساتذة غير الناجحين وكثير من الخدم المسبّحين بآلاء الدولة ومن على رأسها. كان الوجيه يتوقّف بين المشوار والمشوار ليحاضر في الرياضة ومنافعها. كان يستعمل لغة سطحية يرفدها بكثير من الإشارات فينبهر بها السامعون ويعلوهم صمت فيه إجلال مكشوف. اكتفيت بشيء من الإرقال دقائق وبدقائق للمرح.

قدمني للوجيه زميلي وزير الرياضة في سياق مناداته بضرورة تعميم الحركات الرياضية على جميع السكان تنفيذا لتعليمات

سيادته بجعل العقل السليم في الجسم السليم. احتفظ الوجيه الرياضي بيدي طويلا في يده وقال : «المشروع الذي تعملون عليه خارق للمألوف والعادة». نُصِبَت بعد الأدواش في الفندق المجاور موائدُ الإفطار. لم يشارك فيها الوجيه لكنّه حرص على أن يسلّم في منصرفه على المرتاضين واحدا واحدا. همس لي : «امض في ما بدأتم به دون خوف أو تردد. لا ترضخ للضغوط. الصعوبات كبيرة لكن المستقبل للخواص لا لخرافة الاشتراكية» ثم أضاف بصوت يسمعه الجميع : «زرنا في مجلسي المسائي. أريد أن أكسبك في صف الرياضيين». جعل زملائي الوزراء يرمونني بالتهاني على الاهتمام الكبير الذي خصّني الوجيه به. قال واحد منهم : «معرفته أمد الله في أنفاسه مفتاح من ذهب».

أنا لا أعرف من لعبة «الغولف» إلا الاسم. لكني حرصت في صباح اليوم الثاني على أن أبكّر في أحد الملاعب التي يتردّد عليها وجيه آخر من الأثرياء المتنفذين الجدد قالت لي كاتبتي إنه مقبول القذارة. قلت أكتفي هذه المرة بالتفرج تفاديا لما قد أفاجأ به فأكون طرفة للتندر. كان نعم الاختيار إذ كان نعم المدخل. ألفيت حشدا من السادة منهم وزراء ملتفّون حول الوجيه «الغولفي». ما كدت أحيّي حتى صاح زميل لي مستغربا : «أنت أيضا تفهم في كرة الغولف ؟». قلت : «ما جاء بي إلاّ الفضول. أمرّ من هنا كلّ صباح أحد فأرى السادة يلعبون. جئت لأعرف الذي يجذب هؤلاء الأفاضل». انتبه لي الوجيه فقال : «رياضة ملوك وأمراء ومن في مقامهم. أسرارها كثيرة جدا». صافحني واتكأ على عصاه وجعل

يقول والآخرون في ذهول يشربون كلامه شربا : «شؤون الحياة جميعا تتلخص فيها. لا بدّ أوّلا من التركيز الشديد. الفكرة التي تملأ الذهن تبسط سلطانها على الجسم كله. لا بدّ ثانيا من دراسة المسافة لقيس الجهد. ينبغي أن يوزن بميزان الذهب. لا بدّ ثالثا من دراسة الثقب دراسة عملية. لكل ثقب استراتيجية تلائمه. الخطأ في الاستراتيجية خطأ جسيم». تحدّث طويلا عن أنواع الضربات، سمى أصحابها المشهورين بها واحدا واحدا. ثم قال : «هي أهم شيء توقيتا، فمن لا تحالفه الأفلاك قلّما يفلح، وإخلاص نيّة...» واستطرد في ذكر النوايا الحسنة والخبيثة. جعل الحاضرون يصفقون للدرس العظيم الذي تفضل بإلقائه في هذا الصباح المبارك. قال : «زرني الليلة أحدثك بأسرار تنفع في هذه الرياضة الشريفة وفي الحياة».

عدت إلى بيتي مهموما لأن الحظ ابتسم لي في يومين متواليين، وأنا أخاف من ابتسامة واحدة منه. قد اعتدت على وجهه الكالح حتى صرت أتشاءم من أيّ تطلّق في محيّاه. طمأنتُ نفسي بأنّ وجه البيت الذي أدخله لا يقل اسودادا عن أيّ سواد. الزوجة لا أكلمها ولا تكلمني ولا أعرف ماذا تصنع من ورائي. البنت لا أدري أقطعت علاقاتها مع أولئك الصعاليك أم استمرت تضرب بكلامي عرض الحائط وتدوس على عرضي في الأماكن الموبوءة. ابن الهيروين لا أعرف ماذا صنع. وصاحب البلية لا أدري بم أصبح يداوي بليته. قلت وأنا أدير المفتاح في قفل الباب : «ما دواء دائها إلا سكرة ليس وراءها حراك».

أنا ابن الشعب سيدي الحاكم. في أزقته ترعرعت وإليه عُدت معلّما لصبيانه. كنت سعيدا جدا بتلك الوظيفة السامية. حتى عندما أصبحت ربطة عنقي خلقة أشتريها من «الفريب»[23] كانت السعادة تغمرني. كنا في ساحة المدرسة أو في مكتب المدير أو في قاعة جلوسنا نضحك من الأعماق. نضحك من كلّ شيء على كلّ شيء. كلّ كان يعرف عيوبه وعيوب الآخرين ويكتمها. التستّر على الزميل كما على النفس واجب. كنّا نحب أكثر ما نحب زميلا لنا عازبا كان يسكن في شقة بائسة جدا بعمارة متداعية قريبة جدا من مدرستنا. أجمل ما في هذه الشقة أنها في زقاق رائع لا تنقطع منه الرجل. كان يضع المفتاح على ذمّتنا ويقول: «أكرموا الحارس الذي لم يكن حارسا يكرمكم». لم تخِبْ آمال الحارس الذي لم يكن حارسا فينا. لم يكن يمضي يوم دون أن تأتي للواحد منا أم تلميذ أو تلميذة تسأل عن نتائج فلذة كبدها. أحيانا تأتي أخت أو خالة أو عمّة. كنا كثيرا ما نعثر على ضالّتنا في الزائرات. نتعمّد

23 - ثياب مستعملة ترد من البلدان المصنعة.

دسّ ألفاظ غزل عفويّ في الحديث، فإذا لم نر انكماشا انتقلنا إلى التصريح الصريح بالإعجاب الشديد والتعلق المباغت. يتطور الحوار خارج موضوعه فنرمي بالعبارة المصطلح : «عندك قليل من الوقت ؟».

يوصي الظافر الآخرين بالأولاد خيرا ويسحب المفتاح من مخبئه. مجرّد لذّات عابرة كنا نسرقها من جميع المنغصات. كنّا لا نتخيّر. المهم أن تكون فرصة من الفرص ننتزعها من بين فكي الزمان. فرص نخرج بها من الروتين، تشعرنا بأننا موجودون. أحيانا يروي بعضنا لبعض أطرف ما يفاجأ به. لكن صادف أن شاهد واحد من الناس أختا له تخرج منسحبة على احتراس من تلك العمارة المتداعية. كان مع الحارس الذي لم يكن حارسا أسخى منا. زار ذلك الرجل صحبة رفيقين له ليلا زميلنا المحبوب. دمدموه. تعاطفنا معه كثيرا. لكنه انتقل إلى سكن آخر لم تكن له مزايا السكن الأول. عرفت من عشيقات اللحظة العابرة دواخل الشعب الذي أنا منه. كمّ هائل من المآسي من كل نوع وصنف. مآس ألفتها نفوسنا حتى صرنا نفتقدها آسفين ونحنّ إليها.

جاءتني إحدى نساء تلك اللحظة العابرة إلى مكتبي. اعتصمت بمكتب الكاتبة وقالت : «بيني وبينه قرابة. لست خارجة إلاّ إذا استقبلني». لم تصل معها كاتبتي الثانية إلى فِصال. سلّمتْ بالهزيمة ووضعتني في الصورة. استقبلتها لأصرفها في طرفة عين. كانت تجرّ بنتا لا أذكر ما إذا كانت قد انتسبت يوما إلى المدرسة التي كنت فيها قريبا من تلك الشقة البائسة بتلك العمارة المتداعية. قالت

المرأة : «القرابة التي بيننا أعرفها أنا وتعرفها أنت». لم أتذكّر شيئا. بدأت أرتاع من وقاحتها. قالت : «أريد أن تشغتل ابنتي هذه. تلميذة حاذقة من تلميذاتك النابهات. تربية يديك». ما أشك، سيدي الحاكم في أن بالبنات خميرة خاصة. نتركهن قميئات مبعوجات مفعوصات ذابلات ذاويات ونفاجأ بهن فارعات ممتلئات مدوّرات مكوّرات مشرقات ساحرات. ألا تشاطرني الرأي في أنّ لغتنا الغزلة التي يسخر منها ذلك الأجنبي المتعجرف مساعد سفير تلك الدولة العظمى الصديقة المتوحشة تعبق، عند ذكر النساء، بمعجز الصفات ؟ تأمّلت الفتاة التي أمامي أبحث فيها عن بقايا البنت التي لا بدّ أني كنت قد علّمتُ يوما فلم أعثر على شيء. كانت مُطرقة تداري خجلا مزمنا تسبّبت فيه العصا وتمزيق الشعور وقرص الزنود والضرب على المؤخرات، وسائلي الفضلى في تفتيح الأذهان وحشوها بالمعارف والعلوم. قالت المرأة : «ابنتك ليس لها حظ في الدنيا. ما كادت تنجح حتى جاءها مكتوبها. قلت أتهنّى عليها. اتضح أنه طالح ابن طالح. طلقتها منه. لديها منه ولد تنكّر له أبوه. حرام أن تظل هذه الزهرة الفوّاحة مع ذلك العود اليابس». التفتتْ إلى ابنتها وقالت : «حدّثيه عن الشهادات التي تحملين». ابتسمتُ فقد ذكّرتني لفظة العود اليابس بما كان بيني وبين هذه المرأة ذات يوم في الشقة البائسة بالعمارة المتداعية. قلت في نفسي : «خير بسيط أقدّمه لهذه المسكينة أدّخره لوجه الله». نظرتُ إلى الفتاة مرة أخرى فرأيت عليها مسحة من جمال تزري بها ثياب خلقة منتقاة، ما في هذا من شك، من أكوام «الفريب». دعوت كاتبتي الثانية وقلت متوقّعا أن تنشر الخبر : «أختي من

الرضاع وابنتها. كوّني لها ملفّا كاملا». انتدبتها كاتبة على أنها قريبة لي.

هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كانت البطالة قد خيّمت على كلّ شبر من بلادنا ودخلت إلى كلّ دار ؟ هل أنا مسؤول عن كثرة التطليق وانحلال الروابط الأسرية وشيوع الفساد وانتشار الجرائم واستبداد اليأس بجميع النفوس ؟ انظر في الملفات التي تُعْرَض عليك كل يوم أو اسأل وزير الداخلية ينبئك بما تقشعرّ منه الأبدان ويشرّد النوم عن المحاجر.

غرقت في المسائل الجانبية والمحبطات. جاءني أوّلا ردّ شفاهي من المقام العالي فيه اعتراض على تحوّلي من «استراتيجية المراحل» مثلما سمّيتها أو سياسة «القطرة قطرة» على حدّ عبارة زميلي وزير الفلاحة أو «التدخيل عقدة عقدة» على حد عبارة ابن خالتي. نطق بها أمام سيادته فاستحسنها سيادته كثيرا. وعندما جادلتُ متكتّما على خططي الخفية قدر الإمكان قيل لي: «ما المانع من العمل على الجبهتين، الأمامية والخلفية؟». استدعيت رئيس ديواني ورميته بالتعليمات. لم يعلّق. خامرني فيه مزيد من الشك. لست المعلّم الذي يفهمها على الرمش إن لم تكن له يد في الاعتراض على قراري. من الذي يتكفّل بترضية القروش الهائجة عندما تضربها رائحة اللحم على اللحم والدم؟

أرسل عليّ رأس الشغيلة «الأمين العام» وحوشه الضارية. كانت قد تناهت إليّ أخبار عن تورّطه في الفساد فعوّلت عليها وعلى تطمينات ابن خالتي في كف شره. لكنه جعل عملة المصانع الثلاثة يقولون: «إذا كانت الأثمان متدنية إلى هذا الحد فنحن أولى

بالشراء». تصيّد رئيس ديواني عبارة «التسيير الذاتي» في كلامهم وصاغ ردّا مفحما على لساني شن فيه هجوما على «الاشتراكية» وما تسبّبت فيه من عظيم المآسي وقادت إليه من «خراب عميم». رفضتُ التوقيع على النص الذي رغب في إصداره على لساني في صحف الحكومة والحزب. قلت له : «لغته متخشّبة. سأعلّمك كيف تحبّر المقالات عندما أفرغ لها».

وقفت وقفة حازمة على التفريط في المصنع الكبير ذي الفروع الكثيرة المبثوثة في معظم أنحاء البلاد. تابعت بنفسي المراحل مرحلة مرحلة. لم أترك شاردة أو واردة إلا سجلتها كتابة في دفتر خاص (بإمكانكم سيدي حاكم التحقيق أن تطلبوا الكنش الأزرق بالدرج الأول في مكتبي حتى تتبيّنوا الحق في جانبي من الباطل الذي ترمونني به). طلبت من رئيس ديواني أن يسجّل جلسات التفريط في ممتلكات الدولة على شريط نحتفظ به وثيقة دالة على الشفّافية في عملنا فعاد يقول لي إنّ التسجيلات الصوتية عديمة المصداقية قانونا وإنّ في المحاضر المكتوبة كفاية. زرع طلبي البلبلة في ضمائر أعضاء اللجنة فتخلّف عن حضورها أكثر من عضو من أعضائها.

احتدّتْ عليّ لهجة ابن خالتي. أصبح لا يغفل عن فرصة واحدة من الفرص السانحة لاستحثاثي ولومي وتأنيبي ومؤاخذتي على هدر الوقت في الشكليات التافهة وتذكيري بأن عين المقام السامي مصوّبة نحو وزارتي. وعندما حَمَقَ عليّ في إحدى المكالمات التي صار يجريها معي يوميا ذهبتُ إليه لرفع جميع الالتباسات

فخرجت من عنده مقتنعا بضرورة أن يكون التفريط متوازنا حتى يشمل بخيراته الكبير والصغير.

لم أعد أتبيّن لقدميّ موقعا صلبا. كثر عليّ الضغط داخليا. كلّمني أعوان أشخاص لم أتبين لأيّ منهم صلة بالمهام التي تنهض بها وزارتي. أشخاص لا منازل لهم لا في الحكومة ولا في الحزب. كانوا يبدون، في كثير من الأحيان عن طريق أعوان في خدمتهم، رأيا في بعض العروض التي كانت ترد على اللجنة. زارني من قبلهم بعض الأفراد. كانوا يتحدثون في أمور كانت تبدو بعيدة عن التفريط في بعض الممتلكات التي كنا ننوي التفريط فيها. ثم يذكرون هذه الشركة أو تلك. فهمت بالقوة أن رائحة الدم المسفوح قد هيّجت عليّ صغار القروش وكبارها وأن المؤتمنين على أسرارنا الخفية غرابيل.

وافتني الوزارة الأولى بنسخ من مقالات نشرتها صحافة أجنبية لا تدخل إلى بلادنا عن المهام التي تنهض بها وزارتي. كان فيها شتم كبير لي. قرأتها مرات وقلت: «وراءها أحقاد ووصاية وأهداف مشبوهة. ما دامت تسبّ عضو الحكومة في شخصي فلا شأن لي بها». لكنها تركت لديّ شعورا بالمرارة كاويا. تحوّلتِ المرارة إلى هلع عندما هجم عليّ مقال ساخر لاذع فيه إيماء خفي، أو هكذا بدا لي، إلى ما أنوي إنجازه من كراء «ما لا يصلح لنا لبعض الدول الكبيرة». جعل صاحب المقال يهزأ بغباوتي وحمقي ويرميني بالتعامل مع أعداء الوطن والإنسانية وبالحنين إلى العهد الاستعماري.

قلت في نفسي : «قد آن الأوان لحماية الظهر. أرى ورائي سكاكين كثيرة مشرعة». هرولت مرات وراء وجيه الرياضة. كان يسلّم عليّ بحفاوة غير أنه لم يشر مرة إلى تجديد الدعوة لزيارته. انتهز غفلة من المتزاحمين على التقرّب منه وقال لي : «الأعمال الكبيرة يكثر حولها اللغط. العاقل يأكل ويقيس حتى لا تصيبه البطنة». ترك كلامه حموضة في حلقي. قصدت الوجيه الغولفي في ملعب كرة المضرب. لم يبد لي فرحا خاصا بي. شعرت بأنه يتعمّد تجنّبي. جمعت شجاعتي وقصدت المحلّ الذي يلتقي فيه بمريديه من المتهالكين على رضاه. رجع إليّ أحد حراسه المهذبين قائلا : «سيدي خجلان جدا. يبلغكم تحياته القلبية ويدعوكم بكل حرارة وإلحاح إلى زيارته في مناسبة أخرى». بلعت الثعبان.

ادلهمّت الآفاق حتى صارت ظلاما عندما انعقد اجتماع الوزراء برئاسة سيادته. كان الجوّ مكهربا فقد كانت الأرصدة من العملة الصعبة في وضع متدنّ. نشرت الصحف الحكومية والحزبية موازنة للنمو ببلادنا كانت جميع المؤشرات فيها إيجابية. لكنّ السيد وزير المالية جعل يشير إلى الوضع الحرج الذي تمر به البلاد. حاول أن يهوّن من حدّته بالمقارنة بأوضاع بلدان إفريقية. عرّج على الوضع العالمي المناوئ واقترح ترفيعا طفيفا في بعض الضرائب. سكتنا. وإذا بسيادته يزأر قائلا : «تريد أن تقلبها علينا أكثر مما هي مقلوبة بسبب ما في التفريط في الممتلكات من خرق». استقر النصل في سواد القلب مني. شعرت بالأرض تميد بي.

خرجت لا أبصر ممّا أمامي شيئا. تحاشاني ابن خالتي وتجنبني جميع الزملاء. ما كدت أصل إلى مكتبي حتى انهرت على كرسيّ الدوار. امتدت يدي إلى أوراقي تبحث عن القائمات التي وضعت مرة بعد مرة حتى لم أعد أتبيّن أيّها أسبق في الزمن أو الأهمية. كنت أراجع حساباتي عندما طلبني وجيه جديد له بسيادته قرابة قديمة. قال دون مقدمات : «تقدمت المجموعة (وسمّى شركة عملاقة من الشركات العالمية) بعرض لاشتراء المصنع الكبير ونحن نعتبره أفضل العروض. البلد الذي هي فيه بلد صديق». قلت بشيء من عدم الانتباه، إذ كنت مهموما : «الله يستر وييسّر» فاشتعل فيّ صارخا : «يستر أو لا يستر لا يهمّني. تمضي ما فيه مصلحة البلاد. أم... تريد أن تأكل وحدك ؟». ظللت مصعوقا فأغلق الخط ساخطا. هذا رجل لم يبلغني عنه خير قط. جرّأته قرابة بسيادته ففتّح فيه جميع الثقوب على اتساعها وتهاطلت عليه العطايا من أصناف العطّايين حتى أصبح يعدّ نفسه واحد الزمان. لم تخمد فيّ النار التي أوْرَتها وقاحته حتى طلبني وجيه جديد آخر له بسيادته قرابة أخرى حديثة. كان يفتعل التهذيب في كلامه. قال : «للمجموعة (وسمى شركة عملاقة عالمية أخرى) رغبة صادقة في الفوز بالمصنع الكبير. وأنا أضمن في جديتها». قلت : «يكون إن شاء الله خيرا». قال : «أعوّل عليك وأعتبره وعدا». وقطع المكالمة. وجدتني متضايقا جدا. طلبت ابن خالتي راغبا في أن ينجدني فلم أفلح في الوصول إليه. جاءتني مكالمات أخرى من متنفذين آخرين جدد من صنف القنّاصة الصغار. كانوا يشيرون بنصائح تهمّ التفريط في شركات ومعامل ومصانع صغيرة. تعلّمتُ أن أشكر لكلّ متكلم حرصه الفاضل على النصح السديد.

قررت أن أرابط في مكتبي. لن ينقذ رأسي مما غرقت فيه إلا رأسي. شمّرت عن ساعد العمل بهمة المعلّم المخلص لعمله. كنت كمن يمسك بزق خلق من الماء كثير الثقوب، كلما سددت ثقبا انفتح آخر. لكنني أفلحت في تمرير الصفقة الكبيرة بأقل ما يمكن من أضرار. قد أنعشت الصفقة وضع الدولة المالي. نوّهتِ الصحافة الحزبية بحكمة سيادته طولا وعرضا. لم أتلق ولو كلمة شكر أو تشجيع واحدة. همست لي كاتبتي القديمة أن الغاضبين عليّ في الأوساط العليا أكثر من الراضين.

تنفّست الصعداء ساعات وأقبلتُ على الصفقات الصغيرة بمعنويات خالية من الحماس. ينبغي أن تجد القروش الضارية ما تتلهى به قبل أن تجهز عليّ. أرخيت الحبل لرئيس ديواني وعصابته في لجنة التفويت في ممتلكات الدولة الخاسرة.

هل الذنب ذنبي سيدي حاكم التحقيق إذا كانت القوانين لم تعد قوانين والدولة لم تعد دولة تسهر على تطبيقها. افهمني جيدا وكاشح إذا كانت لك قدرة على المكاشحة. هذه القوانين تسلمناها كما هي من الدول التي استنبطتها بعد طول كفاح. لماذا تطبّق هناك فتعط النتائج المنتظرة منها وتطبّق عندنا فلا تعط إلا الفساد والخراب ؟ أليس أنكم تزعمون أن أخلاقنا أفضل من أخلاقهم واستقامتنا أقوم من استقامتهم وكلمتنا أصدق من كلمتهم وشرفنا أنقى من شرفهم. أم إنه هواؤنا الذي لا يصلح ؟

التحقت كاتبتي الجديدة التي يعرف الجميع أنها ابنة أختي من الرضاع بالعمل في كتابتي الخاصة. جعلتها تقضي فترة تدريب مع كاتبتي الأولى. قلت : «أقدّم لها معروفا قد يصلح لها عند تعكّر الأحوال». تضايقت كاتبتي أول الأمر من وجودها إذ لم تعد تعثر على فرصة للحديث الخاص معي، ثم قبلتها عندما صرت أصرفها قبيل الوقت إدلالا على خالها من الرضاع. عدت إلى كاتبتي القديمة عودة مضطر يقنع بالتخلص من شديد ما يعتريه من توتر بأيّ السبل. لم تعد مفاتنها التي كثيرا ما كانت تأسرني تعني لدي شيئا. صرت كثيرا ما أجدني أفكر في ابنة أختي من الرضاع. لم تغب عنيّ التحولات التي طرأت عليها. صارت تبدو جميلة بجميع المقاييس. شدّني إليها أكثر ما شدني حرصها على عدم الإكثار من وضع الزينة على وجهها. كنت أرى فيها كلما دخلت علي مبتسمة براءة الأطفال.

عزمت في قمّة توتّري على شيء. طلبت من كاتبتي الثانية دائمة التقطيب والحزن أن تأتني بملف كنت تسلّمتُه منها منذ أيام

دون أن أعيده لها. طال بها البحث وطال بي الانتظار. كان رئيس ديواني جالسا أمامي يتلقىّ التعليمات عندما دعوتها طالبا الملف من جديد. تلعثمت وقالت : «لم أعثر عليه بعد». أبديت انفعالا وسخطا وقلت : «إذا كنت عاجزة عن مسك المكتب فروحي إلى مصلحة أخرى». أمرت رئيس ديواني بأن يدعو لي حالا كاتبتي القديمة الحاذقة. ما انقضت تلك الحصة الصباحية حتى كانت كاتبتي الثانية قد نقلت إلى مصلحة الموظفين بترقية نافذة لا أشك في أنها قد سعدت بها بقدر ما أثارته لدى غيرها من حسد واستغراب.

غرقت في هموم العمل حتى المساء. كان عليّ أن أستعين بابن خالتي على مواجهة رأس المنظمة الشغيلة فقد بدأتُ أتأذّى من الحملات المسعورة التي كان يشنّها عليّ أعضاده. ثم إنه قد حرّك ضدّي جميع الشغالين بالمؤسسات والمصانع التي فرّطنا فيها. كان من خبثه أن شخصن المسألة عندما فصل بين التنويه بالتفريط في المصانع والمنشآت الخاسرة والتنديد بإيكاله إلى من لا خبرة له. ارتفع بالقضية إلى المبادئ، كأنّ له أو لأعضاده منها شيئا يذكر. لم يبق لدي، بعد أن رمى زميلي وزير الشؤون الاجتماعية المشكلة في شباكي، إلا نثر وعود لا أدري كيف أبرّ بها. قلت : «أربح قليلا من الوقت عسى الله يفرجها بطريقة ما». اجتهدت في الوصول إلى ابن الخالة العزيز فلم أحصل على شيء. عاد إلى زئبقيته القديمة. بدأت أشعر بالفراغ وبالقلق. عزوت الأمر إلى حالة الإرهاق التي أوصلني إليها دوام الاحتراس واليقظة لإنهاء صفقة التفريط في

المصنع الكبير على أفضل وجه. بدأت ألتمس سبلا للترويح على النفس فلم أجد أمامي ما أنشد. لم تعد بي أيّ رغبة في الرجوع إلى البيت قبل التأكّد من أن الجميع قد غيّبهم نوم عميق. لم يعد بيني وبين زوجتي كلام يخرج عن الإشارة إلى بعض اللوازم العامة. لم أعد أطيق لأبنائي مرأى أو ذكر. أفتقد الصغرى بين الحين والحين فأشعر نحوها بشيء من الشوق يتبعه انقباض.

كبرت همومي حتى لم أعد أقدر على التركيز على شيء. صعب عليّ أن أخرج إلى أيّ مكان من فرط ما صرتُ أتوهّم أنّ حركاتي خارج مكتبي محسوبة علي. دخلت عليّ الكاتبة الجديدة التي انتدبتها على أنها ابنة أختي من الرضاع فتأملتها. بدت لي أجمل بكثير مما كنت أرى وأقدّر. استغربتُ أن يكون لها ذوق رفيع في اختيار لباسها وإن كنتُ على شبه يقين من أنها كانت تشتريه من «الفريب» الراقي. أعجبتني تسريحة شعرها. لم أر عليها أمارة من أمارات الابتذال فارتقت في نظري. هكذا أنا سيدي الحاكم مشدود إلى الطبيعة منذ خلقت وإلا فكيف تفسر تعلقي الشديد بخالتي ؟

جعلت أنتظر إلى أن خفّت بمصالح الوزارة الرجل ودعوتها. وقفت على مسافة من مكتبي تنتظر أوامري. تلهيت عنها قليلا بتقليب أوراق تافهة كانت أمامي ثم رفعت إليها رأسي وجعلت أنظر إليها كأنما أراها للمرة الأولى. علاها ارتباك. قلت مفتعلا اندهاشا : «ما هذا الذي فعلته بنفسك ؟ كدت أحسبك أخرى أخطأت الطريق». أطرقت وشمل وجهها احمرار. قلت : «اقتربي».

امتثلت. جعلت أتأملها وهمست : «هذا الزين كله أين كنت تخفينه ؟». شبكت أصابعها بعضها ببعض وانتابها حياء.

أنا سيدي الحاكم، منذ دببت في هذه الطريق، لم أقرب أنثى غصبا. لا أنكر أني أشتهي الاغتصاب مثلما يشتهيه سائر الناس من الجنسين، غير أني لم أنتقل بشهوتي تلك من الفكر إلى الفعل. إني أضع النساء فوق الرأس والعين وأعتبر استقبالهن لنا أروع ما يمكن أن يحصل من أفعال. أيّهما أفضل أن تدخل الدار ضيفا بعد الدعوة بالتهليل والتفدية والتبجيل أم أن تندفع فيها كالثور الهائج ؟ أنا أفضّل الحالة الأولى وأستغرب كل الاستغراب كيف يجرؤ بعضهم على الإقدام على الحالة الثانية.

طلبت من كاتبتي هذه الجلوس أمامي. كنت في أوكد الحاجات إلى أن أتحدّث مع أيّ كان خارج نطاق العمل والرسميات. سألتها عن السّنة التي كانت فيها تلميذة عندي. انتقلت بها إلى الحديث عن نفسها. كانت تجيب على أسئلتي باقتضاب ثم بدأت تُسْهِل شيئا فشيئا حتى صارت تفيض في الحديث وتستطرد. ليس أمتع للمرء من أن تشعره بأن ما لديه مهمّ يستحق أن يُسمع . سألتها عن ابنها فأطرقت. قلت : «ما له ؟ هل أصابه مكروه ؟». صمتت قليلا وقالت : «لا أخفي عليك أن أمي لم تذكر لكم الحقيقة كلها. أما زواجي فقد كان. وأما الإنجاب فلم يكن». استغربت بحركة من حاجبي وأبديت لها اهتماما حقيقيا. طال صمتي فواجهتني بنظرة محتارة وقالت : «طلقت ليلة دخلتي». كان صوتها بين الهمس والجهر ينساب ملتهبا في تنهيدة كاوية.

روت لي أنّ أمها اختارت لها من قرابتها زوجا. كانت تقول لها : «لا يستر على المرأة رجل مثلما يستر عليها القريب». اكتشفتْ أيام التعارف الأولى أنّ خطيبها مسكون بالشعوذة والأرواح مرتجّ الشخصية ملتاث الروح يسرّ للإناث مقتا مبنيًّا على الرّيبة والخوف والاعتقاد الراسخ في التعوّذ الشعبي من شرّ ناقصات العقول والإيمان. فكّرت في الابتعاد عنه إلا أن أمها منعتها من ذلك. قالت لها : «التي تفوز اليوم بزوج قوية السعد محظوظة». قالت وهي مطرقة تعضّ على أصل سبابتها مقاومة للبكاء : «جعل ليلة الدخلة يصفعني ويركل ويصرخ ويضرب على رأسه ويشدّ على لحيته ويقول : «يا بغي. فسقت يا عاهرة». خرج إلى الناس يصيح : «البضاعة مغشوشة. للعاهر الحجر». انقلب الفرح إلى مأتم. هدّدته أمي أمام الجميع بأنها تأخذني للكشف لتفضح عنّته وتغرّمه.

تركتها تبكي قليلا وقلت : «الذنب ليس ذنبه إذا كان قد فوجئ بالباب مفتوحا. كان من واجبك أن تخبريه من قبل». قالت : «لم يكن كذلك. الذي أعرفه أنه لم يلمسني منذ كبرت أحد». قلت : «كثيرا ما يحصل هذا الأمر دون فعل فاعل. لكن لكل شيء سبب». قالت : «فكّرت جادة في الانتحار من هول الفضيحة. لكني كنت متأكّدة من أني لم أفعل هذا الشيء من قبل. أقبلت على العبادة. الله جل جلاله يعرف الحق. احتقرني أول الأمر الجميع. طمع فيّ ذكور الحارة فأكثروا من مضايقتي. وعندما تأكّدوا من استقامتي كفّوا عنيّ. طلبني بعض المزواجين المطلاقين فلم أجرؤ على معاودة التجربة». قلت : «وحكاية الصبي ما هي ؟». قالت : «اختلقتها أمي لمزيد التأثير عليكم».

علّقتُ على كلامها بأنّ ما حدث لها من أندر ما يحدث في الوجود. وهو نادر لأنه لا يصيب إلا النادرين. والنادرون من نوعها قلّة قليلة. لم يظهر عليها أنها فهمت كلامي ولكنها سرّت به. ثم سرّت أكثر حتى احمر وجهها ولمعت عيناها عندما جعلت أثني على جمالها النادر المغالط فمن يراها لأوّل وهلة لا ينتبه لروعتها الساحرة. ينبغي أن يراها المرء أكثر من مرة حتى يفطن إلى أنّ فيها ما ليس في الأخريات. أنفس سحر هو السحر الذي لا يبهر فجأة. ما يبهر فجأة شديد الزوال. أما السحر الخفيّ فهو الذي إذا تمكّن من النفس لازمها مهما طالت الأيام. تنهدتُ وقلت : «لكن من يفهم هذه اللطائف في عصر عميت فيه العيون وصدئت القلوب».

أشرت إليها بأن تقترب فترددت ثم امتثلت. وضعت راحتي على خديها وجعلت أنظر في عينيها وهي تمعن في إبعاد نظريها عني وقلت : «سبحان الله أيّ سحر خفي أودعت حكمته فيك». شعرت بها تنتفض. وعندما قرّبت وجهي من وجهها ارتعدت وتملّصت بعنف. سألتها عمّا أصابها فظلت مطرقة. انتبهت إلى تقطّع نفسها فقلت : «لست أريد بك إلا الخير الذي أنت أهل له». تماسكت وقالت : «ليس ما. . .» وسكتت مدة ثم قالت : «كان بينك وبين أمي شيء ؟». تظاهرتُ بالغضب وقلت : «عيب كبير أن تظني بأمك الظنون !». فهمتُ ما كانت تشير إليه. تركتها تخجل من نفسها مدّة وقلت : «أمك التقيتها لدى أسرة صديقة. استلطفت حكاياتها وخفّة روحها حتى قلت لها «ليتك كنت لي أختا». لم أرها من تلك اللحظة لكنها ظلت تذكرها». تظاهرت بأنها تصدق فقلت :

«لكن ما الذي جعلك تتوهمين... ؟». قالت : «لا شيء. مجرد خاطر لا أعرف كيف خطر لي».

كنت، عندما دعوتها، قد عقدت العزم على أن أصل منها إلى ما أريد، فتغيّرت، أثناء الحديث معها، رغبتي. مددت لها يدي ثانية فازورّت ثم سكنت واستسلمت بوداعة رفّت لها في ذهني أنوار لم أعهدها من قبل. لم يسبق لي، سيدي الحاكم، أن انسحبتُ من منطقة للعمليات قبل اقتحامها. لكنّ صورا كثيرة أغلبها طامس كانت قد احتشدت متراكبة في خاطري. حاولتُ أن أزن الأمور مرّات فلم أحصل سوى على التردد ووجدتني أنظر في ساعتي لأهبّ واقفا. لم يبد على الكاتبة شيء فربّتت على خدها وقلت : «أنت في منتهى الطيبة». وخرجتُ تتناهبني أحاسيس غريبة كثيرة لم أتبين منها سوى أني أصبحت، لا محالة، لقمة سائغة أو فريسة من الفرائس.

لم أذهب إلى مكتبي إلا في ساعة متأخرة من الصباح . كنت قد عدت إلى بيتي متوترا مهتاجا يعتصرني خواء داخليّ مقيت، لكنّ الكلام كان قد انقطع أو كاد، منذ زمن، بيني وبين زوجتي. أصبحت تلازم قاعة الجلوس متورّكة حشيّة تتابع المسلسلات التافهة وتلوك علكتها. لاحظت أنها كثيرا ما أصبحت تنام في تلك الغرفة. لم أقترب من الأولاد خوفا من أن يرشّني منهم أذى. اكتفيت بالجلوس إلى ابنتي الصغرى في غرفتها. أطلعتني على أشيائها الصغيرة محاولة أن تبعث فيّ ما خمد من مرحي القديم. سررت بها كثيرا حتى أني وددت من أعماقي أن تظل في تلك السنّ الحلوة لا تبرحها. ثم انسللت إلى غرفتي واختليت بقارورة من الويسكي حتى أخذني السكر إلى نوم عميق لم أشك في أنه كان محشوا بالكوابيس فعندما استيقظت استيقظت على أسوأ حال. بقيت في فراشي أعالج أوجاعا حادة في الرأس وشعورا قويا بالغثيان وفراغا في الركبتين وتكدّرا في البصر. غفوت مرات وشعرت بشيء من التحسن فلعنت الكسل والكساد.

أصبح كلّ شيء شبه معطل بوزارتي. لكأنمّا وقف فيها الزمن. لم يرد عليّ شيء من أيّ مكان. ظلّت كاتبتي القديمة جاثمة على كرسيها تعدّ الدقائق وتتثاءب. حتى الحاجب الذي كان يأتيني بقهوتي انتبهتُ إلى أنه أصبح يتعمّد شيئا من البطء. سألت عن رئيس ديواني فقالت الكاتبة إنه مشغول بلجنة التفريط في ممتلكات الدولة. تصوّرته مرعوب العينين وسط حشد من القروش الهائجة ينتظر معجزة ما تنقذه من شرها. شمتت به. بدأت الثواني تثقل عليّ. لم أسع إلى طلب ابن خالتي. يئست تماما من العثور عليه. فكّرت في الوجهاء الذين ما إن بدأت أتحرّك للتقرّب منهم حتى صدمني منهم فتور بيّن يكاد يكون جفاء. هممت بأن أجري زيارة تفقّد لمصالح وزارتي فلم آنس في نفسي حماسا. وهل لديّ وزارة ؟ عندي مجرّد جناح ينكفئ منكمشا بإحدى الزوايا بالوزارة الأولى. ذكّرت ابن خالتي مرات بما كان قد وعدني به من مقرّ محترم أقتحمه كل صباح مرفوع الرأس فطلب مني أن أصبر قليلا خوفا من أن يقال إنّ القرابة بيننا هي التي دفعت به إلى محاباتي.

تلهّيتُ بملفات بدأت تصبح قديمة كنت أفردتها خصّيصا لمتابعة التفويت في ممتلكات الدولة الخاسرة. انفتحت أمامي جرائد الأرقام فجعلت أقارن بين ما كنّا قدّرناه من مداخيل وما جنيناه منها. أصابني فزع. كانت صفقة التفريط في المصنع الكبير هي الدرّة اليتيمة البراقة في جميع ما فرطنا فيه. أمّا الشركات والمعامل والمصانع الصغيرة والدواوين فلم نجن منها إلا ما هو دون الربع مما كنّا قدرناه لها من قيمة مفترضين أنها أدنى ما في الأدنى. غرقت في

البحث عن الأسباب. راجعت جميع الوثائق وثيقة وثيقة. تبيّن لي أنّ في إجراءات التفريط من بدايتها إلى نهايتها إجراءً إجراءً كثيرا من الثغرات التي لم أفطن لها. تساءلت عمّا إذا كانت متعمّدة. كان استقدامي إذن إلى هذه الوزارة أمرا مدبّرا لتقضى بي المصالح الخاصة. كانت موارد الدولة قد بدأت تنضب من كثرة التهريب وندرة الاستثمار واستفحال الحيف والغصب والنهب واستشراء الارتشاء. بدأت الصورة تتّضح لي بيّنة فجعلت حرارتي ترتفع حتى أظلمت الدنيا أمامي.

أفضيت، من شدة قلقي، لكاتبتي القديمة بالهواجس التي أصبحت مستبدة بي. بدأت تدور بي على عادتها وتلفّ كالسرطان البحري حتى إذا ضجرتُ سايرتني في خواطري القاتمة. هل كانت تمعن في إيذائي عندما قالت: «لِمَ لم تكوّن للمهمّة كلّها لجنة من المدراء؟ كنت، إذا تعفّنتْ، تغرّقهم فيها وتسلّ نفسك سلّ الشعرة من العجين»؟ سقط قلبي بين أمعائي. كيف غاب عنّي ذلك؟ عصرني ما يشبه الذهول عصرا قاسيا. لِمَ لم يهمس لي ابن خالتي بهذه النصيحة الذهبية؟ امتلأت حقدا عليه. وجدتني أهمهم: «لم يكونوا في مستواها. لست أثق في أيّ منهم». وتكلّفت ابتساما. تساءلت أمامها عن المصير الذي قد أؤول إليه فجعلت تطمئنني. قالت: «لم يسبق لسيادته أن تشفّى في من يكلّفه بالمهام الخاصة. إذا فسدت عليك جميع الأمور نقلك إلى وزارة أخرى أو أرسلك سفيرا في بعض البلدان. والسفارة أريح». تجرّأتْ وقالت: «تقديري أن وضعك لم يفسد بَعدُ الفساد المتعذر على الإصلاح.

أخل ذهنك من هذه الهواجس وانقلني إلى الحصة المسائية تعد إلى سالف النشاط والتفاؤل».

لكن الصمت الذي أصبحت تتلفع به وزارتي لم يسمح لي بتعهد ذرّة واحدة من التفاؤل في أعماقي. أين هي الهواتف التي لم تكن تنقطع عن الرنين ؟ أين هم الزوار الذين كانوا يتزاحمون على الوصول إلي ؟ والمدراء الذين كانوا يتسابقون إلي بالملف وراء الملف أين هم ؟ هل ركدت الحركة إلى هذا الحد ؟

أخذتني سِنَةٌ من النوم على مكتبي. لم أنتبه إلا عندما فتحت عليّ كاتبتي الجديدة الباب. رغبتْ في إغلاقه بمنتهى الرفق فأطبقته بعنف. اغتسلت وأصلحت من شأني. طلبت من سائقي عن طريق الكاتبة أن يأتيني بشيء آكله. وعدت إلى أوراقي أنظمها لتكون جاهزة لوضع تقويم عام وشامل لجميع ما كنت قد قمت به منذ علوت كرسي الوزارة. غرقت في المراجعة إلى الليل والحركة هادئة أمام مكتبي هدوءا قاتلا. كنت أشعر بكثير من الخواء في داخلي وكثير من القلق والتوجس.

حاولت أن أرفع من معنوياتي مرات فلم أوفق. أنا سيدي حاكم التحقيق رجل عملي جدا. يقتلني الكساد، والفراغ يجنّنني. كنت لا أستقر في مكان بالقاعة التي كنت أعلّم فيها الصبيان. أذرعها طولا وعرضا مئات المرات. أملأ اللوح كتابة وأمحوه عشرات المرات. ما أكاد أنتهي من شدّ شعر بنت ارتكبت خطأ في أوّل القاعة حتى تكون صفعتي قد استقرت في آخرها على خدّ صبي مشاغب يضاحك التلميذ الذي يجلس إلى جانبه. بهذا النشاط

كوّنت الأجيال تلو الأجيال. والآن أجلس فارغا إلى مكتبي بوزارة كاملة من وزارات الدولة ؟

دخلت عليّ كاتبتي لا أدري لماذا. عجبتُ كيف لم أنتبه للتغيير الطفيف الذي أدخلته على مظهرها. ليس من شك في أنها جاءت من عند الحلاقة. زجّجت حاجبيها. وضعت قليلا من الأحمر على شفتيها ودسّت في عينيها كحلا جذابا. شعرت بي أدقق فيها النظر فابتسمت وخرجت.

ردّدتُ في نفسي قول الحكيم القديم «ما دواء الكساد إلا الفساد». وخير الفساد ما كان تاما في أسوأ الأحوال. وابنة أختي من الرضاع قد حزمت، في ما يبدو، أمرها على مواجهة ذلك الذي كانت، حسب تلميحها، تتوهّمه في أمّها لتكتوي به. لم آنس في نفسي تجاوبا مع هذه الخواطر المضطربة فقد كنت محبطا كثير بلابل الصّدر. لكنّني رأيتُ أنها تراهن على فرس غير مناسب في وقت غير مناسب مثلما كانت أمها قد راهنت لها من قبل على زوج غير مناسب من قرابتها غير المناسبة. رفعتُ كتفيّ استهانة وقلت في نفسي : «هذا شأنها ما دمنا نجرجر أخطاء الأمهات».

أشرت إليها وهي تتهيأ للانصراف بأن تغلق الأبواب. لم تفهم فظلت تستفهم بالإشارة عمّا أريد وتبتسم. كانت حركاتها رشيقة مضحكة. قمت للمهمّة بنفسي. رأيتها يستولي عليها اندهاش. همستْ وأنا آخذ بيدها وأقودها إلى المقعد الأريكة : «أيّ شيء تفعل ؟». لم أجب. ظللت أتأمّلها في صمت لا أتعدّاه إلى ما كنت مولعا بالتعجيل في اقتحامه. داهمني فتور مباغت جعلت أتعجّب

منه، في سرّي، كلّ العجب، والحرج يعلوها شيئا فشيئا، تداريه بالابتسام فتظلّ الابتسامة معلقة في المنطلق يفزع منها الرّفيف إلى التكلّس. أنا مولع سيدي الحاكم بما تنطق به الأجساد من ألوان الكلام. كنت أحكم الإنصات إلى الرّعدة فيها والرّعشة والتغضّن والانكماش والانبساط والتطلّق والافترار وإلى ما يعلوها من علامات الخجل والوجل فلا أجدني، من صميم فصاحتها، أنصت إلا إلى نفسي. لعلّ الوضاعة، ومعظم اللاتي عرفت وضيعات فيما يزعم ابن خالتي طبعا، سطح مصهرج لا أثر فيه لأيّ عمق بليغ. لكني أومن إيمانا راسخا بأنّ لكل جسد نكهة في النّطق تدرك ولا توصف. نكهة كالبصمة خاصة بكل فرد. من البصمات ما هو واضح إلى حد الإزعاج ومنها ما هو مبهم منطمس في سحر الغموض. ومع ذلك فإنّ البصمة، في حالتي الوضوح والانبهام، لا تطابق البصمة أبدا.

أخذني التفكير في البصمات حتى ظللت أراوح في حيّز واحد من الارتخاء قريبا من كاتبتي. طلبت منها أن تحدثني عن نفسها. ظلت برهة مشدوهة تتعجّب من طلبي مضطربة كأنما تهمّ بأن تستغرب ما لم يكن يدخل لها في حسبان، ثم استجابت بجمل مقتضبة عن الحي الذي تسكن فيه لتُسْهِل في أحاديث شتى. ذكّرتني بالعام الذي درستْ فيه عليّ. لم أتمكّن من تذكّرها. قالت: «كنّا نخشاك فكنا نحفظ من شدة الخوف. وعندما قالت لنا بنت من اللاتي كنّ يتلقين عليك دروسا خصوصية إنها سمعت أنّ «سيدي لا يقبّل ولا يعانق مثلما يقبّل أهل التلفاز ويعانقون»

صعقنا. كدنا نضربها. رميناها بالكذب. كانت تقسم وتقول : «هو ما بلغني. قالته واحدة جرّبته. لم نصدّقها». تذكّرت فجأة اليوم الذي عرفتُ فيه أمها. جاءت ملتحفة تسأل عن ابنتها. وزنتها فلم أجد فيها ما يُنتفُ. قالت : «أبوها في الخارج قد انقطعت عنا أخباره. وأنا وحيدة مكسورة الجناحين. ألتمس منك فيها معروفا لوجه الله». تأمّلتها فلمحت عليها مخايل ملاحة ذابلة. همست لها : «حرام أن يبقى هذا الحسن دون عابد». ابتسمت فانجذبت إلى ابتسامتها. قلت : «البنت أهنئك عليها. أما أنت فلنفسك عليك حق عظيم». زوت ما بين حاجبيها متسائلة فقلت : «لديك وقت ؟». قالت : «الآن». قلت : «نعم. دقائق معدودات». انتظرتني أمام الباب فأسرعت بها إلى شقة زميلنا في العمارة المتداعية. لم يغب عني أنها كانت متعوّدة. لهذا الصنف نكهة أخرى، فنحن منهن نتعلم بينما نلقن الأخريات ونعلمهن. كله جميل ما دام طريقا صحيحة للتناهي. داخلني منها انقباض عندما شاهدتها تفتح حافظة نقودها لتتظاهر بعدّ ما فيها وترسل تنهيدة حارقة. تغابيتُ حتى استجمعتْ وقاحتها وقالت : «تعطيني سلفا للمرة القادمة، زماننا في هذه الأيام كالعود اليابس»، وذكرت مقدارا استكثرته فسلمتها ربعه وقلت : «اجعليه تسبقة» وأصابني منها قرف مباغت.

استغربت أن تدخل عليّ سخافاتُ كاتبتي التي هي في عرف الجميع ابنة أختي من الرضاع ارتياحا كبيرا صرفني عمّا كنتُ قد عقدتُ العزم عليه. هذا على الأقل مجال لا مقالب فيه ولا وشايات ولا أحابيل أو مزالق ولا محارق. قلت لها ونحن نهمّ

بالخروج : «أنت أفضل عندي من حشد كامل من النساء». لم تفهم فظلت تبحلق فيّ ببراءة آسرة. كنتُ راضيا عن نفسي لكني تخوّفت من الرّجوع إلى منزلي. صار جحيما حقيقيا لولا ابنتي الصغرى. تخوّفت أيضا ممّا تخبئه لي الأيام بعد هذه اللحظات الهادئة التي غنمتها بعيدا عمّا اعتدت الفوز به من ألوان الغنائم. صار لديّ اعتقاد راسخ في أنّ أيامنا الكالحات، وهي دائما كالحة، لا تمنح بيد إلا أخذت بالأخرى أضعافا.

يظهر أنّ سعادتي الممتّعة سفاهةً ببراءة السّخف في تافه حكايات كاتبتي قد تركت فيّ مفعولا خاصّا، فقد نهضت باكرا لأجدني خفيفا حتى إني انتبهت إلى أني كنت في الحمام أدندن بأغنية قديمة كنتُ أنسيتها تماما. آنست في نفسي نشاطا شديدا ورغبة عارمة في العمل.

طرت إلى مكتبي. جعلت أرتب أفكاري عندما رأيت كاتبتي القديمة تحوم حولي. لم تكثر من الدخول والخروج على عادتها وإنما أقبلت على تُحَفٍ صغيرة وصور في إطاراتها لسيادته وهو يصافحني بعد تأدية القسم على أن تكون مصلحة الوطن لديّ فوق جميع الاعتبارات، فتظاهرت بتسويتها. اقتربتْ من مكتبي وقالت : «لديّ سؤال قد يكون عندك جواب عليه». تساءلت بالإشارة عما هو فقالت وهي تتظاهر بكتمان ابتسامة ماكرة : «هل تحلّ بنت الأخت من الرضاع لخالها ؟». قلت بنبرة متجردة : «لا تحلّ له في الإسلام إذا كان بثدي الأم حليب. ولا تحل له في الجاهلية وما إليها سواء أكان بثديها هي لبن أم لم يكن». قالت : «ما

أفقهك في علوم الثديّ والأوراك». استطرفت كلامها فقلت: «لو كنا في الجاهلية ورغبت في أن تكوني لي أختا مكّنتني من ثدييك فامتصصتهما ساعة أو ساعتين فصرت لي أختا حقيقية». قالت بخبث مكتوم: «ليتك قلت لي هذا من قبل». قلت: «ذاك علم لم ترقَ له مداركك بعد. لكن ما الداعي إلى هذا السؤال الغريب؟». قالت: «خطر في ذهني شيء. ألفيت في المكتب رائحة لا أخطئها ولا أخطئ ما وراءها. سألت الحاجب فقال إنك بقيت تشتغل مع ابنة أختك إلى ساعة متأخرة». قلت: «يظهر أن رائحة زوجك الزفرة قد أفسدت عليك جميع الحواس». غيّرتُ موضوع الحديث مرة واحدة فقلت: «هل انجلت عنّا الغمة؟». قالت: «لا يعرف ما يجول في ذهن المقام السامي أحد. ترى جميع الناس ينتظرون منه أن يضرب فلا يضرب. وتراهم لا يتوقّعون منه شيئا فتنزل ضربته القاضية على من لم يكن ينتظرها». استعذت بالله من كلامها وقلت: «نكّدت عليّ صباحا كنت متفائلا به». قالت بغنج: «أرضيك بجميع ما تحب في الوقت الذي تحب».

دعوت رئيس ديواني تنسّما للأخبار. سألته عما وصلت إليه اللجنة فقال ويده تمسح على شاربه المنفوش: «أقدّر أننا نفرغ خلال يومين أو ثلاثة». سألته عن رأيه في الكيفية التي يسير بها التفريط فسوّى نظاراته وقال: «العمل جار على وتيرة واحدة. السوق راكدة محليا والأزمة مخيمة عالميا». تضايقت من شيء ما في هيئته كان دائما يستفزّني. كنت أشتهي، كلما اتّخذ هذه الهيئة، أن أشبعه صفعا.

غرقت، بكثير من التفاؤل، في مراجعة الإنجازات التي حققتها وزارتي منذ اضطلعت بتسييرها. لم يكن التقويم رغم سلبيته قاتما. صحيح أن المبيعات المتوسطة والصغيرة الداخلية لم تكن موفقة. كانت الصفقات يفوز بها دائما الذين لا يستحقونها بحكم تواضع العروض التي كانوا يقدمونها بينما تُسْتَبعد عروض أخرى مغرية. غير أنّ تفريطي في المصنع الكبير رغم الضغوط الشديدة التي تعرّضت لها والتهديدات المبطنة والصريحة التي تلقيتها كان عملا رائعا. صحيح أنّ الثمن الذي بعناه به لا يغطي إلا جانبا محدودا من الحاجيات الضرورية متى أضفنا إليها الخسائر الكبيرة التي منينا بها في بيع المصانع والمعامل والشركات والورشات الأخرى، إلا أنّا إذا أضفنا إلى ذلك كلّه ما سنجنيه من إتمام الصفقة مع الدولة العظمى خرجنا بفائض عظيم. علّمت بالأخضر على الرقم الإيجابي الكبير في خاتمة التقويم وبالأحمر القاتم على الأرقام السلبية في وسطه، واخترت لرقم صفقة المعمل الكبير اللون البرتقالي. وتنفّست الصعداء.

عاودني قلق من انقطاع ابن خالتي عني. سألت كاتبتي عنه فنفت أن يكون لديها أيّ علم. طلبتُ منها أن تستفسر بلباقتها كاتبته عنه فأبدت ترددا. استغربتُ أن تمضي أسابيع عدة دون أن أتلقى مكالمة من أجهزة الحزب الحاكم أو أدعى إلى مناسبة ما من كثير مناسباته الاحتفالية. تعجّبت من أن تنقطع خيوط التواصل بيني وبين نظرائي الوزراء. صحيح أنه لم تنشأ بيني وبين أيّ منهم علاقة مودة أو استلطاف. لكن للمجاملات حقها من التقدير. قلت في سرّي متأسّيا بحكمة أسلافنا النبهاء : «من هو المجنون الذي

يصادق وزيرا. أليس أنّ اسمه مشتق من الوزر. وهل وراءهم إلا الأوزار الكبيرة والصغيرة ؟».

وجدتني أدور في دوّامة مفرغة من التساؤلات دون أن أعثر على من ينوّرني. قد كنت جئت اليوم منشرحا للعمل، فما هذه الأفكار السوداء التي تمعن في محاصرتي. تسللت إلى عميق أعماقي باحثا عمّا يمعن في إزعاجي بتستّر مريب. بدا لي فجأة أنه الخوف من أن تتراجع الدولة العظمى في إبرام ما وعدت بكرائه ممّا لا يصلح لنا من بلادنا. لو حصل هذا، لا سمح الله، كانت كارثة حقيقية. قلّبت الأمر على وجوهه في المسألة وكلما ازددت تعلّقا بالتفاصيل ازددت خوفا من أن يعطّل الصفقة مانع. بدأت أحتار من أمور كثيرة بدت لي غير بينة.

خطر لي وأنا في حضيض الحيرة أن أسأل عن السيد مستشار سفير الدولة العظمى لأعرف إلى أين وصلت الأمور التي بيننا. جاوبني ببرود كبير لم أستغربه منه فقد كنت متأكّدا من شدّة تعجرفه. ثم قال لي : «يبدو أنك لست عارفا بالمستجدات». استغربت كلامه فقال لي باقتضاب شديد : «كادت المسألة التي لم نقصد منها إلا مساعدتكم على طريقتنا أن تتسبّب في حرب كونية». طلبت مزيدا من التوضيح فنصحني بأن أراجع حكومتي.

أصابني غضب أظلمت منه الدنيا أمامي. خجلت من الوضع الذي وجدت نفسي فيه حتى أصابني وجع في أسفل البطن. وقفت أحرك ذراعي وأتدرّب على التنفس بعمق. أيكون الماء قد لعب تحت ساقي وأنا غير شاعر وغير دار ؟ وجدتني أحقد حقدا

حقيقيا على ابن خالتي وعلى صاحب السيادة وعلى الوزارة. سدّدت ركلة قوية للكرسي الذي كنت أجلس عليه.

ظللت مدّة أنشد هدوء النفس حتى سكنت مشاعر المعرّة التي تغلغلت في كياني ودعوت رئيس ديواني. حاول أن يؤجّل مقدَمه إلى ما بعد الفراغ من اجتماعه. طلبت منه أن يعلّق الاجتماع إلى ساعة أخرى. بدأت أراجعه في ما قمنا بإنجازه منذ تسلمنا الوزارة وعندما وصلت إلى الأحاديث التي أجريتها مع مستشار سفير الدولة العظمى تظاهرت باستغراب انقطاعه عن الاتصال بنا. لَمحْتُ على محياه مخايل مداراة لشيء من الحرج فقلت : «لديك فكرة عن الأسباب». أطرق وقال : «تصوّرت أنكم تعرفون أكثر مما أعرف». قلت : «أعرف ماذا ؟ حدث شيء ؟». قال : «ألم يقولوا لكم إن الدول المجاورة قد أقامت علينا الدنيا ؟». ظللت أنظر إليه مندهشا. استأذن لدقيقة واحدة وخرج. شعرت بضغطي يرتفع. جاءني بملف وقال : «فيه ما استطعت الحصول عليه في انتظار استكماله مما كنت أعتقد أنه لديكم من معلومات». كان يشير إلى الملخصات السرية التي كانت ترد علينا والتي انقطعت عن وزارتي منذ مدة. أشرت إليه بأن ينصرف وفتحتُ الملف. كانت به صور من قصاصات صحافة أجنبية لا تدخل بلدنا.

شدّني عنوان كبير بالصفحة الأولى من جريدة عالمية من الوزن الثقيل. قرأت : «أزمة دبلوماسية حادّة في المنطقة... : دولة عظمى تسعى لإقامة قواعد عسكرية في البر والبحر بالبلاد...». غرقت في المقال إلى أذني. ذهلت من دقة المعلومات. من أين لهذا

الصحافي اللعين بكل هذه الدقائق ؟ لم يترك شاردة لم يذكرها. تحيّرتُ. من سرّب هذه المعطيات الدقيقة ؟ هل هي كاتبتي الأولى ؟ هل هي الكاتبة الثانية ؟ هل هو رئيس ديواني ؟ لا يمكن أبدا أن يكونوا هم الذين سربوها فرادى أو مجتمعين. ثمة أشياء لا يعرفها أيّ منهم. اتجهت ظنوني إلى ابن خالتي. استبعدت أن يكون هو. شككت في حاشية المقام السامي. جفّ ريقي. تكدّر بصري.

آلمني أكثر ما آلمني في المقال استهزاؤه بي. رماني بأقبح نعوت الغباء والحمق. كان يسمّيني : «المعلّم الصغير». سمّاني أيضا «المدرّس الأمّي» و«الخبيث القميء». جرّدني من أي شعور وطني نعتني بـ«المتحمس الكبير لسياسة الصفقات الغبية». اكتويت بقوله : «حسبها معلّمنا الصغير عملية حسابية من ذوات المجهول الواحد مما هو دون العشرات فنسب للمجهول رقما من جنس الكسور وجعل يردد كالببغاء جملته الحقيرة «رجعت إلى الدار فرحا مسرورا». وعندما ختم المقال بقوله : «ما هو إلا بيّوع من بيّاعة الأوطان» تكدّر بصري واختنقت.

قرأت أن أجوارنا الأشقّاء قد احتجّوا كل على طريقته. أمّا الجنوبي فقد أذن لمعسكرات التدريب على الأعمال التخريبية بأن تفتح أبوابها للمتطوّعين من الناقمين على النظام والحكومة والهاربين منها. وأمّا جارنا الآخر فقد احتشدت قواته على الحدود تُجري في الظاهر مناورات عادية، وأرسل وفدا رفيع المستوى للاحتجاج رسميا. وأمّا الذين بينا وبينهم مياه البحر التي رمت طيلة التاريخ على امتداد شواطئنا بأصناف الغزاة فقد أرسلوا علينا وسائل إعلامهم

بالسب والشتم وحركوا ضدنا منظمات مجتمعهم المدني. أذاعوا بصفة غير رسمية أنهم قد يقطعون العلاقات الدبلوماسية معنا وجميع أصناف الإعانات. طالبتْ بهذا أحزابهم ومنظماتهم المعارضة. اندهشت من براعة الدقة في توزيع الأدوار.

لم يخامرني شك في أنّ البركان الذي كنت على فوهته بدأ يستعدّ لإرسال الحمم. لكن هل كان في الأمر خديعة مثلما زعم المحللون المختصون في التوازن الاستراتيجي. أيكون ذلك الأبله الوقح المتعجرف رغم أناقة مظهره قد سخر مني وعدّاها علي ؟ هل الذنب ذنبي سيدي الحاكم إذا كان محكوما على الغريق بأن يتعلّق بقشّة يرى فيها قاربا كاملا للنجاة ؟ أليس أن الفقر بوّابة للطمع ؟ ما الذي حوّل سياساتنا الوطنية إلى صفقات وحكوماتنا إلى سماسرة ؟

طلبت من كاتبتي القديمة أن تطلب لي كاتبة ابن خالتي. سمعتها ترحّب بي بأدب فقلت : «أين سيادة الوزير الأول ؟». قالت : «علمي علمك يا سيادة الوزير». قلت : «منذ متى لم يأت إلى مكتبه ؟». قالت : «هو دائما هنا. غير أنه يبدو اليوم مشغولا في الضفة الأخرى مع المقام السامي». قلت : «هل تتوقعين أن يأتي ؟». قالت : «بكلّ تأكيد. طلب مني أن أنتظره مهما تأخر». قلت : «رجائي أن تبلغيه أني بانتظاره». قالت : «أبلغ كاتبتكم حالما يصل».

طلبتُ من كاتبتي الثانية أن تمدّني بجميع المراسلات التي وردت علينا من المقام السامي. جاءتني بملف ضامر جدا. تصفّحته ورقة ورقة فلم أعثر على حرف واحد يتعلق بالمراسلات التي رفعتها في المفاوضات التي دارت بيني وبين مستشار السيد سفير الدولة

العظمى. لم أتلقّ أيّ ردّ يتعلّق بزيارة السيد السفير نفسه. لم أر أيّ أثر كتابي يشير من قريب أو من بعيد إلى الإذن لي باستقبال سفيري الدولتين العظمى والصديقة الصديقة. تم كل شيء بواسطة الهاتف. إن كنت لم أتلق أيّ مكتوب في هذا الشأن فأين ذهبت نظائر الصادرات التي كنت أرسلت ؟ أسقط في يدي. سيقال لي من أذن لك بأن تتّخذ مبادرات من اجتهادك الفردي تعرّض بها البلاد للخطر ؟ بدأت الجدران تدور حولي.

تذكّرتُ السيد المستشار السياسي بوزارة الداخلية فطلبته. حمدت ساعة الصفو التي زينت لي أن أطلب منه رقمه الخاص. كنت أتوقع ألاّ يأخذ المكالمة. لكنه أخذها. كان استقباله لي على الهاتف حفيا. سألته عمّا يمكن أن يترتب على الزوبعة التي أثارها جيراننا. لم يفاجئه دخولي مباشرة في الموضوع. قال بهدوء حسدته عليه : «لا تشغل بالك بالمسألة أكثر مما تستحق. ما هي إلا سحابة صيف. ينكرون علينا ما لو قدروا عليه لسعوا إليه زحفا. ليس للحسد دواء. وقديما قيل «اتق شر من أحسنت إليه». بعث فيّ كلامه شيئا من الطمأنينة فقلت : «تخوّفتُ من أن يصبح الأمر أزمة لسنا في حاجة إليها الآن». قال : «ما تشير إليه لا يكاد يذكر أمام قلاقل سبقت كانت أدهى وأعظم. نحن يا سيدي سياسيون. أما هم فوحوش جبال ورعاة إبل في الصحراء. لولا حكمتنا السياسية لكانت الحرب بيننا وبينهم على قدم وساق. بلادنا لست محظوظة بجيرانها». شعرت بكثير من الارتياح. هذا على الأقل رجل يفهم في الشؤون السياسية. قرأها في أشهر المعاهد والجامعات ويمارسها

في أفضل مجالاتها أعني حماية الوطن وسلامة الدولة والذود عن التراب. يأخذ المعلومات من مصادرها الحقيقية.

لم يطلبني ابن خالتي فهو إذن لم يرجع إلى مكتبه. سألت آخر عشيّ عن رئيس ديواني فقيل لي إنه قد دعي إلى إحدى المصالح خارج الوزارة. لم ألقِ للأمرين بالا. كانت معنوياتي قد ارتفعت. إذا أرغمتنا الدول المجاورة، بدافع الغيرة والحسد، على فسخ التعاقد مع الدولة العظمى أو على إرجاء تنفيذه إلى لحظة مواتية فهذا لا يعني البتة أن المشروع الذي جئت به فاسد. وإذا اتضح أنّ تقويم التفريط في ممتلكات الدولة قد كان عملية في جلّها خاسرة فهذا لا يرجع إلى تسييري لشؤون وزارتي وإنما يرجع إلى تعطّل بعض المشاريع العظيمة وإلى ثغرات في القوانين وفي إجراءات التنفيذ لا بد من العمل على تلافيها. وإذا بدا لسيادته أن يجري على الحكومة تحويرا وزاريا طفيفا، ترضية لبعض الضغوط وتلبية لبعض النصائح وامتصاصا لبعض التوتر، فلن أكون إلا في وزارة أخرى من الوزارات أو في أسوأ الأحوال سفيرا ببعض الدول الشقيقة والصديقة. لو سئلت عما أفضل لفضلت الصديقة على الشقيقة.

لاحظت، في غمرة انشغالي بهواجسي، أن كاتبتي الجديدة، بنت أختي من الرضاع، قد أفرطت في الإصلاح من شأنها. لم أستبعد أنها قد أمضت الصباح كلّه في التّجميل في إحدى المحلات المختصة. ثم إنها قد ارتدت ثوبا يبرز على نحو جذاب ما للأنوثة من خيرات. شدّ انتباهي، عندما فطنتُ إلى ذلك، أنها

تتكلف حركات موقّعة في الدخول والخروج. فهمت أنها قد أوّلت انصرافي، في المرة الماضية، عن الإقدام على جميع ما كنت أسارع إلى التوغل فيه مع سواها على أنه زهد في قليل ما كانت الطبيعة قد حبتها به، فهي تتداركه متوسّلة بصنوف الملاحق. ساءني ذلك حتى هممت بأن ألقي عليها درسا في الأخلاق من دروسي المعلّمية التي لم تنفع إلا قليلا. لكنني كنت هابط المعنويات مكدّرا يكاد يأخذني في مكتبي الاختناق. كان حدسي هذه المرة صادقا فما أن أمسكت بحافظة أوراقي الخاصة ونهضت استعدادا للخروج حتى دخلت عليّ وقد تملكتها لهفة لم تفلح في مداراتها وقالت: «منصرف أم ستعود... أنتظرك... أعني قد تحتاج إلى شيء». قلت: «أخشى أن أكون قد تأخّرت كثيرا». علتها بهتة اختلجت لها أساريرها حتى كادت تجهش بالبكاء. خرجت أدقّ البلاط دقا وأنا أردد بيني وبين نفسي «ما نحن إلا مساكين. كلّ على طريقته».

خطر لي، عندما بدأت تنتابني بوادر اليقين بالهلاك، أن أزور خالتي التماسا لمعجزة تنقذ رأسي من عظيم بركاتها، فأنا ما زرتها منذ استوزرت إلاّ مرتين كنت فيهما على عجل. كانت الأيام قد نالت منها حتى أصبحت تلازم فراشها لا تكاد تتركه إلا إلى حاجة مؤكّدة. كان سمعها قد ثقل وأصبح نظرها قصيرا. انتدب لها ولدها ممرضتين للعناية بها قالت إنهما كانا من «خيرة الناس». ألفيتها في فراشها فهممت بالاندساس إلى جانبها أنشد بركة وسكينة. لكني خشيت أن أضايقها فاكتفيت بالجلوس على مقعد بجوارها. ظلت ممسكة بيدي لا تتركها وجعلت تسأل عن أسرتي

فردا فردا، ثم قالت : «أشعر بك مكدّرا. ما الذي يزعجك ؟» أردت أن أتنهد فتأوّهتُ. شعرت بيدها تنتفض في يدي. أفلحت في أن أقول : «ما أراني يا خالتي إلا في فوهة مدفع». استعاذت بالله مقاطعة وقالت : «أمن أجل تلك المناصب تقتلون أنفسكم». اندهشت مما لم أكن قد فطنت له من خفيّ حكمتها فقلت : «كيف قدرتم على أن تقنعوا بما كنتم فيه ؟». تظاهرت بأنها لم تسمع وقالت : «أراها حلما صيفيا. معظم الذين عرفتُ قد سبقوني. تركوني وحدي. أنا واجدة عليهم». ظهر عليها شيء من الضيق. أرادت أن تتماسك ثم ارتخت وهمهمت : «اعذرني. بي رغبة في أن أرتاح قليلا». قبّلت رأسها طويلا تكاد تنفر من عيني العبرات. وانصرفت مهدودا.

وصلت إلى مكتبي باكرا يحركني تفاؤل دافئ بأن معجزة ما آتية لا محالة لإنقاذي. ظللت على كرسي الدوّار برهة أتعجّب من أن الحياة مليئة بالمسرات فلا يقيم الناس منها ويقعدهم سوى الإسراف في التحسّب لما يتوقعونه من شديد البلاء. كنت مأخوذا بهذه الفكرة أرفع بها من معنوياتي عندما رن الهاتف التبني على مكتبي. انقبضتُ وقلت: «اللهم اجعله في هذا الصباح المبارك خيرا». جاءني صوت ذلك الوزير المستشار المرابط على حاشية من مكتب سيادته يقول محتدّا: «ما هذا الذي سرّبت لوسائل الإعلام الأجنبية عن مقابلاتك المشبوهة لسفير الدولة العظمى وجواسيسه؟». جمد في حلقي اللسان. جعل يقول بنبرة مقرّعة: «العمل الحكومي له تراتيبه، يا... يا سيّد. وأنت ترقص على أيّ طبل. تتصرّف في شؤون الدولة بخرق الحمقى والمجانين. قد غرقت السفينة فأنقذها الآن يا...». لم أسمع الباقي. حلّ محلّه دويّ في أذنيّ. بدأت رؤيتي تتكدّر. خيل إليّ أنّ باب كاتبتي قد انفتح وأنّ صوتا بعيدا يشبه صوتها ينادي: «ينبغي الإسراع به إلى المستشفى. إنه

يموت». أحسست بلساني يردد في حلقي : «لن أموت قبل أن أموّتكم جميعا».

أفقت في غرفة نومي. حاولت أن أتذكّر ما حصل حتى جيء بي إليها فلم أستطع. كان رأسي يملأه الدويّ وفي أذني زفيف. تبينت، رغم اضطراب رؤيتي، زوجتي واقفة عند رأسي. همهمتُ : «ماذا جرى ؟». قالت بصوت بدا لي بعيدا : «تحتاج إلى قليل من الراحة». رأيت نظرها يتّجه إلى ناحية أخرى. التفتت فشاهدت ممرضا في قاع الغرفة ينظر في مجلّة بين يديه. قام إليّ. جسّ نبضي. نظر تحت أجباب العينين. ناولني مشروبا ألزمني بابتلاعه وقال يخاطب زوجتي : «دعوه يرتاح. أزوره بعد ساعتين».

قلت : «منذ متى أنا هنا ؟». قالت : «منذ الصباح. نحن الآن في بداية الليل». قلت : «هل سمعت نشرة الأنباء ؟ هل أذاعوا شيئا ؟». قالت : «لا شيء إلا ما سمعه الأولاد بالشارع من أن دولة كبيرة تريد بنا شرا. قالوا إنك تصدّيت لها. ما لنا وللدول الكبيرة حتى نصل إلى هذه الحالة ؟». قلت : «قرّبي مني جهاز الهاتف». قالت : «حجر الطبيب عليك كل شيء». هممت بأن أصرخ فأحسست بارتخاء في عضلاتي. رأيت ابنتي الصغرى تطل برأسها من الباب. لا أدري ما إذا كنت قد ابتسمت لها. شاهدت في عينيها بريقا.

أفقت مرة أخرى في آخر الليل. وجدت زوجتي جالسة عند رأسي. كنت لا أتبين ملامحها. قلت : «إني جائع». جاءتني

بحساء دافئ أصبتُ منه قليلا. كانت وهي تطعمني تقول: «جاءوا بك إلى هنا. لو ذهبوا بك إلى المصحة كان أحسن. قالوا إنك أنت الذي أمر بذلك. جاء الأطباء. قالوا إنها صدمة. ما الذي دعاك إلى لمس الكهرباء؟ كنت دائما في صراع مع خيوطنا المتهرئة». ناولتني مشروبا آخر قالت إنّ الطبيب الذي عادني منذ قليل أمر بأن أتناوله حالما أفيق.

هممت بأن أفكّر فلم أقبض في ذهني إلا على الخواء. رغبت في التحوّل إلى الحمام فلم أقدر. جعلت زوجتي تسندني فلا أكاد أتماسك. لم أصل إلى فراشي إلا بعسر. كانت الدنيا تدور بي.

انتبهت في آخر الصباح. ألفيت في نفسي نشاطا خافتا. كنت كالقادم من بعيد. حاولت أن أستعيد ما جرى فكانت الهيئات والأفعال والأصوات تتراءى لي مندغمة يصعب فصل بعضها عن بعض. دعت زوجتي الطبيب من قاعة الجلوس التي كان يرابط فيها. فحصني فحصا دقيقا. حقنني وخرج. بدأت أستعيد عافيتي. قمت إلى قاعة الاستقبال. كنت كمن يقف على ساقين من قطن على القطن. طلبتُ كاتبتي. استلطفت لي. سألتها عن أحوال المكتب والوزارة فقالت: «اهتم بصحتك أولا. كل شيء عادي إن شاء الله». هممت بأن أصيح: «أشعر بأني أصحّ من الجن الأزرق. هاتي الصحيح» فخرج صوتي خافتا وهنا محشرجا لا يكاد يبين. يبس الريق. سمعتها تردد: «صحتك هي الأهم».

طلبتُ كاتبة ابن خالتي. لم أعثر على رقمها إلا بعد بحث. عثرت عليه في دفتري القديم بالمحفظة «الخرج» إذ كنت قد دوّنته،

بإشارة منها، في ورقة وضعتها فيه عندما زرت ابن خالتي لتهنئته بالصعود إلى كرسي الوزارة الأولى فطلب مني سيرة ذاتية. استلطفتْ لي بنبرة محايدة. سألتها عنه فقالت : «لم يصل بعد. أبلغه أنك طلبت وأنك بالبيت».

لم تسألني زوجتي عمّا حدث لي في الوزارة حتى جيء بي إليها على تلك الحال. كانت تقول : «كيف تحسّ نفسك ؟ أراك تتحسن»، لكن هموم العالم كلها كانت قد تراكمت على محياها. غارت بين يوم وليلة عيناها. شحب وجهها وداخله اصفرار يميل إلى الزرقة. تكوّنت لها في مواطن عديدة من وجهها تجاعيد.

أطلّ عليّ الأبناء الثلاثة الكبار من الباب. لم يقترب منهم أحد. كان الهلع باديا على وجوههم. لا بدّ أن تكون ابنتي قد بكت طويلا. ببياض عينيها حمرة تلازم العروق. لم يثر توجّعها فيّ إشفاقا عليها. لم أشعر نحو الولدين بشيء. أصبحت بيني وبينهما مسافات. لم أتبين الصدق إلا في رد فعل ابنتي الصغرى. كانت تكثر من الدخول والخروج. تظلّ قريبا من السرير تنظر إليّ باستغراب. أبتسم لها فتهم بالإحجام ثم تقترب مسرعة وترمي على خدي بقبلة على عجل وتنفلت راجعة.

غرقت في تحليل الوضع الذي وجدتني مساقا إليه. إذا كان الذي قال إن الدولة تأكل نفسها إن لم تجد من تأكل صادقا فإني مأكول لا محالة. لم أرتح يوما إلى ذلك الوزير المستشار المرابط في حراسة مكتب سيادته يسأل عن أيّ صغيرة وكبيرة. كنت أعتبره شرا في شر. صارحت ابن خالتي برأيي فيه فقال : «دفنناه معا. لا

تهتم به. هو دائما يتخابث. تخابث صغار المخبرين». شككت أكثر من مرة في نوايا ابن خالتي نحوي. كنت أطرد عنيّ الشك معوّلا على القرابة. بيننا صلة رحم لم تكذب. لكن ما هي الجناية التي جنيت ؟

زارني الطبيب آخر عشي. فحصني فحصا دقيقا. حقنني مرة أخرى. سألته عن أحوالي فقال : «جيدة جدا». استعجل الانصراف. لم يكد يخرج حتى دخل رجلان كانت تتقدّمهما زوجتي ساعية في هلع ظاهر. أشار إليها أحدهما بالانصراف. أغلق باب الغرفة وقال : «تلبس يا سيادة الوزير. تصحبنا إلى الوزارة لبضعة دقائق فقط». لبست وخرجنا. كنت كمن يتعلم سيرا من جديد.

رُمِيَ بي في مقرات وزارة الداخلية في زنزانة منفردة. سمعت حارسا يقول لزميله خارجها : «الخامج السارق الفاسق البيّوع الخائن». هل كان يعنيني ؟

ينبغي أن أقول لك سيدي الحاكم إنيّ عوملت في الأيام الأولى على الأقل معاملة حسنة. معاملة لا علاقة لها بما كنت أسمعه من «شابيط» وأمثاله في حانة «شابيط» عن دهاليز وزارة الداخلية وأقبيتها. كان العون الذي يدخل عليّ لتفقّدي أو لاصطحاب الطبيب مهذبا. لم يزعجني شيء عدا ألفاظا بذيئة كنت أسمعها خارج الزنزانة فأحسبها موجهة إليّ فأنقبض ويصيبني فزع.

حاولت أن أتنسّم بعض الأخبار المهمة بالنسبة إليّ عن ابن خالتي وعن الحكومة وعمّا جرى بعدي للعباد والبلاد فلم أوفق. كان العون المهذب المكلف بتفقدي لا يزيد على ابتسام بريء يواجه به أسئلتي المتدفقة. أحيانا كان يقول بخبث : «أيسأل وزير مثلكم عونا بسيطا مثلي ؟». ثم غاب العون المهذب وجاء زبانية الجحيم. جاء أشخاص تظل الأرض نفسها تتشفّع منهم إذا مشوا عليها. لم يلحقني منهم أذى كبير. مجرد إيهام بأني ملاق ويلات يشي بها الإخفاق في تكلّف الطيبة عند أخذي إلى الاستنطاق. لم يوجّه لي أيّ منهم كلمة نابية واحدة. لكنّ رؤيتهم فقط كانت

تسقط أقوى القلوب بعيدا في أسفل البطون. لا أدري سيدي الحاكم من أيّ البلاد البعيدة جُلبوا فهذا النوع لا أتصوّر أنه من إنتاج بلادنا. لم يفزعني، أشد ما يكون الفزع، سوى صراخ كان يتناهى إلي أثناء الليل. لم أتبين الجهة التي كان يرد منها. صراخ متنوع كان ينبعث من أفراد أشقياء جلبهم حظهم التعيس إلى أقبية وزارة يبعث اسمها الرعب في أجرأ الأكباد. لم أسأل فالسلامة في مثل وضعي مرتهنة بالصمت.

جُررت في الأيام الأولى إلى استنطاق بسيط لم يستغرق وقتا. سُئلت عما إذا كانت لي حسابات بنكية خارج البلاد. سئلت عما إذا كانت لدي حسابات مصرفية أو ممتلكات زيادة عمّا كنت صرّحتُ به مرات. وعندما قال لي الذي يحقق معي: «كم قبضت في صفقة المصنع الكبير؟» هببت واقفا وصرخت: «لا! كل شيء عدا هذا!». ضحك المحقق وسحب صورة شمسية أظهرها لي من بعيد وقال: «ما أشد ما يشبهك هذا الجالس مع كبير مستشاري الشركة التي فازت بالمصنع الكبير... المكان والزمان...». صرخت: «أرني الصورة!». فقال ببرود عجيب: «ليس الآن. لم يأت وقتها بعد، لا يهمنا إلا الذي نسمعه منك». لم يعد لإطلاعي على شيء ممّا كان ينظر فيه من أوراق. ثم خفّت الحركة حول زنزانتي مثلما كانت قد خفّت في وزارتي عندما ادلهمّت دون علم مني أمامي الآفاق. أنا أحب الحركة سيدي حاكم التحقيق. في حي شعبي ولدت وترعرعت. وعندما انتقلت إلى حي جديد نصف سكّانه لا يعرف بعضهم بعضا تضايقت. أزعجني أن ينظر أجواري إليّ شزرا.

لذلك سرعان ما هربتُ إلى حيّ بين بين يسكنه أمثالي من أنصاف الناس. الحقيقة أن أوضاعي المادية كانت قد تدهورت قبل أن تمنّ علينا دولتنا الكريمة بالإقلاع عن مجانية التربية والتعليم. تشاءمت. رأيت في إحدى المرات التي جررت فيها إلى الاستنطاق الذي لم يكن استنطاقا صريحا ملفا كبيرا جدا أمام الرجل الذي كان يوجّه لي أسئلة لا معنى لها دون أن أراه، كان يحتمي مني بفانوس ساطع الأضواء، فأصابني الفزع. إن يكن هذا الملف ملفّي فقد هلكت دون شك. أيّ شيء يمكن أن تضعوا فيه ؟

أنا صاف نظيف، أصفى من الكريستال وأنظف من الكوب الفارغ. هل في المسألة أكثر من أني دُعيت إلى خدمة بلدي مثلما يدعى سائر الناس إلى خدمة بلدانهم ؟ تقلّدت الوزارة لنظافة يدي وصدق سريرتي وإخلاصي. طُلِبَ مني أن أشحن خزينة الدولة بالمال. هل الذنب ذنبي إذا كانت خزينة الدولة كالجراب المثقوب لا يستقر فيها فلس أو البالوعة الواسعة التي تصب في البحر ؟ هل الذنب ذنبي إذا لم يكن لدينا ما يباع غير المعامل والمصانع والشركات والورشات الخاسرة وغير آدميتنا ؟ ثم هل ترك الذين تعرف أكثر مني شيئا لم يبيعوه ؟ هل الذنب ذنبي إذا كان نظرائي الوزراء الذين باعوا جميع ما يباع وما لا يباع يسند كل واحد منهم جمع من القروش الضارية حتى احتاج سيادته في المقام السامي إلى من لا سند له خوفا على اللقمة من أن يهرب بها هارب ؟ ذنبي أن ابن خالتي كان ابن خالتي وأنه كانت بيننا مماحكات وإحن صغيرة. ذنبي أن بلادنا منذ عاد إليها ذووها المتحدّرون من صلب

ذلك الوزير الذي أخذ معه خزينة الدولة وهرب أصبحت أفضل وكر للنّهب والتهريب وغسل الأموال القذرة وجميع أنواع الفساد.

هل يدخل في ذهنكم سيدي الحاكم أنّ جلّ المحامين الذين كانوا يتظاهرون بإقامة الدنيا في التمسك بالقضايا التي كانوا يزعمون أنها عادلة قد رفضوا التوكّل عليّ. قال بعض لبعض : «هذا شأن داخلي بين أفراد أسرة واحدة فما دخلنا نحن فيه ؟». وطلب بعض ثالث مبالغ هائلة. أمّا ابن خالتي فقد تناهى إليّ أنه خرج ولم يعد. سافر في مهمة كلفه بها سيادته في المقام السامي فطاب له بالخارج المقام. ها أنذا أرافع عن نفسي. لن أسمح لكم بأن تلفّقوا لي ما تشاءون. أودّ أن أشكركم على الأوراق والأقلام التي أذنتم بتمكيني منها. ستقول لي : «من أين لك بهذه المعلومات ؟» فأقول لك : «لا يذهبن في ظنك أن الزنزانة التي حشرتموني فيها محكمة الانقطاع عن العالم. هيهات. إذا انتشر الفساد واستشرى صارت الجدران السميكة نفسها شفافة».

أعرف سيدي الحاكم أن إصبعك تحت الضرس مثلما كانت إصبعي تحت الضرس. هل الذنب ذنبي أو ذنبك إذا كانت للدولة أضراس طاحنة تطحن نفسها إن لم تجد ما تطحن ؟ هل أشعرك صديق نصوح بأنّ ابنك قد يمسكونه متلبّسا بإمساك المخدرات واستهلاكها وترويجها وأنهم قد يسجّلون عليه إقرارا بذلك ثم يسرّحونه إكراما لك ؟ هل لمّح آخر إلى أن أجهزة الدولة تمسك بصور خليعة مشينة لكثير من الشريفات سليلات الأسر النقية...

لا بد أنك قد فهمت الباقي. أتريد أن تفقد ابنك عندما يرمى به فريسة لوحوش الحق العام من لوطيين وشذاذ وقتلة ومجرمين، أم تريد أن يتلطخ شرفك ويتندّر به الخاص والعام ؟ أم تريد شيئا آخر ؟ فليكن ! ما رأيك في أن تلفّق لك تهم بالرشوة أو الخيانة العظمى وإمساك مبالغ هائلة من العملة الصعبة ويدّعى عليك بأنك كنت تتلقاها من أعوان جواسيس بدول تضمر لبلادنا الطيبة عداء قاتلا ؟ لن يبقى لك إلا أن تدينني بما تشاء ولا تشاء وأن تحكم عليّ بما ترى أني أستحقه ولا ترى. أمّا أنا فقد فهمت اللعبة. فهمتها متأخرا، لكنني فهمتها حق الفهم. أتدري لماذا حملوني إلى بيتي عندما ليح بي ولم يتحولوا بي إلى مصحة من المصحات ؟ كانوا ينتظرون أن أقتل نفسي أو أحاول هربا فتقوم لهم عليّ الحجة في جميع ما يمكن أن يتهموني به. لكن «دُوَيْو». ليس عليّ أنا.

قال لي عون من أعوانكم النزهاء، قبل أن يلقي نظرة عجلى على ملفي المكتوم عندكم إكراما لي لا غير : «يتهمونك بالخيانة العظمى، خيانة الوطن، وبالارتشاء. شهد عليك أعوانك. القرائن كثيرة ومتنوعة».

لعلّه يلمّح إلى تفاوضي مع نائب سفير الدولة العظمى. أنا الذي كنت سأضحك عليه وعليها معشر الحمقى والمغفّلين. كنت سأبيعه ماذا ؟ الفضاء، فليقبض عليه! والسباسب القاحلة، فليغرس فيها زعفرانا ! والحرارة في جوف الأرض فليحترق بنارها ! وماء البحر في البحر، فليشرب منه ! كانت، لو تمّت، تكون أكبر مضحكة في التاريخ، أن أفتل للحصان الجامح الرامح، من ناصيته،

محكمات شَكْلٍ تقيّده وتجنّبنا، إلى الأبد، أذاه. أفي مثل هذا الدهاء خيانة ؟

أنا أخون وطني ؟ هل تركتم شبرا من الخيانة لم تملؤوه حتى أتربّع عليه. أنا أرتشي ؟ هاتوا أدلتكم إن كنتم صادقين ! أمّا أعواني فمتى كان لديّ أعوان ؟ سأفضحكم واحدا واحدا. أنا لم يعد لدي شيء أخاف عليه أو منه. لست آسفُ إلا على شيء واحد. آسف عليه لأني أفتقده. تعرف ما هو ؟ إنه تلك المتع العابرة التي غنمتها رغم أنف الحكومة في عقر دارها. تعرف لماذا ؟ لأني، لأنّ الذي خرجت به أنّ الحكومة ما هي، في الحقيقة، إلاّ وكر هائل للخناء. قد آسف، بعد ذلك، على شيء آخر وددت أني لم آته. إنه زيارة ابن خالتي. لولا تلك الزيارة ما كنت الآن في دار خالتي أغصّ بقذارة الكلمات التي تبدأ في لغتنا بحرف الخاء. أما أنتم...»

* * *

مكّنتني من هذا الملف جيرة تسبّبت لي في صداقة قديمة كانت قد نشأت بيني وبين أحد الأتراب بالحي الذي كنت أقيم به من مدينتنا العتيقة. تلازمنا سنوات طويلة على مقاعد الدراسة وفي اللعب. ثم فرّقت الأيام بيننا. انتمى هو إلى سلك الأمن وظل فيه بين ترقية ونزول. واشتغلت، أول الأمر في مكتبة، ثم في مطبعة خرجت منها بسقوط بدني أسلمني إلى أعمال عرضية شتى ببعض من دور النشر. فرّق بيننا المكان إذ انتقل صاحبي إلى إحدى الشقق بالمدينة الأوربية بينما بقيت بالحي الذي ولدت فيه. كانت تبلغني عنه أخبار قليلة متفرقة وكانت أخباري تصل إليه كاملة وفي منتهى الدقة. ذلك ما كنت أكتشفه كلما جمعت بيننا صدفة من الصدف. قابلني قريبا من إحدى دور النشر التي كنت أتردد عليها. كان في حالة زريّة. سلّم وعانق وقال : «لدي شيء يهمكم». استغربت صيغة الجمع، فقال : «أعني صاحبك الناشر». وبادر إلى كيس من بلاستيك كان في يده فاستخرج منه ظرفا به ملف وقال : «ألف دينار لا تنقص مليما واحدا وأسلمك الباقي». طلبت منه أن يمهلني أياما وحددت له موعدا بأحد المقاهي القريبة. تردد برهة وقال :

«دعنا من المقاهي. العيون بها كثيرة». وحدّد لي وقتا بمستودع لإيواء السيارات. قرأت ما بالملف وتلطفت في عرضه على صاحبي الناشر فلم أجد لديه أذنا صاغية. شُددت إلى ما قرأت. بدا لي أني قادر على إظهاره ذات يوم هنا أو بالخارج فأمّلت خيرا. جمعت مدخّراتي فلم أحصل إلا على مائتي دينار. قال صديقي القديم، عندما التقيته بمستودع السيارات وشرحت له الموقف، وهو يتأفف ويضغط على النقود بغضب : «بئس ما صنعتُ. خاطرت بوظيفي لاستخراجها. كان أملي فيكم كبيرا. ناشرك في ألف خير». قلت له : «ما أراها تصلح. لا نستطيع حتى إظهارها عَلَنا. لكن ما الذي حصل له ؟». ضحك وقال : «كم تدفع ؟» سكتت فقال، وهو يشير بيده متظاهرا بإرشادي إلى ما لا أتبين : «دخل السيد الوزير في الحِلّة. هذا ما قيل لي. كنت قد عوقبت بالانتقال لمصلحة الأرشيف أحرسه ليلا. غرق صاحبنا في أيام من الحزن والصمت ثم تدلى في حالة من التشنج والهياج. كان يصرخ : «هاتوهم واحدا واحدا أركم فيهم». وعندما تهستر[24] وأصبح يسب رئيس الدولة وينعت قرابته وحاشيته بأقبح النعوت أسرعت به سيارة إسعاف إلى مستشفي المجاذيب». طابقت كلامَه عبارةٌ شاهدتها في الصفحة الأولى تقول : «يحفظ بموجب العطب...» تحت هذه العبارة بخط آخر «اللعين. يتعمّد الإسهاب في فسقه وقذارته الجنسية ويسكت كل السكوت عن رشاوى وسرقات متأكدة لم يُعثر لها على أثر». سحبني صاحبي من كمّي، وهو يشير بطريقة مسرحية إلى حيث لا أتبين شيئا، وقال : «ظل الوزير بخير في مشفاه. يسمح له الأطباء بالخروج يوميا، عند المساء، إلى دوحات هائلة من شجر

24 – أصابته الهستيريا.

«البلوط» تنام عليها العصافير فيلقي عليها خطبة في ضرورة تفريط الدولة في المصانع والمعامل والشركات والورشات الخاسرة يختمها دائما بأنشودة «ديكي ديكي أنت صديقي». ظلّ على هذه الحال حتى فطن له كهل مقيم بالمشفى نفسه. كان ذلك الكهل من ضحايا التفريط في أحد المصانع بالبيع. ركبه من ذلك غضب كبير. كان يحظى لدى رفاقه بكثير من التقدير فأقبل على خطط المقاومة السلمية يعبئ لها العمال. كان يزعم أن المصنع ملك للشعب، أقيم بمال الضرائب. رجل مسكين، من غير أبناء هذا الزمان، يعتقد أن الدولة مجرد أداة للتنظيم. أخذته سيارة إسعاف إلى مستشفى المجانين. دَرْوَله[25] الأطباءُ بالصدمات الكهربائية والمخدرات. فهمَ اللعبة فتظاهر بالتدجّن واستقام. أبدى ولعا بالحديقة ومهارة في العناية بها. كان يسلخ فيها معظم الوقت. منها شاهد الوزير فأثبته. أعدّ لما كان قد أضمره عدّة متقنة كان يتعهّدها بالعناية والتهذيب. هجم عليه ذات مساء. صاح به : «يا بيّوع، يا خائن، يا وبش، يا سارق. تظنك نجوت بافتعال الدخول في الحلة. فليكن ما يريدون. أولاد القحـ... . مجنون يقتل مجنونا». سحب من ثيابه نصلا، طعنه به في البطن والصدر مرات ونحره نحرا وهو يصرخ : «يا لثارات الشعوب».

انتهت

25 - اختلطت مداركه.

تم طبع هذا الكتاب
بمعامل فنزي للطباعة.
دفتر الاشغال عدد 1020
جانفي 2013

...كان يصرخ : «هاتوهم واحدا واحدا أركم فيهم.» وعندما تهستر وأصبح يسب رئيس الدولة وينعت قرابته وحاشيته بأقبح النعوت أسرعت به سيارة إسعاف إلى مستشفى المجاذيب».

فطن له كهل مقيم بالمستشفى نفسه. كان ذلك الكهل من ضحايا التفريط في أحد المصانع بالبيع. رجل مسكين، من غير أبناء هذا الزمان، يعتقد أن الدولة مجرد أداة للتنظيم.

أعدّ لما كان قد أضمره عدّة متقنة كان يتعهّدها بالعناية والتهذيب. هجم عليه ذات مساء. صاح به : «يا بيّوع، يا خائن، يا وبش، يا سارق. تظنك نجوت بافتعال الدخول في الحلة. فليكن ما يريدون. أولاد القحـ... . مجنون يقتل مجنونا».

سحب من ثيابه نصلا، طعنه به في البطن والصدر مرات ونحره نحرا وهو يصرخ :

«يا لثارات الشعوب».

حسين الواد

أستاذ جامعي باحث، من مواليد 1948 بالمكنين. له في الأدب العربي القديم والحديث والمناهج الحديثة مؤلفات عدّة، نذكر منها دراسته للمعرّي في رسالة الغفران، وللمتنبّي والتجربة الجماليّة عند العرب، ولبشّار ودوران الأشياء على أسمائها، ولأبي تمّام واللغة الشعر وغيرها. له في الفن السردي «روائح المدينة» (2010).

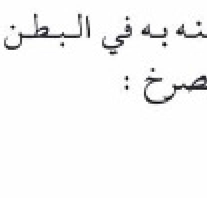

يرى الباحث حسين الواد أن الوقائع الفنية تؤثر أحيانا، وهي غير صادقة، أكثر من تأثير الوقائع الحقيقية الصادقة، وأن السر، كل السر، في ذلك إنما هو في الانتقال من عالم الأفعال الفانية إلى عالم الأقوال الدائمة.

Kinokuniya
03/2013
Dhs 69.00